

عَقِيدَتُنَا



راكان آل عايض

1448 هـ | 2026 م

.. عَقِيدَتُنَا ..

• رَاكَا نَ آلَ عَايِضَ •

فهرس

- ٨ • مقدمة
- ١١ ١- الإيمان بالله وحده وإثبات ما أثبتته لنفسه
- ١٦ ٢- الإيمان بالملائكة والكتب والرسل
وختَم النبوة
- ٢٠ ٣- البعث والحساب (اليوم الآخر)
- وأشراط الساعة
- ٢٣ ٤- عذاب القبر
- ٢٥ ٥- الإسلام والإيمان
- وعدم انفصال العمل عنهما
- ٢٨ ٦- ادخلوا في السلم كافة
- ٣٨ ٧- رؤية الله يوم القيامة
- ٤٩ ٨- علم الله، القضاء والقدر، والدعاء

٦٧	٩- حرية الإنسان في الاعتقاد
٨١	١٠- الشفاعة
٨٣	١١- التوسل بالأَمْوات
٨٧	١٢- السحر والعين
٩٨	١٣- عودة المسيح
١١٠	١٤- موقفنا من أحداث التاريخ وخلافات الصحابة، وعدالتهم
١١٤	١٥- الولاء والبراء
١٤٤	١٦- الإقرار بتعدد الشرائع.. وسبيل النجاة في الآخرة!
١٥١	١٧- القتل والقتال في الإسلام
١٥٣	١٨- نبذ العنصرية
١٦٨	١٩- العدل
١٧١	٢٠- الخمس لدى الشيعة
١٧٥	٢١- الملك العام في الإسلام

- ٢٢- بر الوالدين ١٨٧
- ٢٣- البيعة: لمن تكون؟ ٢٠١
- ٢٤- طاعة ولي الأمر.. من طاعة الله ورسوله!!! ٢٠٨
- ٢٥- ولو ردّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم! ٢١٥
- ٢٦- طاعة الله وطاعة رسوله: هل هنالك فرق! ٢٢٠
- ٢٧- الحكمة ٢٥٢
- ٢٨- الأسوة ٢٦٤
- ٢٩- الذكر ٢٦٩
- ٣٠- القرآن = الذكر ٢٧٨
- ٣١- اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ٢٨٣
- ملحق
- ١- الرسالة الخاتمة: للناس كافة ٢٩٧
- وهل العرب أفضل من غيرهم لمجرد كونهم عرباً؟
- ٢- قتلى في سبيل الطاغوت ٣١٤

٣- أنا مسلم.. إذن أنا حر.. إذن أنا مدافع عن الحرية

٣٢٢

٤- القول المبين في كفر آل سعود الغاصبين

٣٢٧

• خاتمة

٣٣٤



مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن أكثر ما يطرحه علينا المخالفون أو المعادون لنا، ونعني بالذات عبيد آل سعود وكهنة الوهابية ومن لفّ لفّهم؛ هو سؤال العقيدة! ما هي عقيدتنا؟ وما أكثر ما شكّوا فيها، واتهمونا بكل اتهام يخطر على البال، ولذا كان هذا الكتاب. وهو -على أي حال- عمل ضمن سلسلة أعمال سابقة كثيرة، تطرقت فيها إلى معظم الموضوعات التي تشغل تفكير الإنسان المسلم المعاصر.

سأكون هنا واضحاً ومباشراً، ما نعتقده ليس شاذّاً عما يعتقدّه المسلمون الذين على كتاب الله يستندون ومنه ينطلقون؛ ولذا سوف نورد آراء مجتهدين ومفسرين كثير كما هي، لأننا نتبناها ونميل إليها، فلم نأتِ بجديد في أكثر ما كُتب، ولم نرَ حاجة لذلك أصلاً، ولكن كما قلت آنفاً، ليس المطلوب هو تقديم الجديد، وإنما الإفصاح عما نعتقده كما هو، دون لبس أو غموض، وقد فعلنا.

لم نجامل أحداً في دين الله، ولم نتردد في إعلان موقفنا من كل ما يلزم له اتخاذ موقف، في كل الموضوعات والمسائل التي تطرقنا إليها في هذا الكتاب.

ومن نافلة القول إن تبيننا لهذا الرأي هنا أو هناك، أو اقتباسنا لهذا المفسر والكاتب أو ذاك؛ لا يعني تبني كل ما قالوه، ولا الاتفاق معهم في كل ما كتبوه، وإنما نحن نأخذ فقط ما هو في حدود المسألة المطروحة، في غير مخالفة لنص الوحي.

كما أشير إلى أن أجزاءً من هذا العمل موجودة في أعمال سابقة لنا؛ غير أن العنوان الذي حمله هذا العمل هو الذي اضطرنا لإعادة نشرها ههنا، ولأهميتها على أي حال، وارتباطها بمسألة الاعتقاد بشكل خاص. وطبيعة منهجنا هي التصحيح المستمر إن وقعت أخطاء سابقة، والتفصيل لما يلزم له تفصيل ومزيد وتوضيح؛ ففي بعض المسائل قد نكون في كتب سابقة تناولناها بصورة عامة، فبدا أنها تحتاج إلى مزيد بحث وتفصيل، لذا حاولنا التوسع فيها ههنا بشيء من التفصيل المرضي.

ولن نجادل حول استخدامنا لمصطلح العقيدة؛ قد يتفق البعض معه أو يختلف؛ المهم هو أننا نعني به ما نعتقده ونؤمن به ونميل إليه، لا أكثر من ذلك ولا أقل.

هذا ما أردت توضيحه في هذه المقدمة المختصرة، وإليك الكتاب.

ربنا تقبل منا، وانفع بنا، واهدنا إلى الحق وثبتنا عليه، يا أرحم الراحمين.

الإيمان بالله وحده وإثبات ما أثبتته لنفسه

إننا نؤمن بالله واحد، لا شريك له، ولا مثيل ولا ندّ، مطلق الإرادة والقدرة والعلم، هو المستحقّ الأوحد للعبادة بما هي تسليم كامل، وطاعة مطلقة، وانقياد تام له وحده، جلّ جلاله.

هو موجد الوجود كله، خالق كل شيء، المدبّر المتصرّف في خلقه كيف يشاء، وهو القاهر فوق عباده. فهو فوق كل خلقه، غنيّ عنهم أجمعين، لا يحيط به شيء من خلقه، ولا يحويه زمان ولا مكان، فهو خالق الزمان والمكان.

هو الأول قبل كل شيء (أزلي بلا بداية)، والآخر فلا بعده شيء (أبدي بلا نهاية)، والظاهر، الذي ظهرت وتجلّت عظمته وقدرته في كل شيء من خلقه، والباطن، فليس دونه شيء.

هو الله الذي لا إله إلا هو. هو الذي في السماء إله، وفي الأرض إله، فلا معبود سواه؛ سواء في السماء أو في الأرض.. {فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ

شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ * لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ { (الشورى: ١١-١٢). ثبت له ما أثبتته لنفسه في كتابه العزيز من صفات وأسماء، ونؤمن بها، وننفي عنه ما نفاه عن نفسه، تبارك وتعالى.

من جملة ما نفى عن نفسه أن يكون له مثل، جلّ وعلا، فهو سبحانه {..لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ..}، و{لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ * وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} (الإخلاص: ٣-٤)، و{لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (الأنعام: ١٠٣).

وعليه، فإن اعتقادنا في كل صفة من صفاته، جلّ جلاله، يحتمل مسلكين اثنين: إما أن نسكت عن الخوض فيها كلها، ونسلم بها كما وردت، دون تأويل أو تشبيه أو تمثيل أو تجسيم أو تكييف، وإما أن نحملها على المعنى (المعنوي لا المادي) الذي لا يتعارض مع كونه، تبارك وتعالى، «ليس كمثله شيء»؛ فلا نجسم، ولا نشبه، ولا نمثل، ولا نعطل، ولا نكيف.

ففي الحالتين إذن: لا تجسيم، ولا تشبيه، ولا تمثيل، ولا تكييف، ولا تعطيل كذلك. وإن محاولات من يسمون بالمشبهة أو المجسمة لتشبيه الله تعالى أو إحدى صفاته بشيء معلوم، هي تعطيل واضح لمعنى قوله تعالى: «ليس كمثله

شيء»، بل وكفر به!! فما دام جلّ وعلا ليس كمثله شيء، فهما تصوّرنا أو حاولنا الاقتراب بخيالاتنا منه، تبارك وتعالى، أو من حقيقة صفة من صفاته، جلّ وعلا، فإننا لن نبرح مكاننا ولن نصل لشيء على الإطلاق!!! لأنه «ليس كمثله شيء». فما دمنا لن نصل إلى حقيقة ذاته المقدّسة وصفاته العليّة، فلمّ الخوض في ذلك إذن، وهو ما لن يقود إلى نتيجة أبداً؟!

إن الحكمة إذن هي بالتقيّد بما في كتاب الله؛ فنثبت ما ورد فيه ونؤمن به تسليماً، ولا نخوض في آية تفاصيل وراء ذلك على الإطلاق.

هذا ما نميل إليه نحن. ومن اختار المسلك الآخر، نعني التأويل، فليكن بما لا يتعارض مع نفس المسألة، وهي «ليس كمثله شيء»، فهي القاعدة في هذا الباب.

فلا يقال: لله يد كما للإنسان يد، ولكن لا تشبهها؛ إذ إن مجرد قول البعض ذلك: «إن لله يداً كما للإنسان يد، ولكن لا تشبهها» هو تشبيه في حدّ ذاته. وليقولوا إن كانوا لا بدّ خائضين: يد الله أي قدرته. وعلى سبيل المثال، في قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} (طه: ٥)؛ نحن أمام خيارين: إما التسليم بالآية والإيمان بها كما وردت، مع تفويض معناها الحقيقي إلى الله، فلا نلزم أنفسنا، ولا نسعى لمحاولة معرفة حقيقة ذلك الاستواء المقصود ولا كيف، أو

حتى ما هو العرش... ذلك لأنه مما تعجز العقول عن إدراكه وحتى تخيله...
 وإما إن كنا سنخوض في التأويل، فنكون حذرين أشدّ الحذر، فلا نقع في
 مستنقع التشبيه والتجسيم والتمثيل والتكييف؛ وقد اطلعت على أبحاث كثيرة
 في هذه المسألة، غير أنني لا أجزم بصحة أحدها صحة تامة.. منها التي اعتبرت
 العرش كناية عن سلطان الله، والكرسي كناية عن معرفته، والاستواء بمعنى
 الإحكام والسيطرة، مبتعدة بذلك عن المعاني المادية، تقيداً بأنه، تبارك وتعالى،
 «ليس كمثله شيء»..

وفي آية مثل قوله تعالى: {يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا
 يَسْتَطِيعُونَ} (القلم: ٤٢)، فإن كان لا مفر من الخوض فيها تأويلاً؛ فلنقل إن
 الآية تصف أهوال يوم القيامة؛ وجاء وصف «يوم يكشف عن ساق» كناية
 عن اشتداد الكرب والهول، ولا تُحمل على آية معانٍ مادية كما يذهب المجسّمة
 الجهلة.

وأياً ما يكون؛ فالأصح عندنا، والذي تميل إليه النفس وترتاح إليه؛ هو الإيمان
 بالنص كما هو، دون خوض في آية تفاصيل وراء ذلك، وتفويض المعنى
 الحقيقي لله سبحانه. وليس في هذا تعطيل على الإطلاق، كما قد يتصور
 البعض؛ فمثلاً في قوله تعالى: {وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ}

(الحاقة: ١٧)، نجد الحديث في الآية عن شيء هو من أحوال الآخرة؛ فلم نشهده ولم نعرفه، فما العمل تجاهه إذن؟ والجواب المتزن: هو التسليم دون خوض في التفاصيل. وكذلك كما في قوله تعالى: {وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا} (الفجر: ٢٢). كلها من أحوال الآخرة.

فما كان من أحوال الآخرة أو من صفات الله تعالى، فلا مجال للخوض فيه أصلاً، ولا بأي شكل، لتعذر تصوّره أو تخيّل، أو حتى الاقتراب منه. والأسلم هو التسليم والتقيّد بالنص.

فإن قيل: ما معنى الآية إذن؟ نقول: الآية تتحدث عن أمر لم يقع بعد، وهو من أحوال الآخرة، فالخوض فيه أو محاولة الاقتراب منه عبث ولغو، والموقف القرآني المتزن هو كما في قوله تعالى: {وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} (آل عمران: ٧)، فوقفنا هو التسليم التام، والتقيّد بنص الكتاب، والإيمان به كما هو، وتفويض معناه إلى المولى عز وجل.

الإيمان بالملائكة والكتب والرسل وختم النبوة

لا ينفصل الإيمان بالله عز وجل عن الإيمان بملائكته وكتبه ورسله؛ لقوله تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} (البقرة: ٢٨٥). ولا نفرق بين أحد من رسله، تبارك وتعالى، فنؤمن بأنهم كلهم من عند الله، وأتوا برسالة واحدة بدأت منذ انفلاق الوحي الإنساني الأولى مع نفخة الروح: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} (الحجر: ٢٨-٢٩)، وقد تمت واكتملت ببعثة خاتم الأنبياء والمرسلين محمد عليه الصلاة والسلام: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} (المائدة: ٣).

وجدير بالذكر هنا الإشارة إلى أن عدم التفريق بين الرسل لا يعني عدم التفضيل بينهم عند الله، يقول تعالى: {تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ

كَلَّمَ اللَّهُ^ص وَرَفَعَ^ص بَعْضُهُمْ^ص دَرَجَاتٍ^ص وَآتَيْنَا^ص عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ^ص وَأَيَّدْنَاهُ^ص بِرُوحِ الْقُدُسِ^ص وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ^ص الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ^ص مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ^ص الْبَيِّنَاتُ^ص وَلَكِنْ اخْتَلَفُوا^ص فِنْهُمْ^ص مَنْ آمَنَ^ص وَمِنْهُمْ^ص مَنْ كَفَرَ^ص وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا^ص وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ^ص مَا يُرِيدُ^ص { (البقرة: ٢٥٣). فلا تعارض بين الأمرين؛ إذ إن الذي على المؤمن تجنبه هو عدم التفريق بين الرسل، بمعنى أن يؤمن برسول أنه من عند الله ويكفر بآخر وينكر كونه من عند الله، فمن فعل ذلك فهو كافر قطعاً بنص الكتاب المبين: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} (النساء: ١٥٠-١٥١).

لذا فليس بمؤمن ولا مسلم من يكفر بأحد الرسل أو الكتب؛ ولا يصح إيمان المرء إلا بالإيمان بهم كلهم وبالكتب كلها، يقول تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نَفْرَقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} * وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ} (آل عمران: ٨٤-٨٥). على أن آخرها (أي القرآن الكريم) هو المهيمن عليها كلها،

والحافظ لأصول الرسالة الإلهية وتفصيلها، فمن آمن وعمل به فقد آمن وعمل بها كلها.. والنسخ الذي يقع بين الكتب هو في أحكام جزئية، وليس في أصل الرسالة السماوية. والنسخ وارد بين الكتب لا في الكتاب الواحد؛ فلا ينسخ القرآن بعضه، ولا هو منسوخ بغيره.. {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ..} (المائدة: ٤٨).

والإيمان بحمد واتباعه عليه الصلاة والسلام واجب على البشرية جمعاء إلى قيام الساعة: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَاْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (الأعراف: ١٥٨)؛ كل من وصلته الرسالة فهو ملزم بها، ومن رفضها فهو كافر بنص القرآن، ومصير الكافر جهنم، والعياذ بالله، لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا} (النساء: ٥٦).

ومحمد هو خاتم الأنبياء والمرسلين: {مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} (الأحزاب: ٤٠)، فلا نبي ولا رسول من بعده؛ ومن ادعى النبوة بعده فهو كافر بلا أدنى ريب،

ومن صدقه فهو كافر مثله، ومصير الاثنين إلى جهنم على حد سواء، لأنه (أي إنكار ختم النبوة) تكذيبٌ لآيةٍ من آيات الله تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَهُمْ رَسُولُنَا يُتُوفِّيهِمْ قَالُوا إِنَّمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} (الأعراف: ٣٦-٣٧).

ولذلك فإننا نعدّ الفرق التي تدّعي بعثة نبي أو رسول جديد، كالبهائية والقاديانية أو الأحمدية وما شابهها من فرق، نعدّها كافرة، وليس لها أي صلة بالإسلام على الإطلاق، لا من قريب أو بعيد، وهي صناعة شيطانية استعمارية خبيثة وجب الحذر والتحذير منها. ومثلها الفرق الباطنية.

على أنه لا ينبغي على ذلك إباحة محاربتهم أو الاعتداء عليهم كأفراد، ذلك لأنّ العدوان مشروط بتحقق العدوان منهم أولاً، أما ما دام الأمر في حدود الاعتقاد فلا يجوز مطلقاً الاعتداء عليهم، مع وجوب التصريح بكفرهم وتحذير الناس منهم.

البعث والحساب (اليوم الآخر) وأشراط الساعة

يفيض القرآن المجيد بالآيات البينات التي تؤكد حتمية البعث والحساب، فيقول تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لِيَجْمَعََنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا} (النساء: ٨٧)، ويقول: {وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ} (الحج: ٧)، ويقول سبحانه: {ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ} (المؤمنون: ١٦).

فلا ريب في أن الساعة آتية، وأن الكل سيبعث ليوم القيامة، حيث يكون الحساب: {فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} * وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ * تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ} (المؤمنون: ١٠٢-١٠٤).

ومن ينكر اليوم الآخر والبعث والحساب فهو كافر بالقطع، لقوله تعالى: {زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} (التغابن: ٧) / {وَقَالُوا إِن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} *

وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وَقَفُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۚ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ۝ (الأنعام: ٢٩-٣٠).

وقال تعالى: {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ * الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ يَوْمَ الدِّينِ * وَمَا يُكَذِّبُ بِهِ إِلَّا كُلُّ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ * إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ * كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ * ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ * ثُمَّ يُقَالُ هَٰذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ } (المطففين: ١٠-١٧) / وقال تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا} (الفرقان: ١١) / وقال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} (العنكبوت: ٢٣).

ونشير هنا إلى أننا لا نخوض في تأويل الآيات التي تتحدث عن أشرار الساعة، ولا يمكن لأحد معرفة متى تقع، ذلك لأنها تتحدث عن أشياء لم تحدث بعد، علمها عند ربي سبحانه، فأني لنا أن نعرفها أو نستطيع تخيلها؟ فهل لدينا من العلم شيء عن دابة الأرض مثلاً؟ شكلها ولونها، ومن أين تخرج، وكيف تكلم الناس؟ أو عن يأجوج ومأجوج، وكيف هم من كل حذب ينسلون؟! أو كيف سينشق القمر؟! أو كيف ستخرج الأرض أثقالها؟! أو ما هو الدخان المبين؟! وغيرها... فنكتفي بما ورد ذكره في كتاب الله عن كل هذه الأمور،

ونقف عند هذا الحد، ولا نزيد... ولا نقول في نهاية الأمر سوى الآتي:
{..آمَنَّا بِهِ كُلُّ مَنْ عِنْدَ رَبِّنَا..} (آل عمران: ٧).

عذاب القبر

فيما يتعلق بعذاب القبر، فنحن نقر بوجوده ولا ننكره كما يتوهم أو يزعم البعض، انظر قوله تعالى: {وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ * النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ} (غافر: ٤٥-٤٦). وقيل إن العرض هنا هو أن يرى كل إنسان مصيره، فإن كان خيراً تنعم، وإن كان شراً تعذب، كما يجري على النائم في مرقدته، وسواء كان ذلك كما قيل أو لا، فهو عذاب على أية حال، ألا ترى من تأتية الكوايبس كلها نام؟ إنه في عذاب.

ويقول تبارك وتعالى عن الكافرين: {وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} (الأنفال: ٥٠-٥١)، هنا واضح كيف تتعامل الملائكة بأمر الله مع الكافرين حتى لحظة الموت... كما قال الله سبحانه عن الظالمين أيضاً: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ

الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ { (الأنعام: ٩٣).

وقال الله تعالى أيضا: { فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ * وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ تَنْظُرُونَ * وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ * فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ * تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ * فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ * فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ * وَتَصْلِيَةٌ جَمِيمٍ * إِنْ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ { (الواقعة: ٨٣-٩٥).

هذا أهم ما يمكننا أن نقوله في هذا الموضوع، ولا نزيد. وننبه إلى أنه لا علاقة لما ورد في القرآن الكريم عن حياة البرزخ أو عذاب القبر ونعيمه بما ورد في الروايات وما جاء فيها من تفاصيل لا وجود لها في القرآن. نحن نثبت ما أثبتته الله، ونقر ما أقره وأخبر به في كتابه المجيد الذي نطق به رسوله الكريم، ولا ينبغي لنا طلب المزيد فيما لم يفصل فيه القرآن من غيبات وغيرها.

الإسلام والإيمان وعدم انفصال العمل عنهما

الإسلام هو التسليم المطلق لله تبارك وتعالى، وبما أنزله على رسله في كتبه؛
والاتباع له والعمل به: {وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ
تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ} * بَلَىٰ مَن أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ
مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (البقرة:
١١١-١١٢) / {وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ
يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} * وَمَن أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ
مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا} (النساء:
١٢٤-١٢٥) / {قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ
حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ} * قُلْ إِن صَّلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ
الْعَالَمِينَ * لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} (الأنعام:
١٦١-١٦٣). وهذا هو الإسلام الذي لن يقبل الله غيره، لقوله تعالى: {قُلْ
آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ { (آل عمران: ٨٤-٨٥). وهو بالتالي المعنى العميق للإيمان الحقيقي، كما في قوله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} (الحجرات: ١٥).

أما الإسلام بمعنى الاستسلام والإشهار الشفوي، فهو كإسلام الأعراب الذي جاء في قوله تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (الحجرات: ١٤)، وهم الذين استسلموا لما رأوا قوة المسلمين وتمكنهم؛ فهو إسلام خضوع واستسلام، لا إسلام تسليم واقتناع، لذا قال لهم تعالى: "قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا."

لأن الإسلام بمعنى التسليم المطلق لله وما أنزله في كتبه على رسله، والذي هو المعنى العميق للإيمان الحقيقي، ليس بالإكراه، ولا يتحقق بمجرد الإعلان الشفوي والمسألة الظاهرية، وإنما بالاقتناع القلبي غير المنفصل عن الجانب

السلوكي العملي؛ لذا قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} (الحجرات: ١٥)، فلا ينفصل الإيمان (أي الاقتناع والتسليم: "آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا") عن العمل (الجهاد بالأموال والأنفس في سبيل الله: "وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله")، وما أكثر الآيات (وهي بال عشرات في كتاب الله) التي يأتي فيها الإيمان بالله مقترناً بالعمل الصالح، ليؤكد سبحانه على أنهما جزء واحد غير منفصلين عن بعضهما؛ فلا الإيمان وحده يكفي، ولا العمل وحده كذلك يكفي للنجاة، وإنما بهما معاً: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} (الكهف: ١٠٧-١٠٨)، ويقول تعالى: {الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُم الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} (النحل: ٣٢)، ويقول عز من قائل: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (النحل: ٩٧).... على أن السلام ومسالمة المسالمين غير المعتدين هو جزء أصيل من تعاليم الإسلام ومعناه ذاته بلا أدنى شك.

ادخلوا في السلم كافة

يقول عز من قائل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} (البقرة: ٢٠٨). «السِّلْم» - بكسر السين وفتحها مع إسكان اللام - بمعنى واحد، ويطلقان على الإسلام وعلى المسالمة.

وبعضهم فرق بين اللفظين فجعل «السِّلْم» بكسر السين للإسلام، و«السَّلم» بفتحها للمسالمة، وأنكر المبرد هذه التفرقة. قال الفخر الرازي: وأصل هذه الكلمة من الانقياد. قال تعالى: {إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسَلَّمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} (البقرة: ١٣١). والإسلام إنما سُمِّيَ إسلاماً لهذا المعنى. وغلب اسم السَّلم على الصلح وترك الحرب، وهذا أيضاً راجع إلى هذا المعنى، لأن عند الصلح ينقاد كل واحد إلى صاحبه.

و(كَافَّةً) أي جميعاً، وهي في الأصل صفة من كف بمعنى منع، واستعملت بمعنى الجملة والجميع بعلاقة أنها مانعة من التفرق، وهي حال من قوله: (السِّلْم) أي: يا أيها المؤمنون ادخلوا في الإسلام والتزموا بكل تعاليمه، ونفذوا جميع

أحكامه وآدابه، واعملوا بكل أوامره ونواهيه، ولا تكونوا ممن يؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض. فالمقصود التزام جميع شرائع الإسلام وأحكامه وآدابه. وبعضهم يرى أن قوله: (كَافَّةً) حال من فاعل ادخلوا، وهو ضمير الجماعة، والمعنى عليه: ادخلوا في الإسلام جميعاً، وانقادوا لأحكامه مجتمعين غير متفرقين، لأنه الدين الذي ألف الله به بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً. وسواء أكان لفظ (كَافَّةً) حالاً من السِّلْم أو من فاعل (ادْخُلُوا)، فالمقصود من الآية دعوة المؤمنين إلى التمسك بجميع شعب الإسلام وشرائعه، مع التزامهم برباط الإخاء الذي ربط الله به بين قلوبهم بسبب اتباعهم لهذا الدين الحنيف. وإذا كان المراد بكلمة (السِّلْم) المسالمة والمصالحة، كان المعنى: يا أيها الذين آمنوا، إن إيمانكم يوجب عليكم فيما بينكم أن تكونوا متصالحين غير متعادين، متحابين غير متباغضين، متجمعين غير متفرقين، كما أنه يوجب عليكم بالنسبة لغيركم ممن هو ليس على دينكم أن تسالموه متى سالمكم، وأن تحاربوه متى اعتدى عليكم، فإن دينكم ما جاء للحرب والخصام وإنما جاء للهداية وللسلام العزيز القوي الذي يرد الاعتداء بمثله» [تفسير الوسيط].



ويشمل هذا المعنى العام للإسلام (كما تقدم) في جانب منه غير المسلمين عموماً، سواء في العالم أجمع أو ممن هم مواطنون يعيشون في كيان سياسي إسلامي، ما داموا مسلمين مؤتمنين، لا يعتدون على غيرهم، ولا يخونون المجتمع الذي يعيشون فيه، ويحفظ لهم كامل حقوقهم وحرّياتهم: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ { (الممتحنة: ٨ - ٩).

أي ما داموا لا يقاتلوننا في ديننا، ولا يسعون لإخراجنا من ديارنا، أو مساندة من يحاول إخراجنا من ديارنا، فلنا، بل علينا، أن نبرّهم ونحسن إليهم، ولهم أن يبنوا معابدهم، ويمارسوا شعائرهم، ويتحاكوا إلى ما تفرضه عليهم عقائدهم، ما دامت لا تؤثر على النظام العام في المجتمع المسلم، وخاصة نظام العقوبات.

فالسارق والزاني والقاتل، والذي ثبت عليه ما يوجب تنفيذ حد الحراة، يُحاكم ويكون الحكم نافذاً بغض النظر عن معتقده وملته. وإن اختار غير المسلمين التحاكم إلى القضاء الإسلامي في غير ذلك (أي في غير نظام العقوبات، كونه يشمل الجميع)، فتحكم بينهم بالقرآن: {فَإِنْ جَاءُوكَ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ

عَنَّهُمْ..} (المائدة: ٤٢)، ولا تتبع أهواءهم: {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ..} (المائدة: ٤٩)، وإن تولوا ورفضوا دون محاربة المجتمع المسلم: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ} (٤٩)، وهم الخاسرون حتماً ولا يضرئوننا شيئاً: {وَأَنْ تَعْرُضَ عَنْهُمْ فَلَنْ يَضُرُّوكَ شَيْئًا وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (٤٢).

والله يتولى حسابهم يوم القيامة كما غيرهم، بالفصل بين شتى المختلفين، لقوله: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّائِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (الحج: ١٧)، وقوله: {لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ فِرْقَةً وَفِرْقَةً وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} (المائدة: ٤٨).

والمعنى هنا: فسارعوا إلى ما هو خير لكم في الدارين بالعمل بما في القرآن (باعتباره الحافظ لكل ما سبقه من الكتب، فمن آمن وعمل به فقد آمن وعمل بكل ما أنزله الله من قبل)، فإن مصيركم إلى الله، فيخبركم بما كنتم فيه تختلفون، ويجزي كلاً بعمله.

ويقول تعالى: {سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} (الحديد: ٢١). والآية واضحة تمام الوضوح: الجنة أُعِدَّتْ للذين يؤمنون بالله ورسوله (كل رسوله)، فالإيمان بالله ورسوله وكتبه أمر واحد لا يقبل التفريق ولا التجزئة.

فإن قيل: أليس في قوله تعالى {لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً} ما يوحي إلى أن لغير المسلمين أن لا يؤمنوا بالكتاب الخاتم، وبالتالي أن لا يعملوا بما أنزله الله فيه، ويكتفوا بما لديهم من كتب سابقة، وبذلك يمكن أن تتحقق لهم النجاة في الآخرة؟

فنقول: أما فيما يخص قوله تعالى: {لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا} (المائدة: ٤٨)، فهو لا يعني أن لغير المسلمين أن يكتفوا بما لديهم من كتب سابقة دون وجوب اتباع ما أنزل الله في كتابه الخاتم (القرآن الكريم) المتضمن لما سبق إنزاله قبله، فالنجاة لا تتحقق إلا بالاتباع الصحيح للمنهج الإلهي الكامل، والقرآن فيه هو أهم الكتب من حيث كونه المصدّق والحافظ لها والمهيمن عليها، والناسخ لبعض ما فيها. والرد يكون أكثر وضوحاً بإيضاح سياق النص كاملاً داخل الآية المعنية، ونقتبس هنا مما قاله الأستاذ [د. عبد العزيز بايندر]

في هذا الصدد: «قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شُرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} (المائدة: ٤٨).

فالآية تتحدث عن طائفة تحكم بكتاب الله المنزل وأخرى تحكم بالأهواء، فكان هناك أمتان لكل واحدة منهما شرعة ومنهاج، ولو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة مؤمنة، لكن ابتلاءه لعباده وتركه الخيار لهم حال دون ذلك، وما على الإنسان إلا أن يختار منهج الأمة المؤمنة وأن يستبق الخيرات، فالرسل جميعاً شرعتهم واحدة وكذلك أتباعهم، والانحراف عن منهجهم يؤدي إلى الشرعة الأخرى التي هي نقيض شرعة الرسل. يقول الله تعالى مخاطباً خاتم أنبيائه: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} (الجنثية: ١٨)، ولا يمكن القول إن شريعة الأنبياء قبل محمد عليه الصلاة والسلام أهواء، بل الأهواء ما كان نقيض شريعة الله المنزلة على جميع الرسل.

وللتأكيد، جعل الله تعالى الإيمان بالرسل من أسس الإيمان حيث قال سبحانه: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ

وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ } (آل عمران: ٨٤ - ٨٥). ولو كانت الأحكام تختلف لأصبح دين الله مختلفاً وليس واحداً.

وفي سياق الرد على اليهود والنصارى الذين ادعوا أن دين الله هو اليهودية أو النصرانية، يقول الله تعالى: {وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ } (البقرة: ١٣٥ - ١٣٨).

نفهم من الآيات أعلاه أن دين الله الذي ارتضاه لجميع البشر من لدن آدم عليه السلام هو الإسلام، وأن الشريعة واحدة، وأصولها وقواعدها العامة لا تختلف، أما الاختلاف الطفيف في الأحكام (الجزئية) فهو من قبيل النسخ بمثله أو

بخير منه، وهو ما أشار إليه قوله تعالى: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (البقرة: ١٠٦) « انتهى.

ونضيف على ما سبق قول الله تعالى في هذه الآية: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} (النساء: ١٣٦) وفيها «بيان لعناصر الإيمان التي يجب أن يؤمن بها الذين آمنوا. بيان للتصور الإسلامي الاعتقادي؛ فهو إيمان بالله ورسوله. يصل قلوب المؤمنين بربهم الذي خلقهم، وأرسل إليهم من يهديهم إليه، وهو الرسول صلى الله عليه وسلم، وإيمان برسالة الرسول وتصديقه في كل ما ينقله لهم عن ربهم الذي أرسله.

وهو إيمان بالكتاب الذي نزل على رسوله، يربطهم بالمنهج الذي اختاره الله لحياتهم وبينه لهم في هذا الكتاب، والأخذ بكل ما فيه، بما أن مصدره واحد، وطريقه واحد، وليس بعضه بأحق من بعضه بالتلقي والقبول والطاعة والتنفيذ. وهو إيمان بالكتاب الذي أنزل من قبل، بما أن مصدر الكتب كلها واحد هو الله، وأساسها كذلك واحد هو إسلام الوجه لله، وإفراد الله سبحانه بالألوهية بكل خصائصها، والإقرار بأن منهج الله وحده هو الذي يجب طاعته وتنفيذه

في الحياة. وهذه الوحدة هي المقتضى الطبيعي البديهي لكون هذه الكتب، قبل تحريفها، صادرة كلها عن الله. ومنهج الله واحد، وإرادته بالبشر واحدة، وسبيله واحد، تتفرق السبل من حولها وهي مستقيمة إليه واصلة.

والإيمان بالكتاب كله، بوصف أن الكتب كلها كتاب واحد في الحقيقة، هو السمة التي تنفرد بها هذه الأمة المسلمة؛ لأن تصورها لربها الواحد، ومنهجها الواحد، وطريقه الواحد، هو التصور الذي يستقيم مع حقيقة الألوهية، ويستقيم مع وحدة البشرية، ويستقيم مع وحدة الحق الذي لا يتعدد، والذي ليس وراءه إلا الضلال: {فَمَآذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ؟}. وبعد الأمر بالإيمان يجيء التهديد على الكفر بعناصر الإيمان، مع التفصيل فيها في موضع البيان قبل العقاب: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا}. وقد ذكر في الأمر الأول الإيمان بالله وكتبه ورسله، ولم يذكر الملائكة، وكتب الله تتضمن ذكر الملائكة وذكر اليوم الآخر، ومن مقتضى الإيمان بهذه الكتب الإيمان بالملائكة وباليوم الآخر، ولكنه يبرزها هنا لأنه موطن الوعيد والتهديد، الذي يبين فيه كل عنصر على التحديد.

والتعبير بالضلال البعيد غالباً يحمل معنى الإبعاد في الضلال، الذي لا يرجى معه هدى، ولا يرتقب بعده مآب. والذي يكفر بالله الذي تؤمن به الفطرة في

أعماقها كحركة ذاتية منها واتجاه طبيعي فيها، ويكفر بملائكته وكتبه ورسله
واليوم الآخر، استمداداً من كفره بالحقيقة الأولى، الذي يكفر هذا الكفر
تكون فطرته قد بلغت من الفساد والتعطل والخراب الحد الذي لا يرجى معه
هدى، ولا يرتقب بعده مآب» [تفسير في ظلال القرآن].

رؤية الله يوم القيامة

وهذه مسألة اختلف فيها وانقسم حولها المتكلمون بين مثبت ومنكر؛ وهي، على أي حال، مسألة ظنية لا قطع فيها. ولا يوجد غير هذه الآية التي يستدلون بها على أنها - كما ذكرنا - لا تفيد القطع في الدلالة: {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} (القيامة: ٢٢-٢٣)؛ ذلك لأن النظر بحد ذاته لا يقتضي الرؤية، و«يُقال نظر إلى كذا إذا مدّ عينيه ليرى، سواء رأى أو لم ير، وهذا واضح طبعاً، لأنك قد تقول: نظرت فلم أره، قد يُقال لك: انظر أين فلان، فتقول: يا أخي، نظرت في كل مكان فلم أره».

ولأننا لن نأتي بجديد، وسبقنا من قد أجاد تناول هذه المسألة وفصل فيها، وردّ على من يزعم رؤية الله يوم القيامة، فلن نكرر ما قيل، وسنكتفي بإيراده كما هو؛ لأنه ما نميل إليه وتطمئن إليه النفس.

والنص الآتي هو للدكتور عدنان إبراهيم، من خطبة له بعنوان "الهداية المردودة"، بتاريخ ١٣ من يونيو عام ٢٠١٣ م، وجاء فيها الآتي: «قال الله "وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ" فالله قال "نَّاصِرَةٌ" بالضاد التي هي أخت الصاد كما يقول

العراقيون، ونَاصِرَةٌ من النُصرة وهى الإِشراق وتلألؤ الوجه وإِشراقه وانفراج أساريه، فهذا اسمها النُصرة، والحديث يقول نَصَرَ اللهُ امرءًا سَمِعَ مَقَالِي فَوَعَاها فَأَدَّاهَا إلى آخره، قال الله وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ - أي يوم القيامة ويوم الحساب والدينونة - نَاصِرَةٌ * إلى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ * ، فهذا الرجل قال لك هل تُريد أكثر من هذا؟ هذا نص يا رجل، نص في محل النزاع، المؤمنون أصحاب الناصرة ليسوا أصحاب الوجوه الباسرة، قال الله في سورة القيامة وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ *، فهؤلاء هم المؤمنون وهؤلاء هم الكافرون.

بعد الله بيننا وبينهم وبيننا وبين مصائبهم، اللهم آمين. فهذا الرجل قال الله يقول "وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاصِرَةٌ" أي مُشْرِقة فرحة ومُسْتَبْشِرة، لماذا؟ "إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ"، أي تنظر إلى الله، فالله عَدَّاهَا بِلَى وذلك في قوله "إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ"، والله قال نَاطِرَةٌ بِالظاء التي هى أخت الطاء كما يقول العراقيون مرة أخرى، لكن أنا أقول له لا يا حبيبي فهذا تقوله إذا كنت جاهلاً، الجاهل هو الذي يقول هذا الكلام، والعامي وشبه العامي من العلماء وطلاب العلم هو الذي يقول هذا، ولذا أنا أقول له أين القطع هنا؟ هل أنت تعرف ماذا يخرج من رأسك؟ هل هذا قطع؟ أين القطع يا رجل؟ أولاً النظر في كتاب الله كما في كلام المصطفى وكلام العرب الفصحاء الأئمة المناطيق يُطَلَّق كثيراً - وهو

شائع شيوخاً فاشياً - بمعنى الانتظار، قال تعالى "هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ"، فما معنى يَنْظُرُونَ؟ ينتظرون، قال الله "يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ"، فهذه واحدة، قال الله في يس "مَا يَنْظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ"، فما معنى مَا يَنْظُرُونَ؟

ما ينتظرون، أي ما ينتظرون إلا صيحة، إذن هذا كثير جداً، وكتاب الله طاف بهذه الأمثلة التي تدل على أن النظر بمعنى الانتظار، قال الشاعر:

إِنِّي إِلَيْكَ لِمَا وَعَدْتَ لَنَاظِرٌ نَظَرَ الْفَقِيرِ إِلَى الْغَنِيِّ الْمُسِرِّ

فهو قال له أنت وعدتني، أين الوعد؟

ياسيدي أنجز حُرُّ ما وعدُّ والحرُّ من أعطى أخاه ما وجدُّ

قال الشاعر:

كل الخلائق ينتظرون سجاله نظر الحجيح الى طلوع هلال

ما معنى النظر هنا؟ الانتظار، كما ينتظر الحجيح طلوع الهلال لكي يشرعوا في العبادة. سيدنا حسان بن ثابت شاعر الرسول، قال شعراً هاماً، وشعره لا خلاف على أنه قبل عصر الهُجْنة والتوليد، أي يُحْتَجَّ به كما يُحْتَجَّ بالشنفرى

وبتأبط وبامرئ القيس وبأمثال هؤلاء، فماذا قال حسان بن ثابت؟ قال في ديوانه:

وجوه يوم بدرٍ ناظراتٌ
إلى الرحمن أن يأتي بالفلاح

ما معنى ناظرات؟ هل معنى هذا أنهم سوف يرون الله؟ هل كانوا في يوم بدر ينظرون إلى الله أم كانوا ينتظرون الفلاح من الله؟ كانوا ينتظرون الفلاح وأن يُنجِز الله وعده لرسوله وللمؤمنين أنه ناصرهم، قال "سَيَهْرُمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الدَّبْرَ"، ولذا قال:

وجوه يوم بدرٍ ناظراتٌ
إلى الرحمن أن يأتي بالفلاح

هذا واضح جداً، فلا تقل لي هذا قاطع في محل النزاع، عندنا دليل من كتاب الله أن الله يُرى بالعيون أو يُرى يوم القيامة، لا تقل هذا يا حبيبي لأن ليس عندك أي دليل قاطع، فانتبه.. وهناك ما هو أكثر من هذا، وهنا قد يقول أحدهم اربع على ظلعك وخفف من حدتك يا عدنان ويا غير عدنان، أنت تهرف بما لا تعرف، لماذا يا أستاذي؟ علّمني لأن كلنا - والله - نتعلّم، يموت المرء وهو يتعلّم فعلّمني، قال لك هنا نحن نُسلم بأن النظر يأتي بمعنى الانتظار - وهو كثير جداً في كتاب الله - لكنه هنا عدّاه ب - إلى، فإذا عدّى النظر بإلى لم يكن له من المعنى إلا إلا الرؤية، لكنني أقول له غلطت على الكتاب واللغة،

غلطت على القرآن الكريم لأنك تُخالف كتاب الله نفسه، كيف؟ سوف أقول
كيف لكي تعرف كيف خالفت كتاب الله وخالفت اللغة! أولاً أنا أسمعكم
قبيل قليل بيت حسان، فماذا يقول حسان؟ يقول:

وجوه يوم بدرٍ ناظراتٌ
إلى الرحمن أن يأتي بالفلاح

فهو يقول إلى الرحمن، إذن هو عداها بإلى أم بغير إلى؟ عداها بإلى، لأنه يقول:

وجوه يوم بدرٍ ناظراتٌ
إلى الرحمن أن يأتي بالفلاح

فهل هذا معناه أنهم يرونه أم أنهم ينتظرون؟ معناه أنهم ينتظرون، والأكثر من
هذا أن الله قال "إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلَاقَ
لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ"، الله يقول إنه لا ينظر إلى الكفار، فقل لي هل أنت تُفسر أن الله
لا ينظر إليهم بمعنى أنه لا يراهم؟

إن فعلت هذا فقد كفرت بإجماع الأمة، الله لا يغيب عنه شيء لا في الدنيا
ولا في الآخرة، هل الله - أستغفر الله العظيم، أستغفر الله، أستغفر الله، اللهم
غفراً، اللهم غفراً - يعصى عنهم؟ إذن ما معنى أن الله لا ينظر إليهم؟ نظر
القوي إلى الضعيف هو العفو والإكرام والصفح والغفران، ونظر الضعيف إلى

القوي انتظار هذا منه، هذا هو القرآن، القرآن عجب، ولذلك قلت لكم كيف تختلف الأمة وعندها كتاب الله؟ على الأقل يجب أن تتفق على الحد الأدنى من العقائد حتى لا يقع بعضها في عرض بعض ولا يُكفر بعضها بعضاً، ونعود أيضاً إلى شيء أعجب من هذا حتى لا ننسى أيضاً لأنني دائماً ما أنسى والكلام كثير والحجج كثيرة وهو شيء غريب، هاته أربع آيات في سورة القيامة تقول **وَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ * وَوَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَٰ بِهَا فَاكِرَةٌ**، إذن قال الله **"إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ"** وهو ما وقع فيه الخلاف، ثم قال **"وَوَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ"**، أي من البسور، وما معنى البسور؟

الكلح والاكفهار، أي هي سوف تكفهر وتكلح، فهذا هو البسور، ثم قال الله **"تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَٰ بِهَا فَاكِرَةٌ"**، والفاقرة هي المصيبة التي تنزل بالإنسان فتكسر فقار ظهره، كناية عن شيء لا قيامة منه، فهذا هو معنى الفواقر، ومن هنا يُقال هذا من فواقر الدهر، أي من دواهي الدهر التي تكسر فقار الظهر، والإنسان إذا كَسِرَ فقار ظهره يُشَلَّ ويبقى قعيد الأرض حِلَسَ داره، هذا هو فانتبه، وسبحان الله يا أخي، قالوا هذا ليس من عند الله، ونحن نُشهِدُك أنه كلامك، هذه أربع آيات في القيامة وسنرى الآن ما في خواتيم سورة عبس، قال الله **"وَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوَجْوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا**

قَرَّةٌ"، وهذه أربع آيات أيضاً فانتبهوا لأن القرآن يُفسَّر بعضه بعضاً، قال الله "وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا"، وهذا جميل جداً، نفس الشيء هنا وهناك، أربع آيات وأربع الآيات، هذه تصف المؤمنين والكافرين وتلك تصف المؤمنين والكافرين وعلى نفس الترتيب، فهذا الله يقول "وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ" وما معنى "مُسْفِرَةٌ"؟

ناضرة، وهي - كما قلنا - تتلأأ وتُسْفِر، من أسفر الفجر ومقلوبه الفسر، أي السفر والفسر، المهم اقرأوا التفسير، قال الله "وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ"، وأنا أقول لكم أن كلمة مُسْتَبْشِرَةٌ هنا هي تفسير لكلمة "إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ" تماماً، هذا هو كتاب الله، وهنا قد يقول لي أحدكم أنت الآن قلت أن كل الأمة ماعدا أهل السنة والجماعة فسّروا "إِلَى رَبِّهَا نَاطِرَةٌ" بمعنى آخر غير أن تنظر إليه أو تراه، فماذا فسّروه؟

وأنا أقول له فسّروه بأنها تنتظر ثواب الله وحسن جزائه، وما هو ثوابه؟ دخول الجنة - بإذن الله تبارك وتعالى - وأن يحل عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبداً كما في حديث مسلم عن صهيب وغيره، وهذا مُفسَّر في سورة عبس، قال الله "مُسْتَبْشِرَةٌ"، واقرأوا كتاب الله من أوله إلى آخره وقولوا لي ما هي بُشْرَى المؤمنين في الآخرة؟

دخول الجنات ورضوان الله، قال الله في سورة الشورى "ذَلِكَ الَّذِي يُبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ" وقال في سورة البقرة "وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ"، أليس كذلك؟ وهكذا في عشرات الآيات التي تتحدث عن البشرى، قال الله "يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ"، فهناك آيات كثيرة في كتاب الله تدل على هذا، وهذا هو التبشير، إذن "إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ" بمعنى تنتظر البشرى، البشرى بماذا؟ بما قد سمعتم، فالقرآن يُفسر بعضه بعضاً، فاعترض أهل السنة على الآخرين وقالوا هذا غير صحيح أيضاً، لماذا؟ قالوا لأن الله لم يقل هم الذين ينظرون وإنما قال "وَجُوهٌ" وذلك في قوله "وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاصِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ"، والوجه إذا قيل أنها كانت تنظر إلى يضح أنه يُراد بها النظر والرؤية، وهذا ركيك جداً ومن مُتَهافت الحُجج وشُبُهة لا قيمة لها، أتعرفون لماذا؟ لكن هنا قد يقول لي أحدكم ماذا عنك؟ هل أنت سُني أم ماذا؟

لكن أنا أقول له ليست الأمور هكذا يا أخي، أنا فقط أردت أن أضرب لك مثلاً على أن هذا ليس قاطعاً في محل النزاع لكي تتعلم أن ترعوي عن الوقوع والولوج في أعراض المسلمين فلا تُكفِّر مَنْ يُنْكِرُونَ رؤية الله، لكن هنا قد يقول لي صبراً يا عدنان، نحن عندنا سبع أدلة في كتاب الله، وهذه نعرفها كلها

- والله - لكن المقام لا يتسع، لكن نعرفها كلها بفضل الله وكلها مردود عليها، وقد يُقال وماذا عندنا الأحاديث؟

وهم عندهم أحاديث وبأسانيد صحيحة أيضاً فانتبه، وهي عن الصحابة الكبار مثل عليٍّ ومثل عائشة ومثل ابن عباس، ويُنكرون الرؤية ولا يعترفون بها ويُصحّحون هذه الأحاديث، لكن الأحاديث ومُشكِلتها شيء ثانٍ وتحتاج مُحاضرات لها وحدها، لكننا ما زلنا مع كتاب الله، لأن الهداية الكاملة في كتاب الله، مُستحيل أن شيئاً أساسياً في الهداية خلا عنه كتاب الله، لذلك أنا قلت لكم مائة مرة - أطمئنكم وأستطيع أن أباهل على هذا - لو لقي أحدكم الله وفي حياته ما سمع عن المهدي - لا مهدي الشيعة ولا مهدي السنة - ولا سمع عن أن مسألة أن عيسى سيرجع إلى الدنيا ولا سمع عن الدجال شيئاً فإنه سوف يلقي بإذن الله إذا استكمل أركان القرآن الإيمانية مُؤمناً بفضل الله - تبارك وتعالى - لأن هذا لا ينقص إيمانه ولا يغمز إيمانه، فلا تخف يا رجل! ... قالوا أن الله قال "وُجُوهٌ"، ونحن نقول لهم واضح يا جماعة أنه مجاز، وليس المقصود فعلاً الوجوه، وإنما المقصود أصحاب الوجوه، كما نقول قصدنا وجه الله، فما معنى هذا؟ قال الله "يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ"، فنحن نريد وجه الله بمعنى نريد الله - تبارك وتعالى - أو رضا الله، وحين أقول لك قصدت وجهك أعني

قصدتك أنت، فحين يقول أحدهم أن الله قال "وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ" ففهمنا أن المراد هنا الرؤية فإننا نقول له هذا منقود عليك بنفس الآيات، هل تعرف لماذا؟ هل التمتع يكون بالقلب وبالوعي أم بالوجه؟ يكون بالوعي، وكذلك الحال مع الانتظار وصلي العذاب وأشياء كثيرة لا تكون إلا بالوعي الذي يعي هذا، قال الله "وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ * عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ * تَصَلَّىٰ نَارًا حَامِيَةً"، فما المقصود هنا؟

هل يقصد الوجوه وحدها أم الجسم كله؟ الجسم كله طبعاً، وهذا نفس الشيء في هذه الآيات أيضاً، قال الله "وَوَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ * تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ"، فالله يقول هنا "تَظُنُّ"، أي نسب الظن إلى الوجوه، وهل الظن من أفعال الوجوه أم من أفعال القلوب؟ من أفعال القلوب، إذن كيف نسب الظن إلى الوجوه؟ لأن القصد ليس الوجوه وإنما القصد أصحاب الوجوه والذوات، فهذه سقطت أيضاً. أختم بآخر جملة في هذا السياق أو في هذا المقام، وهي أن النظر نفسه لا يقتضي الرؤية، قال تعالى "وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ"، هم نظروا فهل رأوه أو لم يروه؟ لم يروه، أبو جهل وجماعته وقطاع الطرق الملاحين يوم الهجرة كانوا ينظرون وينتظرون ولا يبصرون، قال الله "وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ"، ماذا قال الإمام المرتضى الزبيدي

شارح الفيروزآبادي وشارح تاج العروس من جواهر القاموس؟ قال يُقال نظر إلى كذا إذا مد عينيه ليرى سواء رأى أو لم ير، وهذا واضح طبعاً، لأنك قد تقول نظرت فلم أره، قد يُقال لك انظر أين فلان فتقول يا أخي نظرت في كل مكان فلم أره، فتقول لك حتى من مُضعفات هذا القول أن النظر بحد ذاته لا يقتضي الرؤية» انتهى.

هذا الرأي - كما قلنا - هو الذي نميل إليه، كونه لا يتعارض مع قوله تعالى: {لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (الأنعام: ١٠٣)، وهذه الآية هي القاعدة في هذه المسألة.

ولا ننسى قوله سبحانه، لما طلب موسى عليه السلام رؤيته: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنْ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} (الأعراف: ١٤٣)، وثبت لله صفة الكلام، كما ورد دون أن نؤول، فليس كمثله شيء، جلّ وعلا. وكذلك لما طلب قوم موسى منه رؤية الله جهرة، كما جاء في قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً..}، فماذا جرى لهم؟ {.. فَأَخَذَتْكُمُ الصَّاعِقَةُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ} (البقرة: ٥٥).

علم الله، القضاء والقدر، والدعاء

علم الله هو صفة ذاتية له، جلّ وعلا، محيطه بكل شيء؛ فهو يعلم ما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف يكون، لا يخفى عليه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. يقول تعالى: {وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ} (الأنفال: ٢٣) / {بَلْ بَدَأْ لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} (الأنعام: ٢٨).

علمه، جلّ وعلا، علم كامل تام، لا يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان. {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (الحديد: ٣) / {وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} (التحریم: ٢) / {يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ} (سبأ: ٢) / {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (الأنعام: ٥٩) / {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمِّرُ مِنْ مَعْمَرٍ وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ

عَلَى اللَّهِ يَسِيرُ} (فاطر: ١١). ويقول تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} * لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى * وَإِنْ تَجْهَر بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى { (طه: ٥-٧).

وله (أي علم الله) في التقسيم التراثي نوعان: العلم السابق و علم الظهور؛ فمثلاً في قوله تعالى: {الآن خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ} (الأنفال: ٦٦)، المراد بعلم الله ههنا هو تعلقه (أي العلم) بالظهور أو الحدوث، لا بكونه كان جاهلاً أو غير وارد في علمه السابق، سبحانه وتعالى، ثم علم لاحقاً، جلّ الله عن ذلك. فعلمه أزلي سابق محيط بكل شيء، بالكليات والجزئيات، بما هو ثابت وبما هو متغير داخل في إطار الاحتمالات؛ وفي هذه الحالة (الآية) فهو سبحانه يعلم بأنه سيكون فيهم ضعف قبل وقوع الضعف، ويعلم لما وقع ذلك أن فيهم ضعفاً، ويعلم بعد وقوع ذلك أنهم ضعفوا. ولا يعني في ذلك تجددًا في علمه، أو أنه علم ما لم يكن يعلم!!!

وكما في قوله تعالى: {وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ^ط فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ} (العنكبوت: ٣)، «وفيها وجوه: الأول: قول مقاتل فليرين الله، الثاني: فليظهرن الله، الثالث: فليميزن الله، فالحاصل على هذا هو أن المفسرين

ظنوا أن حمل الآية على ظاهرها يوجب تجدد علم الله، والله عالم بالصادق والكاذب قبل الامتحان، فكيف يمكن أن يقال بعلمه عند الامتحان؟ فنقول: الآية محمولة على ظاهرها، وذلك أن علم الله صفة يظهر فيها كل ما هو واقع كما هو واقع، فقبل التكليف كان الله يعلم أن زيداً مثلاً سيطيع، وعمراً سيعصي، ثم وقت التكليف والإتيان يعلم أنه مطيع والآخر عاص، وبعد الإتيان يعلم أنه أطاع والآخر عصي، ولا يتغير علمه في شيء من الأحوال، وإنما المتغير المعلوم. ونبين هذا بمثال من الحسيات، ولله المثل الأعلى، وهو أن المرأة الصافية الصقيلة إذا علقت من موضع وقوبل بوجهها جهة ولم تحرك، ثم عبر عليها زيد لابساً ثوباً أبيض، ظهر فيها زيد في ثوب أبيض، وإذا عبر عليها عمرو في لباس أصفر يظهر فيها كذلك، فهل يقع في ذهن أحد أن المرأة في كونها حديداً تغيرت، أو يقع له أنها في تدويرها تبدلت، أو يذهب فهمه إلى أنها في صقلتها اختلفت، أو يخطر بباله أنها عن سكانها انتقلت؟ لا يقع لأحد شيء من هذه الأشياء، ويقطع بأن المتغير الخارجات، فافهم علم الله من هذا المثال» [تفسير مفاتيح الغيب، للرازي].



كما ينبغي أن تؤكد هنا أن لا علاقة لأزلية علم الله بقضية حرية الإنسان؛ فلا يلزم من علم الله بأن فلاناً سيكفر أنه أُجبر على الكفر. حاشا وكلا، هذا فهم خاطئ ومغلوط. فعلم الله علم كاشف، لا إلزام معه ولا إجبار على فعل شيء، ولذا فلا جبر ولا تقييد لحرية الإنسان، ولا يوجد أيضاً في ذلك (أي كون الإنسان حر الاختيار) ما يتعارض مع القضاء والقدر. فقدّر الله متعلق بما ليس للإنسان فيه خيار، ولا يتعلق به أمر أو نهي شرعي، كلون وطول وشكل الإنسان، وأين ولد، ومن أمه وأبيه، وأين سموت، وغير ذلك من قوانين وسنن لا تبدل، وفيما عدا ذلك فهو حر الاختيار، لا يقيده شيء، اللهم سوى التزامه -مختاراً لا مكرهاً- بدين الله ومنهجه.

(والدعاء هنا -أي فيما قدره الله من سنن وقوانين وآجال- لا معنى له، فلن يغير الله قوانين الوجود بدعاء، كأن يدعو أحد من الناس بالآل يموت مثلاً!!! وإنما هو -أي الدعاء- متعلق بالممكنات ضمن ما قدره سبحانه سلفاً، كطلب الشفاء أو الرزق الحلال أو التيسير مع اتخاذ الأسباب؛ والدعاء هكذا يصير جزءاً من قدر الله لا مغيراً له، لأن الله قدر وشاء أن من يحقق شروط الاستجابة وهو يدعوّه سبحانه، قدر أن يستجيب له، وهذا كله داخل في علم الله الكلي الذي أحاط بكل شيء). وهذا موضوع جد شائك وعويص؛ وكثيراً

ما يدور الجدل والالغط حوله، لكن لعل هذا التوضيح المختزل الذي تقدم يفيد شيئاً في فك عقد هذا الموضوع المشكل وتيسيره للفهم. إذن، الدعاء مطلوب، بل هو جزء من العبادة، بل هو لب العبادة لقوله تعالى: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} (غافر: ٦٠)، ولكنه ليس متعلقاً بأي شيء، كالقوانين والسنن والآجال مثلاً!! فمن دعا الله أن يستثنيه من الموت فلن يُجاب حتماً: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلُّوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ} (الأنبياء: ٣٥)، وإنما هو ضمن الممكنات (شفاء، زواج، رزق، عمل، إلخ)، وهو بذلك -أي الدعاء- جزء من القدر نفسه؛ فلا تعارض بين الدعاء والقدر أو ما هو مكتوب سلفاً: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا..} (التوبة: ٥١)، لأن الله قَدَّرَ وشاء وكتب أنه إذا ما كان الدعاء محققاً لشروط وأسباب الاستجابة التي لا تنفك عن مشيئته تعالى وحكمته فإنه يستجيب: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} (البقرة: ١٨٦). وقد تكون الإجابة بعدم تحقيق ذات ما طلبه الإنسان، بل بما هو نافع له وإن لم يكن الإنسان راغباً به، فلا يعلم الغيب إلا الله وحده.



وهنا مزيد بيان وتوضيح: إن الإيمان بالقضاء والقدر لا يعني أن الإنسان مسلوب الإرادة، ولا أن أفعال العباد تقع قهراً عليهم، وإنما يعني أن الله سبحانه وتعالى محيط علماً بكل شيء، لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء، وأن ما يقع في الوجود لا يخرج عن علمه وكتابته وتقديره ومشيئته. وقد سبق علم الله كل ما سيكون، فلا يقع شيء على خلاف ما علمه سبحانه، كما قال تعالى: {لَتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (المائدة: ٩٧)، وقال: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (الملك: ١٤). والقرآن، في الوقت نفسه، يثبت للإنسان مشيئة واختياراً وفعلاً وكسباً، قال تعالى: {وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ}. (الكهف: ٢٩)، وقال: {لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ} (التكوير: ٢٨)، وقال: {كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ} (المدثر: ٣٨). ثم يقرر أن مشيئة الإنسان لا تستقل عن مشيئة الله ولا تخرج عنها، فمشيئة الإنسان لم تُؤتَ له من الأصل إلا بمشيئة الله عز وجل: {وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} (التكوير: ٢٩). وعليه، فليس معنى أن الله قدّر وكتب ما سيقع أن الإنسان أجبر على أفعاله، بل إن الله علم أزلاً ما سيختاره العبد، فكتب وقدّر ما سيكون، ثم وقع اختيار العبد مطابقاً لما علم الله وكتبه وقدّره؛ فلا يكون

فعل العبد خارجاً عن قدر الله، ولا يكون في الوقت نفسه فعلاً أُكِّره عليه العبد وسُلبت إرادته فيه. ومن هنا ينبغي التفريق بين ما يقع على الإنسان ولا اختيار له في أصل وقوعه، وبين ما يقع منه باختياره. فما يقع على الإنسان بغير اختياره، كولادته وأجله وما يصيبه من المصائب والأحداث الخارجة عن إرادته، قدره الله وكتبه، قال تعالى: {مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ} (الحديد: ٢٢)، وقال: {وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ} (الأعراف: ٣٤)، وقوله: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} (التوبة: ٥١). ومن ذلك أن موت الإنسان قد يقع بقتل غيره له؛ فموت المقتول ومصيبة القتل واقعة عليه بغير اختياره، بينما فعل القاتل نفسه فعل اختياري متعمد يُنسب إليه ويحاسب عليه في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} (النساء: ٩٣). إذن؛ ما يقع من الإنسان باختياره، كالطاعة والمعصية، والإيمان والكفر، والقتل وسائر أفعال العباد، فليس خارجاً عن علم الله وكتابته وتقديره؛ بل علم الله أزلاً ما سيختاره العبد، فكتب وقدر ما سيكون، ثم وقع اختيار العبد مطابقاً لما علم

الله وأرادَه وكتبه وقدره. ولذلك ينسب القرآن الفعل إلى الإنسان، ويحاسبه عليه، فيقول: {فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ..} (الكهف: ٢٩)، ويقول: {لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ..} (البقرة: ٢٨٦)، فكون الفعل مقدراً ومكتوباً لا يعني أنه مفروض على فاعله قهراً؛ فالكتابة والتقدير شيء، والإكراه وسلب الإرادة شيء آخر. ولا يصح للإنسان أن يحتج بالقدر لتبرير معصيته أو ظلمه؛ لأن القرآن لم يسقط عنه المسؤولية بحجة سبق التقدير، بل نسب إليه المشيئة والكسب والتعمد، ورتب على أفعاله الجزاء.

والدعاء يدخل في هذا النظام ولا يخرج عنه؛ فالدعاء نفسه من أفعال العباد التي تقع بعلم الله وتقديره، وقد جعل الله الدعاء سبباً من الأسباب، فقال: {وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} (غافر: ٦٠)، وقال: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} (البقرة: ١٨٦) / {ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يَحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ} (الأعراف: ٥٥-٥٦). فإذا دعا العبد فاستجاب الله له، فليس معنى ذلك أن الدعاء غير قدر الله أو ردّ شيئاً منه، وإنما الدعاء نفسه

سبب من الأسباب التي قدرها الله، والاستجابة نتيجة من النتائج التي قدر وقوعها. فالدعاء لا يرد القدر بمعنى إبطال ما كتبه الله أو تغيير علمه السابق، بل هو جزء من القدر نفسه؛ فقد يقدر الله البلاء، ويقدر الدعاء، ويقدر أن يكون الدعاء سبباً في دفع البلاء* [١]، وكل ذلك داخل في علمه السابق وكتابه وتقديره.

[١]. وقد يُستشهد بهذه الآية في سياق القضاء والقدر: {يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُنْثِتْ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} (الرعد: ٣٩)، وحملها بعضهم على أن المقصود بالحو والإثبات هو عملية النسخ في بعض الأحكام الجزئية بين الكتب الإلهية، لا في الكتاب الواحد، لكن يمكن كذلك -على وجه محتمل، كما ذهب البعض إلى ذلك- أن يدخل فيها ما يجري في أحوال الخلق من محو وإثبات وتبدل، كالصحة والمرض، والسعة والضيق في الرزق، ونحو ذلك. وعلى هذا الوجه، لا يعني الحو والإثبات أن الله كان قد كتب شيئاً ثم ظهر له خلافه فغير قدره!!! أو أن دعاء العبد وسعيه يغيران علم الله السابق؛ فهذا لا ينسجم مع إحاطة علمه بكل شيء: {وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً} (الأعراف: ٨٩)، {إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً} (النساء: ٣٢)، {وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} (الأنعام: ١٠١)، {عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} (سبأ: ٣). وإنما تكون الأحوال المتعاقبة نفسها، والأسباب والنتائج والقوانين والسنن، داخلة كلها في علم الله وكتابه وتقديره: فقد قدر سبحانه المرض وأسبابه، وقدر الشفاء كذلك وأسبابه، وجعل الدعاء من جملة الأسباب تلك. فالمرض مقدر (بأسبابه)، ويمحى (بأسبابه)، وهكذا يقع الحو والإثبات: محو المرض وإثبات الشفاء. وكان الله عالماً منذ الأزل بكل ذلك، ويمتق يقع وكيف يقع. فالحو والإثبات، على هذا الفهم، ليسا ردّاً للقدر أو إبطالاً له، ولا تغييراً لعلم الله، بل هما من القدر نفسه؛ فالمرض مقدر، والشفاء مقدر، والدعاء مقدر، والسبب والمسبب كلاهما مقدران. والأسباب والسنن كلها ليست مستقلة عن إرادة الله، بل هي نفسها مما أَرَادَهُ الله وجعل بها الكون يجري؛ وقال تعالى: {وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ}، فكل ما يحوه ويثبته، وأسبابه ونتائجه، لا يخرج عن علمه وإحاطته تبارك وتعالى. وقال: {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} (الرعد: ٣٨)، «أي: لكل أمر قضاه الله كتابٌ وأجلٌ قد كتبه الله عنده، لا يتقدم ولا يتأخر» [التفسير الميسر].

وكذلك سائر الأسباب؛ فالعمل سبب للرزق، والتعلم سبب للعلم، والعلاج سبب للشفاء، والاحتياط سبب للسلامة، والسعي في طلب الحق سبب للوصول إليه.

وليس الأخذ بالأسباب منازعةً للقدر، بل هو من القدر؛ إذ إن الله أجرى الكون على سنن وأسباب، قال تعالى: {إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ} (القمر: ٤٩)، وقال: {سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا} (الفتح: ٢٣). وعن إرهاب الأعداء قال: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِجِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ} (الأنفال: ٦٠)، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْيِرُ مَا بَقِوْهُ حَتَّى يَغْيِرُوا مَا بَأْنَفْسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} (الرعد: ١١).

فأوجب الأخذ بالأسباب على كل حال، ومن ثم لا يكون الدعاء بديلاً عن السعي، ولا التوكل بديلاً عن الأخذ بالأسباب، بل هو في الأصل (أي التوكل) أخذ بها (أي بالأسباب) مع الاعتماد على الله؛ فمن ترك العمل بالأسباب وهو قادر عليها، ثم اكتفى بالدعاء، فقد ترك ما جعله الله من سننه

في حصول النتائج. ومن كان له حق في رزق أو مال أو غيره، فلا يلزمه أن يترك المطالبة به بحجة أن رزقه مقدر؛ بل مطالبته بحقه وسعيه إليه قد يكونان هما السبب الذي قدّره الله لوصول ذلك الرزق إليه.

وعلى هذا، فالدعاء لا يغيّر قدر الله، ولا يردّه بمعنى إبطال ما سبق في علم الله وكتابه، وإنما الدعاء نفسه من جملة ما قدّره الله من الأسباب والنتائج. فإذا استجاب الله لدعاء عبد، فاستجابته ليست خروجاً على قدره ولا تغييراً له، بل هي مما سبق علمه به وجرى به تقديره. وإذا لم يستجب له على الوجه الذي طلبه، فذلك أيضاً لا يخرج عن علم الله وتقديره، وقد تكون الإجابة - كما ذكرنا سابقاً- بما ينفع الإنسان، لا بعين ما طلبه وتمناه.

وبذلك يتضح أن القدر لا يناقض الاختيار، ولا الدعاء، ولا السعي، ولا العمل بالأسباب، ولا المسؤولية. فالله يعلم كل شيء، وقد كتب وقدّر ما سيكون، وجعل للإنسان مشيئة واختياراً، ومشيئته لا تخرج عن مشيئة الله؛ لأن مشيئة الله هي التي أعطت للإنسان مشيئته. فما لا اختيار للعبد فيه قدّره الله عليه، وما له فيه اختيار قدّر الله أن يقع باختياره.

وقدّر الله الأسباب والنتائج، فجعل بعض الأشياء أسباباً لبعض، وجعل الدعاء والسعي والعمل من الأسباب التي تقع بها النتائج. فلا وجود للعبث في هذا

الكون، ولا شيء يقع خارج علم الله وتقديره؛ وإنما تجري الأمور وفق علم الله وسننه، ويظل الإنسان مسؤولاً عما اختاره وكسبه وتعمده.



سؤال: هل هنالك تعارض بين قوله تعالى: {إِنَّمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بَرَجٍ مُّشِيدَةٍ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلُّ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا} (النساء: ٧٨)، وقوله في الآية التي تليها: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} (النساء: ٧٩)؟! كيف إن الحسنة والسيئة في الآية الأولى من عند الله، وفي الثانية جعل الحسنة فقط من الله والسيئة من نفس الإنسان؟!

والجواب: كلا، لا تعارض بين هاتين الآيتين، ولا بين أي آيتين أخريين في كتاب الله على الإطلاق. فالآية الأولى تتحدث عن الحسنات والسيئات من حيث أصل خلقها وإيجادها وتقدير أسبابها وسننها؛ فتلك كلها من عند الله الخالق الموجد الذي لا سواه، ولا يُعقل غير ذلك، وأما الآية الثانية فهي تنتقل من مستوى الحديث عن الحسنات والسيئات من جهة الإيجاد الإلهي والخلق

الأصلي، إلى مستوى الفعل والكسب الإنساني؛ والحسنة في الحالتين من الله ظاهراً وباطناً وبداهة، لأنه واضح السنن والأسباب والهادي إليها، وفي السيئة فهي من جهة الإيجاد من الله بلا ريب، لكن من جهة الكسب هي من الإنسان المختار، فمن عاند - باختياره وكسبه - منهج الله وقوانينه في أي جانب من جوانب الحياة، فاللوم يقع عليه نفسه، لا على الله سبحانه، ذلك لأنه (أي الإنسان) لو أخذ بالأسباب، وسار على سنن الله، ولم يعاند أو يكابر أو يبقى جاهلاً، لما أصابته السيئة.

❖ وهذا تفصيل بديع للآيتين من تفسير المنار الشهير لـ (محمد رشيد رضا):

«كان بعض القوم بطرا جاهلا، إذا أصابه خير ونعمة يقول: إن الله - تعالى - قد أكرمه بما أعطاه من ذلك وأصدره من لدنه وساقه إليه من خزائن فضله عناية منه به لعلو منزلته، إذا وصل إليه شر - وهو المراد من السيئة - يزعم أن النبي - صلى الله عليه وسلم - وأن شؤم وجوده هو ينبوع هذه السيئات والشور، فهؤلاء الجاهلون الذين كانوا يرون الخير والشر والحسنة والسيئة يتناوبانهم قبل ظهور النبي وبعده، كانوا يفرقون بينهما في السبب الأول لكل منهما، فينسبون الخير أو الحسنة إلى الله - تعالى - على أنه مصدرها الأول ومعطيها الحقيقي، يشيرون بذلك إلى أنه لا يد للنبي فيه، وينسبون الشر أو

السيئة إلى النبي على أنه مصدرها الأول ومنبعها الحقيقي كذلك، وأن شؤمه هو الذي رماهم بها، وهذا هو معنى {من عند الله}، أو {من عندك}، أي من لدنه ومن خزائن عطائه، ومن لدنك ومن خزائن رزايك التي ترمي بها الناس.

فرد الله عليهم هذه المزاем بقوله: {قل كل من عند الله} أي: إن السبب الأول وواضع أسباب الخير والشر المنعم بالنعمة والرامي بالنقم إنما هو الله وحده، وليس ليمن ولا لشؤم مدخل في ذلك، فهو بيان للفاعل الأول الذي يرد إليه الفعل فيما لا تتناوله قدرة البشر ولا يقع عليه كسبهم، وهو الذي كان يعنيه أولئك المشاقون عندما يقولون: الحسنة من الله والسيئة من محمد، أي: إنه لا دخل لاختيارهم في الأولى ولا في الثانية، وأن الأولى من عناية الله بهم والثانية من شؤم محمد عليهم، فجاءت الآية ترميهم بالجهل فما زعموا، ولو عقلوا لعلموا أن ليس لأحد فيما وراء الأسباب المعروفة فعل، الخير والشر في ذلك سواء.

هذا فيما يتعلق بمن بيده الأمر الأعلى في الخير والشر والنعمة والنقم، أما ما يتعلق بسنة الله في طريق كسب الخير والتوقي من الشر والتمسك بأسباب ذلك فالأمر على خلاف ما يزعمون، كذلك فإن الله - سبحانه وتعالى - قد وهبنا من العقل والقوى ما يكفينا في توفير أسباب سعادتنا والبعد عن مساقط الشقاء،

فإذا نحن استعملنا تلك المواهب فيما وهبت له لأجله وصرفنا حواسنا وعقولنا في الوجوه التي ننال منها الخير، وذلك إنما يكون بتصحيح الفكر وإخضاع جميع قوانا لأحكامه وفهم شرائع الله حق الفهم والتزام ما حدده فيها، فلا ريب في أننا ننال الخير والسعادة، ونبعد عن الشقاء والتعاسة، وهذه النعم إنما يكون مصدرها تلك المواهب الإلهية فهي من الله - تعالى -، فما أصابك من حسنة فمن الله؛ لأن قواك التي كسبت بها الخير واستغزرت بها الحسنات، بل واستعمالك لتلك القوى إنما هو من الله؛ لأنك لم تأت بشيء سوى استعمال ما وهب الله، فاتصال الحسنة بالله ظاهر، ولا يفصلها فاصل لا ظاهر ولا باطن.

وأما إذا أسأنا التصرف في أعمالنا، وفرطنا في النظر في شئوننا، وأهملنا العقل وانصرفنا عن سر ما أودع الله في شرائعه، وغفلنا عن فهمه، فاتبعنا الهوى في أفعالنا، وجلبنا بذلك الشر على أنفسنا، كان ما أصابنا من ذلك صادرا عن سوء اختيارنا، وإن كان الله - تعالى - هو الذي يسوقه إلينا جزاء على ما فرطنا، ولا يجوز لنا أن ننسب ذلك إلى شؤم أحد أو تصرفه، ونسبة الشر والسيئات إلينا في هذه الحالة ظاهرة الصحة، فأما المواهب الإلهية بطبيعتها فهي متصلة بالخير والحسنات وإنما يبطل أثرها إهمالها، أو سوء استعمالها، وعن كلا الأمرين يساق الشر إلى أهله وهما من كسب المهملين وسيئ الاستعمال، فحق أن

ينسب إليهم ما أصيبوا به وهم الكاسبون لسببه، فقد حالوا بكسبهم بين القوى التي غرزها الله فيهم لتؤدي إلى الخير والسعادة، وبينما حقها أن تؤدي إليه من ذلك، وبعثوا بها عن حكمة الله فيها، وصاروا بها إلى ضد ما خلقت لأجله، فكل ما يحدث بسبب هذا الكسب الجديد، فأجدر به ألا ينسب إلا إلى كاسبه.

وحاصل الكلام في المقامين: أنه إذا نظر إلى السبب الأول الذي يعطي ويمنع ويمنح ويسلب وينعم وينتقم فذلك هو الله وحده، ولا يجوز أن يقال إن سواه يقدر على ذلك، ومن زعم غير هذا فهو لا يكاد يفقه كلاماً؛ لأن نسبة الخير إلى الله ونسبة الشر إلى شخص من الأشخاص بهذا المعنى مما لا يكاد يعقل، فإن الذي يأتي بالخير ويقدر على سوقه هو الذي يأتي بالشر ويقدر عليه، فالتفريق ضرب من الخبل في العقل.

وإذا نظرنا إلى الأسباب المسنونة التي دعا الله الخلق إلى استعمالها لكونوا سعداء ولا يكونوا أشقياء، فمن أصابته نعمة بحسن استعماله لما وهب الله فذلك من فضل الله؛ لأنه أحسن استعمال الآلات التي من الله عليه بها، فعليه أن يحمد الله ويشكره على ما آتاه، ومن فرط أو أفرط في استعمال شيء من ذلك فلا يلومن إلا نفسه، فهو الذي أساء إليها بسوء استعماله ما لديه من المواهب،

وليس بسائع له أن ينسب شيئا من ذلك إلى النبي ولا إلى غيره، فإن النبي أو سواه لم يغلبه على اختياره ولم يقهره على إتيان ما كان سببا في الانتقام منه.

فلو عقل هؤلاء القوم لحمدوا الله وحمدوك - يا محمد - على ما ينالون من خير، فإن الله هو مانحهم ما وصلوا به إلى الخير، وأنت داعيهم لالتزام شرائع الله وفي التزامها سعادتهم، ثم إذا أصابهم شر كان عليهم أن يرجعوا باللائمة على أنفسهم لتقصيرهم في أعمالهم أو خروجهم عن حدود الله، فعند ذلك يعلمون أن الله قد انتقم منهم للتقصير أو العصيان فيؤدبون أنفسهم ليخرجوا من نقمته إلى نعمته؛ لأن الكل من عنده، وإنما ينعم على من أحسن الاختيار ويسلب نعمته عن من أساءه.

وقد تضافرت الآثار على أن طاعة الله من أسباب النعم، وأن عصيانه من مجالب النقم، وطاعة الله إنما تكون باتباع سننه، وصرف ما وهب من الوسائل فيما وهب لأجله. ولهذا النوع من التعبير نظائر في عرف التخاطب، فإنك لو كنت فقيرا وأعطاك والدك مثلا رأس مال فاشتغلت بتنميته والاستفادة منه مع حسن في التصرف وقصد في الإنفاق وصرت بذلك غنيا، فإنه يحق لك أن تقول: إن غناك إنما كان من ذلك الذي أعطاك رأس المال وأعدك به للغنى، أما لو أسأت التصرف فيه وأخذت تنفق منه فيما لا يرضاه، واطلع على ذلك

منك فاسترد ما بقي منه وحرملك نعمة التمتع به، فلا ريب أن يقال: إن سبب ذلك إنما هو نفسك وسوء اختيارها، مع أن المعطي والمسترد في الحالين واحد وهو والدك، غير أن الأمر ينسب إلى مصدره الأول إذا انتهى على حسب ما يريد، وينسب إلى السبب القريب إذا جاء على غير ما يجب؛ لأن تحويل الوسائل عن الطريق التي كان ينبغي أن تجري فيها إلى مقاصدها إنما ينسب إلى من حولها وعدل بها عما كان يجب أن تسير إليه» انتهى النقل.

حرية الإنسان في الاعتقاد

لنبحر في آي القرآن الحكيم ، ولنتأمل عدد ما يفيض به هذا الكتاب الكريم من صور تقرير الحرية وإجبارها وصونها .
* يقول تبارك وتعالى:

- { لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ^ط قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ^ج فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } (البقرة: ٢٥٦) ، «ومعناه أنه تعالى ما بنى أمر الإيمان على الإجبار والقسر، وإنما بناه على التمكن والاختيار.. وأنه تعالى لما بين دلائل التوحيد بياناً شافياً قاطعاً للعدر، قال بعد ذلك: إنه لم يبق بعد إيضاح هذه الدلائل للكافر عذر في الإقامة على الكفر إلا أن يقسر على الإيمان ويحبر عليه، وذلك مما لا يجوز في دار الدنيا التي هي دار الابتلاء، إذ في القهر والإكراه على الدين بطلان معنى الابتلاء والامتحان». [مفاتيح الغيب، التفسير الكبير].

- { وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ^ط فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ ^ج إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ

الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا} (الكهف: ٢٩)، إن هذا الذي جئتم به هو الحق، فمن شاء فليؤمن به، ومن شاء فليكفر، على أن يتحمل كل فرد نتيجة اختياره والمصير الذي ينتظره. وهذه الآية، وإن كان فيها تهديد صريح لمن يكفر بأن النار مصيره، إلا أنها تبقى نصًّا في تقرير حرية الاختيار. فحرية الاختيار لا تعني إعفاء المختار من تبعات خياراته، وإنما لكي تُقام عليه الحجة، ويكون للحساب بعد ذلك منطقيته وعدالته.

- {نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ} وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذِكْرٌ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ} (ق: ٤٥)، «نحن أعلم بما يقول هؤلاء المشركون من افتراء على الله وتكذيب بآياته، وما أنت -أيها الرسول- عليهم بمسلط؛ لتجبرهم على الإسلام، وإنما بُعثت مبليغاً، فذكر بالقرآن من يخشى وعيدي؛ لأن من لا يخاف الوعيد لا يذكر». [التفسير الميسر].

- {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا} أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ} (يونس: ٩٩)، «ولو شاء ربك لخلق هذا الجنس البشري خلقة أخرى، فجعله لا يعرف إلا طريقاً واحداً هو طريق الإيمان كالملائكة مثلاً. أو لجعل له استعداداً واحداً يقود جميع أفرادهِ إلى الإيمان. ولو شاء كذلك لأجبر الناس جميعاً وقهرهم عليه، حتى لا تكون لهم إرادة في اختياره. ولكن حكمة

الخالق التي قد ندرك بعض مراميها وقد لا ندرك، دون أن ينفي عدم إدراكنا لها وجودها. هذه الحكمة اقتضت خلقه هذا الكائن البشري باستعداد للخير وللشر وللهدى والضلال. ومنحته القدرة على اختيار هذا الطريق أو ذاك. وقدرت أنه إذا أحسن استخدام مواهبه الدنية من حواس ومشاعر ومدارك، ووجهها إلى إدراك دلائل الهدى في الكون والنفس وما يجيء به الرسل من آيات وبيّنات، فإنه يؤمن ويهتدي بهذا الإيمان إلى طريق الخلاص. وعلى العكس حين يعطل مواهبه ويغلق مداركه ويسترها عن دلائل الإيمان يقسو قلبه، ويستغلق عقله، وينتهي بذلك إلى التكذيب أو الجحود، فإلى ما قدره الله للمكذّبين الجاحدين من جزاء.. فالإيمان إذن متروك للاختيار، لا يكره الرسول عليه أحداً. لأنه لا مجال للإكراه في مشاعر القلب وتوجهات الضمير». [تفسير: في ضلال القرآن].

- {لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ} (الكافرون: ٦)، «لَكُمْ دِينُكُمْ الَّذِي اعْتَقَدْتُمُوهُ، وَلَكُمْ جَزَاؤُكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ وَلِيَ إِسْلَامِي، وَلِيَ جَزَائِي عَلَى أَعْمَالِي». [أيسر التفاسير].
- {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ * لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ} (الغاشية: ٢١-٢٢)، «فَعِظْ -أيها الرسول- المعرضين بما أُرْسِلْتَ بِهِ إِلَيْهِمْ، وَلَا تَحْزَنْ عَلَى إِعْرَاضِهِمْ، إِنَّمَا أَنْتَ وَاعِظٌ لَهُمْ، لَيْسَ عَلَيْكَ إِكْرَاهُهُمْ عَلَى الْإِيمَانِ». [التفسير الميسر].

- {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ^ص فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} (يونس: ١٠٨)،

«قل -أيها الرسول- لهؤلاء الناس: قد جاءكم رسول الله بالقرآن الذي فيه بيان هدايتكم، فمن اهتدى بهدي الله فإنما ثمره عمله راجعة إليه، ومن انحرف عن الحق وأصرَّ على الضلال فإنما ضلاله وضرره على نفسه، وما أنا موكل بكم حتى تكونوا مؤمنين، إنما أنا رسول مبلِّغ^ط أبلغكم ما أُرسلت به». [التفسير الميسر].

- {مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء: ١٥)، «من اهتدى فاتبع طريق الحق فإنما يعود ثواب ذلك عليه وحده، ومن حاد واتبع طريق الباطل فإنما يعود عقاب ذلك عليه وحده، ولا تحمل نفس مذنبه إثم نفس مذنبه أخرى. ولا يعذب الله أحداً إلا بعد إقامة الحجّة عليه بإرسال الرسل وإنزال الكتب». [التفسير الميسر].

- {إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ^ط الَّذِي حَرَّمَ^ط وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ * وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ} (النمل: ٩١-٩٢)، «قل -أيها الرسول- للناس: إنما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ، وهي "مكة"، الذي حَرَّمَ^ط على خلقه أَنْ

يسفكوا فيها دمًا حرامًا، أو يظهروا فيها أحدًا، أو يصيدوا صيدها، أو يقطعوا شجرها، وله سبحانه كل شيء، وأمرت أن أعبده وحده دون من سواه، وأمرت أن أكون من المنقادين لأمره، المبادرين لطاعته، وأن أتلو القرآن على الناس، فمن اهتدى بما فيه واتبع ما جئت به، فإنما خير ذلك وجزاؤه لنفسه، ومن ضلَّ عن الحق فقل -أيها الرسول-: إنما أنا نذير لكم من عذاب الله وعقابه إن لم تؤمنوا، فأنا واحد من الرسل الذين أنذروا قومهم، وليس بيدي من الهداية شيء». [التفسير الميسر].

- { إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ ۖ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا } (المزمل: ١٩)، «إن هذه الآيات الناطقة بالوعد موعظة، فمن شاء الانتفاع بها اتخذ إلى ربه سبيلًا (بالطاعة) والتقوى والخشية». [المنتخب في تفسير القرآن الكريم].

- { قُلِ اللَّهُ أَعْبُدْ مُخْلِصًا لَهُ دِينِي * فَاعْبُدُوا ۖ مَا شِئْتُمْ مِّنْ دُونِهِ قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ } (الزمر: ١٤-١٥)، «قل -أيها الرسول-: إني أعبد الله وحده لا شريك له مخلصًا له عبادتي وطاعتي، فاعبدوا أتم -أيها المشركون- ما شئتم من دون الله من الأوثان والأصنام وغير ذلك من مخلوقاته، فلا يضرني ذلك شيئًا. وهذا تهديد ووعيد لمن عبد غير الله، وأشرك معه غيره.

قل -أيها الرسول:- إن الخاسرين - حقًا- هم الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة، وذلك بإغوائهم في الدنيا وإضلالهم عن الإيمان. ألا إن خسران هؤلاء المشركين أنفسهم وأهليهم يوم القيامة هو الخسران البين الواضح». [التفسير الميسر].

- {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} (الشمس: ٧-٨)، «إن هذا الكائن مخلوق مزدوج الطبيعة، مزدوج الاستعداد، مزدوج الاتجاه ونعني بكلمة مزدوج على وجه التحديد أنه بطبيعة تكوينه (من طين الأرض ومن نفخة الله فيه من روحه) مزود باستعدادات متساوية للخير والشر، والهدى والضلال. فهو قادر على التمييز بين ما هو خير وما هو شر. كما أنه قادر على توجيه نفسه إلى الخير وإلى الشر سواء.

وأن هذه القدرة كامنة في كيانه، يعبر عنها القرآن بالإلهام تارة: {وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا}.. ويعبر عنها بالهداية تارة: {وهديناه النجدين}، فهي كامنة في صميمه في صورة استعداد.

والرسالات والتوجيهات والعوامل الخارجية إنما توقظ هذه الاستعدادات وتشحذها وتوجهها هنا أو هناك. ولكنها لا تخلقها خلقاً. لأنها مخلوقة فطرة، وكائنة طبعاً، وكامنة إلهاماً». [في ظلال القرآن].

- {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ * وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} (البلد: ٨-١٠)،
«ليختار أيهما شاء، ففي طبيعته هذا الاستعداد المزدوج لسلوك أي النجدين.
والنجد الطريق المرتفع.

وقد اقتضت مشيئة الله أن تمنحه القدرة على سلوك أيهما شاء، وأن تخلقه بهذا
الازدواج طبقاً لحكمة الله في الخلق، وإعطاء كل شيء خلقه، وتيسيره لوظيفته
في هذا الوجود». [في ظلال القرآن].

- {إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا} (الإنسان: ٣)، «فإن أخذ بالهدى
كان شاكراً وإن أعرض كان كفوراً كمن لم يأخذ بإرشاد من يهديه الطريق
فيأخذ في طريق يلقي به السباع أو اللصوص». [التحرير والتنوير].

- {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا * وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا} (الشمس: ٩-١٠)،
«والتزكية: التزود من الخير والطاعة، والحرص على تطهير النفس من كل
سوء، وقوله: {دَسَّاهَا} أي: نقصها وأخفاها بالمعاصي والآثام. وأصل فعل دسّ:
دسّس، فلما اجتمع ثلاث سينات، قلبت الثالثة ياء، يقال: دس فلان الشيء
إذا أخفاه وكتمه». [الوسيط في تفسير القرآن الكريم]. لاحظ أن فعلي
«زكّاها» و«دسّاها» عائدان إلى الإنسان ذاته؛ الخيار له، له مطلق الحرية في
اختيار ما يشاء، على أن يتحمل تبعات اختياراته.

- { فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلَّمْتُ وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ^{٢٠} وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسَلَّمْتُ فَإِنْ أَهْلُوا فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ } (آل عمران: ٢٠)، «إِنْ جَادَلَكَ -أيها الرسول- أَهْلُ الْكِتَابِ فِي التَّوْحِيدِ بَعْدَ أَنْ أَقَمْتَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ فَقُلْ لَهُمْ: إِنِّي أَخْلَصْتُ لِلَّهِ وَحْدَهُ فَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا، وَكَذَلِكَ مِنْ اتَّبَعَنِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، أَخْلَصُوا لِلَّهِ وَانْقَادُوا لَهُ.

وَقُلْ لَهُمْ وَلِمُشْرِكِي الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ: إِنْ أَسَلَّمْتُ فَأَنْتُمْ عَلَى الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ وَالْهُدَى وَالْحَقُّ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَحِسَابُكُمْ عَلَى اللَّهِ، وَلَيْسَ عَلَيَّ إِلَّا الْبَلَاغُ، وَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ وَأَقَمْتُ عَلَيْكُمْ الْحُجَّةَ. وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْ أَمْرِهِمْ شَيْءٌ». [التفسير الميسر].

لَيْسَ عَلَى الرَّسُولِ (ص) -وَهُوَ مِنْ هُوَ؟!!- إِلَّا الْبَلَاغُ، فَلَا إِكْرَاهَ وَلَا عُنْفَ وَلَا قَهْرَ وَلَا إِجْبَارَ عَلَى الْإِطْلَاقِ. وَفِي نَهَايَةِ الْمَطَافِ اللَّهُ بَصِيرٌ بِعِبَادِهِ، لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ، وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ.

- { وَإِنْ مَا نُزِّنَاكَ بِعُضِّ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيْكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ } (الرعد: ٤٠)، «فَلَيْسَ عَلَيْكَ (أيها الرسول) إِلَّا تَبْلِيغُ أَحْكَامِ الرِّسَالَةِ، وَلَا يَلْزِمُكَ حَصُولُ الْإِجَابَةِ مِنْهُمْ لَمَّا بَلَغْتَهُ إِلَيْهِمْ {وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} أَيُّ: مُحَاسِبَتِهِمْ بِأَعْمَالِهِمْ وَمَجَازَاتِهِمْ عَلَيْهَا، وَلَيْسَ ذَلِكَ عَلَيْكَ». [فتح القدير].

- {فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنَّ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ ۚ وَإِنَّا إِذَا أَذَقْنَا
الْإِنْسَانَ مِنَّا رَحْمَةً فَحَرَحَ بِهَا وَإِنْ تُصِيبَهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنْسَانَ
كَفُورٌ} (الشورى: ٤٨)، «فإن أعرض هؤلاء المشركون -أيها الرسول- عن
الإيمان بالله فما أرسلناك عليهم حافظًا لأعمالهم حتى تحاسبهم عليها، ما عليك إلا
البلاغ». [التفسير الميسر].

- {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} (القصص: ٥٦)، إنك يا محمد لا تهدي (هداية التوفيق) من أحببت هدايته،
ولكن الله يهدي من شاء الهداية وسعى لها، وهو أعلم بالمهتدين؛ أي طالبي
الهداية الساعين لها.

- {مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ ۚ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} (المائدة: ٩٩)، «يبيِّن الله تعالى أن مهمة رسوله صلى الله عليه وسلم هداية الدلالة
والتبليغ، ويبد الله -وحده- هداية التوفيق، وأن ما تنطوي عليه نفوس الناس
مما يسرون أو يعلنون من الهداية أو الضلال يعلمه الله». [التفسير الميسر].

- {وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ
سُلَمًا فِي السَّمَاءِ فَتُتِيهِمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْجَاهِلِينَ} (الأنعام: ٣٥)، «تلك سنتنا -يا محمد- فإن كان قد كبر عليك

إعراضهم، وشق عليك تكذيبهم، وكنت ترغب في إتيانهم بآية. إذا.. فإن استطعت فابتغ لك نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء، فأتهم بآية!... إن هداهم لا يتوقف على أن تأتيهم بآية. فليس الذي ينقص هو الآية التي تدلهم على الحق فيما تقول.. ولو شاء الله لجمعهم على الهدى: إما بتكوين فطرتهم من الأصل على أن لا تعرف سوى الهدى - كالملائكة - وإما بتوجيه قلوبهم وجعلها قادرة على استقبال هذا الهدى والاستجابة إليه. وإما بإظهار خارقة تلوي أعناقهم جميعاً. وإما بغير هذه من الوسائل وكلها يقدر الله عليها. ولكنه سبحانه - لحكمته العليا الشاملة في الوجود كله - خلق هذا الخلق المسمى بالإنسان، لوظيفة معينة، تقتضي - في تدبيره العلوي الشامل - أن تكون له استعدادات معينة غير استعدادات الملائكة. من بينها التنوع في الاستعدادات، والتنوع في استقبال دلائل الهدى وموحيات الإيمان، والتنوع في الاستجابة لهذه الدلائل والموحيات. في حدود من القدرة على الاتجاه، بالقدر الذي يكون عدلاً معه تنوع الجزاء على الهدى والضلال.

لذلك لم يجمعهم الله على الهدى بأمر تكويني من عنده، ولكنه أمرهم بالهدى وترك لهم اختيار الطاعة أو المعصية، وتلقي الجزاء العادل في نهاية المطاف.. فاعلم ذلك ولا تكن مما يجهلونه. {ولو شاء الله لجمعهم على الهدى. فلا تكونن

من الجاهلين}. يا لهول الكلمة! ويا لحسم التوجيه! ولكنه المقام الذي يقتضي هول الكلمة وحسم التوجيه». [في ظلال القرآن].

- {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ^طفَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} (الأنعام: ٤٨)، وما نرسل المرسلين إلا مبشرين لمن اختار الإيمان وسعى له، ومنذرين لمن اختار طريق الاستكبار والكفر. فمن آمن وأصلح فلا يحزن، وقد نال الأمن من الله جل في علاه.

«وما نرسل الأنبياء إلا ليبشروا من يؤمن بالخير والثواب، وليحذروا من يكفر من العذاب.

فمن آمن بدعوتهم وعمل صالحاً، فلا خوف عليهم من شريصبيهم، ولا يحزنون على خير يفوتهم». [المنتخب في تفسير القرآن الكريم].

- {قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ ^جإِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ يَقْصُ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} (الأنعام: ٥٧)، «قل -أيها الرسول لهؤلاء المشركين-: إني على بصيرة واضحة من شريعة الله التي أوحاها إليّ، وذلك بإفراده وحده بالعبادة، وقد كذَّبتم بهذا، وليس في قدرتي إنزال العذاب الذي تستعجلون به، وما الحكم في تأخر ذلك إلا إلى الله تعالى، يقصُّ الحق، وهو خير من يفصل بين الحق والباطل بقضائه وحكمه». [التفسير الميسر].

- {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ} قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ * لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ * وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ { (الأنعام: ٦٦-٦٨)، «قوم النبي - صلى الله عليه وسلم - هم الذين كذبوا بما جاءهم به - وهو الحق - ومن ثم انفصل ما بينه وبين قومه وابنت؛ وأمر أن يفاصلهم فيعلن إليهم أنه ليس عليهم بوكيل، وأنه يتركهم لمصيرهم الذي لا بد آتٍ، وأمر أن يعرض عنهم فلا يجالسهم متى رآهم يخوضون في الدين، ويتخذونه لعباً ولهواً، ولا يوقرونه التوقير الواجب للدين، وأمر - مع ذلك - أن يذكرهم ويحذرهم ويبلغهم وينذرهم، ولكن على أنه وإياهم - وهم قومه - فريقان مختلفان، وأمتان متميزتان.

فلا قوم ولا جنس ولا عشيرة ولا أهل في الإسلام.. إنما هو الدين الذي يربط ما بين الناس أو يفصم.. وإنما هي العقيدة التي تجمع بين الناس أو تفرق. وحين يوجد أساس الدين توجد تلك الروابط الأخرى. وحين تنفصم هذه العروة تنفصم الروابط والصلات». [في ظلال القرآن].

- {وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِّيْ عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنْتُمْ بَرِيْءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيْءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ} (يونس: ٤١)، «وإن أصروا على تكذيبك - أيها الرسول - بعد وضوح

الأدلة على نبوتك - فقل لهم: إن لي جزء عملي، ولكم جزء عملكم كيفما كان، وإني مستمر في دعوتي، وأنتم لا تؤاخذون بعلمي، وأنا لا أؤاخذ بعملكم، فافعلوا ما شئتم وسيجازي الله كلا بما كسب». [المنتخب في تفسير القرآن الكريم].

- {فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ} (هود: ١٢)، «بلغهم -أيها الرسول- ما أوحيته إليك؛ فإنه ليس عليك إلا الإنذار بما أُوحي إليك. والله على كل شيء حفيظ يدبر جميع شؤون خلقه». [التفسير الميسر].

- {إِنْ تَحَرَّضَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} (النحل: ٣٧)، ما عليك، أيها الرسول، إلا البلاغ، ومهما حرصت على هداية من اختاروا طريق الضلال، وزهدوا في طلب الحق وطريقه والسعي إليه، فإن الله لا يهديهم، وما لهم من ناصرين من دون الله. فالله أضلهم بمعنى أنهم اختاروا الضلال، فلم يمنعهم الله حقهم في الاختيار، حتى وإن كان الضلال اختيارهم. فلا جبر ولا إكراه، وإنما المسألة هي أن من اختار طريق الضلال فلن يحول الله بينه وبين ذلك الطريق، ومن سعى طلباً للحق والهداية كان الله في

عونه. فكان هذا معنى أنه تعالى لا يهديهم؛ أي ليست بمعنى أنه أجبرهم على الضلال، إنما بمعنى أنه لم يصادر حقهم في اختيار أن يضلّوا.



لننتبه إلى أن كل هذه الآيات التي أوردتها كانت فيما يتعلق بحرية الاعتقاد/الضمير/الاختيار، التي هي أقدس حرية؛ لأن العقيدة أهم ما لدى الإنسان في العموم.

ولذا فإن الحرية شرط صحة الاعتقاد وشرط صحة الأعمال. قال تعالى: {فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} (البقرة: ٢٥٦)؛ فقدم الكفر بالطاغوت (كل أشكال وصور الإكراه والإجبار) على الإيمان به جل وعلا، لأن الإيمان به هو عين الحرية ورأسها وتاجها.

فيكون المؤمن حراً بالضرورة، ولا يُقبل على هذا الأساس ممن آمن بالله إلا أن يكون حراً مستقلاً لا يخضع لغيره من البشر.

الشفاعة

لقد وردت الشفاعة في عدة مواضع في كتاب الله، منها ما اختص بالشفاعة التي تكون في الدنيا، كقوله تعالى: {مَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا} وَمَنْ يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقِيتًا { (النساء: ٨٥)، وأكثرها عن الشفاعة في الآخرة، من حيث إن أحداً من البشر لا يملكها ولا ينتفع بها لنفسه: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} (البقرة: ٤٨) / {وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ} (البقرة: ١٢٣)، اللهم إلا بإذن الله ورضاه: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ..} (البقرة: ٢٥٥)، {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} (النجم: ٢٦). فالله تعالى هو وحده الذي له الشفاعة جميعاً: {أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أُولَؤْكَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئًا وَلَا يَعْقِلُونَ * قُلْ

لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ { (الزمر: ٤٣-٤٤). والله مطلق العلم والمعرفة والعدل، فلن يظلم أحداً من خلقه، ولن ينال شفاعته سوى من ارتضاها له وكان مستحقاً لها.

وعليه؛ فليس لأحد في الدنيا أن يجزم، مثلاً، بأن فلاناً -نبياً كان أو غير نبي- سيشفع لغيره؛ فهذا افتئات على الله، وعلى الآيات الواضحات التي تثبت أن الشفاعة جميعاً لله وحده -لا لأحد غيره-، يمنحها لمن يشاء يوم القيامة بإذنه ومشيئته وحكمته سبحانه، فلا تنفع حتى شفاعاة الملائكة إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى.

التوسل بالأَمْوات

معلوم أن الميت قد انقطع تواصله مع عالم الشهادة؛ فلا يستطيع عون أحد ولا ضرره، لذا فالميت لا ينفع ولا يضر، ومادام هو كذلك؛ فما مبرر التوسل به أو بجاهه أو دعائه أو أعماله؟! لا قيمة لذلك. يقول تعالى: {يُوجُّ النَّهَارُ فِي النَّهَارِ وَيُوجُّ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} (فاطر: ١٣-١٤).

وقد سمعت أزهرياً -غارقاً في الضلال والعياذ بالله- وهو يبرر زيارة قبور الأولياء والتوسل بهم وبجاههم، أن تلك بقعة طيبة، والدعاء فيها مختلف عن غيره من الأمكنة!! وقال: ما دام أن المعطي هو الله، فدعاء الإنسان عند قبر الولي ليس شركاً!!! ونحن نقول له: فلم، من الأساس، الدعاء عند قبره ما دام المعطي هو الله؟! سيقول: تقرباً بجاهه ومكانته؛ فنقول: أفليس هذا هو عين ما جاء عن المشركين في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ

إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ { (الزمر: ٣)، وقوله تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ } (يونس: ١٨)!

ومنهم من يستشهد بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } (المائدة: ٣٥)، وأعجب منهم ومن إيغالهم في الشرك والضلال حينما يعتقدون أن في الآية ما يبرر لهم التوسل بالأموات عند الله؛ فالآية لا تشير إلى ذلك ولا بأي وجه؛ والمعنى الأقرب والأوضح والأكثر اتساقاً مع باقي آي الكتاب الكريم هو: اطلبوا القربة والوصلة إلى الله تعالى بفعل طاعاته، وأداء فرائضه، واجتناب نواهيه، والتقرب إليه بكل ما يحبه ويرضاه من الأعمال الصالحة. والتوسل بالأموات ليس عملاً صالحاً على الإطلاق، بل هو شرك، أعاذنا الله وإياكم منه.

والتوسل بغير الأموات مشروع في حدود أن يكون في شيء يقدر عليه المخلوق، وأن يكون حاضراً لا غائباً؛ ومنها قول المسلم لأخيه: «ادع لي»، كما في قوله تعالى عن أبناء يعقوب عليه السلام حينما طلبوا منه أن يستغفر لهم: {قَالُوا يَا

أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ * قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ { (يوسف: ٩٧-٩٨)، فهذا لا بأس به: حي يدعو لحي، وليس إنسان حي يتوسل بآخر ميت!

ومن أجاز التوسل بحب محمد -صلى الله على محمد-، فلأن حبه جزء من عقيدة المسلم، وهي طاعة لله، وداخله في معنى قوله تعالى: "وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ" بالتعريف الذي أوردناه، ولا تنطبق على من سواه. وانتبه؛ فهو توسل بحبك له، لا توسل بعمله وجاهه عليه الصلاة والسلام. هو، إذن، توسل بعملك أنت الذي تبتغي به وجه الله.

بناءً على ما تقدم، فإن موقفنا من كل ما نراه في المجتمعات التي تدعي الإسلام من توسل بالأولياء والأئمة والصالحين، والتمسح بأضرحتهم ودعائهم (كقولهم: يا علي، يا حسين، يا فاطمة، يا فلان الولي، إلخ)، والنذر لهم.. إلخ، هو شرك بالله تعالى: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ * إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ * يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ { (فاطر: ١٣-١٥) / {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنْ الظَّالِمِينَ { (يونس: ١٠٦) / {إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ

وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا { (النساء: ٤٨). ولا ينبغي لمسلم أن يجاريهم أو يجاملهم، بل عليه أن يحذرهم وينهاهم عن هذا المنكر العظيم. وزيارة القبور مشروعة إذا كانت الدعاء للموتى، وليس أن تطلب منهم هم أن يقضوا حاجتك أو يتوسطوا بينك وبين خالقك!!! هذا قلب للأمر وتيه وانحراف، نسأل الله العفو والمهابة.

كما أننا نتبنى كراهية بناء المساجد على القبور (ومن يستند على ما جاء في قوله تعالى: {.. قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا} (الكهف: ٢١)، دليلاً على الإباحة، فهو واهم؛ ذلك لأن الآية أوردت ما حصل دون إقرار أو نهى، وإذا ما أردنا الحكم في ذلك، فلا بد من العودة للمنظومة القرآنية الكلية التي أكدت أن المساجد لله، فلا يجوز دعوة غيره فيها، ومعلوم أن من بنى مسجداً على قبر من القبور فهو لسبب صلاح ومكانة المقبورين، وعليه فإن دعاء الله حينئذ يبدو مخلوطاً بدعاء غيره أو التقرب بهم إليه سبحانه)؛ ودعاء غير الله في مساجده شرك به سبحانه وتعالى، لقوله: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} * وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا * قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا} (الجن: ١٨-٢٠).

السحر والعين

لقد ذكر السحر في القرآن الكريم، وله صورتان أساسيتان؛ الأولى: سحر العيون أو التخيل، كما فعل سحرة فرعون: {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَامَّا أَنْ تَكُونَ مِنْ الْمُلْقِينَ} * قَالَ أَتَقُولُوا فَلَمَّا أَتَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ * وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (الأعراف: ١١٥-١١٨)، / {قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَامَّا أَنْ تَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى} * قَالَ بَلْ أَتَقُولُوا فَإِذَا جَاءَهُمْ وَعَصِيهِمْ يُخِيلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى} (طه: ٦٥-٦٦). والثانية: ما يتعلق بتغيير القناعات للإفساد والتفريق بين الزوجين: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكٍ سَلِيمٍ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يَعْلَمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا

يَعْلَمُونَ} (البقرة: ١٠٢) ، وهذه الأخيرة لها جانب مادي: «متعلق بالعقاقير، يقوم الساحر بإعطاء مادة معينة لإنسان ما عن طريق الطعام أو الشراب أو الحقن أو أية طريقة فتؤثر هذه المادة في جملته العصبية، فيصاب بالرجفان والرعشة أو تؤثر بحالته النفسية من خلال اضطراب في فرز الغدد فيصاب بالكآبة، أو تؤثر في دماغه فيصاب بحالة هلوسة عقلية نحو التخیل لوجود أشياء غير واقعية، أو سماع أصوات غير موجودة، أو شعور بالخطر وأن هناك من يريد قتله إلى غير ذلك من الأمراض العقلية والنفسية التي تنتج عن إعطائه هذه المادة. فهذا السحر يكون من خلال تأثير الناحية الفيزيولوجية على السيكلوجية وكما هو ملاحظ أن هذا السحر هو علم يتعلق بالعقاقير والأدوية وتأثيرها على النظام الفيزيولوجي للجسم الذي بدوره يؤثر في النظام السيكلوجي فيصيبه بالخلل» [سامر إسلامبولي].

ولكن ليس معنى ذلك أنه لا عاصم من تلك الصور من السحر؛ كلا، فالأول يبطل إذا ما عُرف كيف تم؛ كألغاز الخفة مثلاً، فما إن يعرف الإنسان كيف تمت الخدعة، يبطل سحر العين فوراً، ويكتشف أن السحر لم يغيّر حقيقة الشيء الذي أمامه، وإنما خُيِّلَ له؛ والثاني بعدم إعطاء الإنسان أذنه لكل من هبّ ودبّ، وعدم تصديق كل ما يسمع، لا سيما إذا كان ذلك عن الزوج أو

الزوجة، أو الانجرار خلف الوسوس والشكوك المرضية. والمتعلق بالعقاقير فعلاجه طبي، والوقاية منه بعدم تناوله.

وفيما يتعلق بقوله تعالى في سورة الفلق: {وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ} (الفلق: ٤)، فليس فيها دليل قاطع على أن المعنى هو الساحرات اللاتي ينفخن فيما يعتقدن من عقد بقصد السحر، كما جاء في التفاسير، على أن هذا المعنى نفسه لا يعني بالضرورة أن تلك العقد تضر بذاتها، وإنما ما أُوهم بها ومن خلالها؛ فتأثيرها نفسي لمن ضعف وأذعن لها وصدق تأثيرها، لذا يُتعوذ من ذلك. ويمكن أن يكون التعوذ من النفثات أنفسهن (أي الفاعل ذاته)، وما قد يترتب على فعلهن ونفثهن، لا على النفث ذاته. أما رأي محمد عبده فكان كالآتي:

«العقد ما تعرفه في الخيط والحبل جمع عقدة، ثم تستعمل العقدة في كل ما ربط وأحكم ربطه، ولذلك سمي الله الارتباط الشرعي بين الزوجين "عقدة النكاح" وسمى الإيجاب والقبول ونحوه عقداً ونسميه عقدة أيضاً.

والنفث النفخ الخفيف أو النفخ مع شيء من الريق، والنفثاة من صيغ المبالغة كالعلامة والفهامة يستعمل كذلك للذكر والأنثى والنفثات جمعه، والمراد بهم هنا النمامون المقطعون لروابط الألفة، والنميمة تشبه أن تكون ضرباً من السحر

لأنها تحول بين الصديقين من محبة وعداوة بوسيلة خفية كاذبة، والنميمة تضلل وجدان الصديقين كما يضل الليل من يسير فيه بظلمته، ولهذا ذكرها عقب الغاسق إذا وقب، ولا يسهل على أحد أن يحتاط للتحفظ من النمام فإنه يذكر عنك ما يذكر لصاحبك، وأنت لا تعلم ماذا يقول ولا ما يمكن أن يقول، وإذا جاءك فربما دخل عليك بما يشبه الصدق حتى لا يكاد يمكنك تكذيبه، فلا بد من قوة أعظم من قوتك تستعين بها عليه وهي قوة الله» انتهى كلامه.

وتابعه في ذلك الرأي الشيخ المراغي بقوله:

«وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ» أي ومن شر النمامين الذين يقطعون روابط المحبة، ويددون شمل المودة، وقد شبه عملهم بالنفث، وشبهت رابطة الوداد بالعقدة، والعرب تسمى الارتباط الوثيق بين شيئين عقدة، كما سمي الارتباط بين الزوجين: عقدة النكاح.

فالنميمة تحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة بالوسائل الخفية التي تشبه أن تكون ضرباً من السحر، ويصعب الاحتياط والتحفظ منها فالنمام يأتي لك بكلام يشبه الصدق، فيصعب عليك تكذيبه، كما يفعل الساحر المشعوذ إذا أراد أن يحل عقدة المحبة بين المرء وزوجه، إذ يقول كلاماً ويعقد عقدة وينفث فيها، ثم يحلها إيهاماً للعامة أن هذا حل للعقدة التي بين الزوجين» انتهى كلامه.

وأما فيما يتعلق بمسألة العين، فقد ارتبطت بها خرافات وأساطير كثيرة؛ وأكثر ما يتشبث به القائلون بتأثير العين هو قوله تعالى: {وَأَن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ} (القلم: ٥١)، وقوله تعالى: {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} (يوسف: ٦٧)، وما نتبناه هو أن: «الإصابة بالعين لا حقيقة لها، وهي تعبير عن الحسد لا غير، والأحاديث الواردة في العين هي تأكيد لدور العين في الحسد من جهتين، الأولى: أن العين سفير القلب وأداته؛ فالحسد يتكون في القلب بعد معرفة النعمة على المحسود، وأعظم وسيلة للمعرفة في هذا السياق هي العين، لذلك قيل: النَّفْسُ هُوَ الْحُسُودُ الْمُتَعَيْنُ لأموالِ الناس. الثانية: أن أثر الحسد يظهر في العين، لذلك يربط الناس بشكل عفوي بين الحسد والعين لما بينهما من علاقة كما بينا.

كل مسلم يؤمن أنه لا فاعل بهذا الوجود سوى الله تعالى، والقول بتأثير العين تسرب من ديانات واعتقادات لا علاقة لها بالإسلام، ونحن نرى أن مبدأ الاعتقاد بقوة العين وتأثيرها يتعارض مع منطق الإسلام القائم على البرهان

والدليل والداعي إلى العلم وملاحظة الظواهر الطبيعية. وقد فندنا الأدلة التي احتج بها جمهور القائلين بتأثير العين كما يلي:

الآيات التي احتج بها الجمهور على تأثير العين تأويلها على خلاف الأظهر، فقوله تعالى {وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم} لا دلالة في هذه الآية على الإصابة بالعين، وغاية ما تدل عليه، أن الذين كفروا لشدة غيظهم ينظرون إلى رسول الله نظرات ملؤها الحسد والحقد والغضب تكاد تزلقه أي تحرفه عن مساره، والمقصود هنا موافقته على بعض ما يريدون، ويؤيد هذا قوله تعالى: {وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذا لاتخذوك خليلاً * ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً * إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً} (الإسراء: ٧٣-٧٥)، وبالجمع بين الآيتين يتضح المقصود من قوله تعالى {ليزلقونك بأبصارهم} ومثل هذا التعبير متعارف عليه ومألوف بين الناطقين بالعربية، ويراد به بيان حدة النظرة ولؤم صاحبها، دون أن يكون لها تأثير سلبي واقعاً، ونظيره ما يتردد على الألسنة في التعبير عن النظرة الحائقة بقولهم: "يكاد يأكلك بعينه". أما طلب يعقوب النبي من أولاده أن لا يدخلوا من باب واحدة: {وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي

عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنَّ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ { (يوسف: ٦٧)، فلا يستطيع أحد أن يجزم أن القصد خوفه عليهم الإصابة بالعين، بل ربما كان قصده خوفه عليهم من سلطان أو عدو يراهم عصابة من الرجال بني أب واحد فيحسداهم أو يؤرقه جمعهم فيكيد لهم ويبغي لهم سوءاً، وهذا الاحتمال أقرب للصواب وأولى بالاعتبار لقيام دليل الواقع عليه، ولا ينازع في وجوده أحد، لأنه معروف ومنتشر. يقول ابن منظور: البغي أصله الحسد، ثم سمي الظلم بغياً لأن الحاسد يظلم المحسود جهده إراغة زوال نعمة الله عليه عنه» [د. جمال نجم، الإصابة بالعين: حقيقة أم وهم؟].

فليتحرر المسلمون إذن من هذه الأوهام والقيود التي تعيق حركتهم في الحياة، وتجعلهم رابضين في ذيل الأمم، غارقين في الخرافات والأوهام والهلوسات.

أما عن إيماننا بوجود الجن، فهذا مما لا نشك فيه، وقد وردت الآيات الكثيرة بذلك، كقوله تعالى: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا} (الجن: ١). وقوله: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} (الأنعام: ١٣٠)، وبينت أن منهم من آمن، ومنهم من كفر، وأنهم ليسوا على درجة

واحدة: {وَأَنَا مِنَ الصَّالِحِينَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَدًا} (الجن: ١١)،
ومنهم المسلمون ومنهم القاسطون: {وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ
فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا * وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا} (الجن: ١٤-١٥).

وَبَيَّنْتَ أَيْضًا اسْتِمَاعَهُم (الإنس والجن) ببعض (لا ندري كيف): {وَيَوْمَ
يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ
الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ
خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} (الأنعام: ١٢٨).

وَحَرَّمَ اللَّهُ تَعَالَى التَّجَاءَ الْإِنْسَانِ إِلَى الْجِنِّ، بَلْ إِنْ ذَلِكَ كَفَرَ بِاللَّهِ تَعَالَى؛ إِذْ لَا
يُلْتَجَأُ لغيره سبحانه. وقد أثبتت الآيات أن الجن لا يعلمون الغيب، لقوله سبحانه
في سورة الجن: {وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدَ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ
رَشَدًا} (الجن: ١٠). وقد وردت الاستعاذة من وسوستهم في سورة الناس:
{قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ
* الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ} (الناس: ١-٦).

والجن يرون البشر، ولكن البشر لا يرونهم: {إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ
لَا تَرَوْنَهُمْ} (الأعراف: ٢٧)، وهذا ما يجعل كل ما ينتشر بين العوام عن

ظهور الجن في هيئة إنسان أو حتى تلبس الجن للإنسان، كلها مخالفة لحقيقة ما جاء في كتاب الله.

وبالنسبة لمسّ الشيطان، فهو بمعنى ما يلقيه في الإنسان من الوسوس والخواطر الفاسدة، وليس هو بشيء مادي تستشعره حواس الإنسان كما قد يتصور البعض، ومثال ذلك قوله تعالى: {وَاذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ} (ص: ٤١)، وجاء في تفسيرها أقوال مختلفة، وهذا ما نميل إليه منها: «الشيطان لا قدرة له ألبتة على إيقاع الناس في الأمراض والآلام، والدليل عليه وجوه الأول: أنا لو جوزنا حصول الموت والحياة والصحة والمرض من الشيطان، ففعل الواحد منا إنما وجد الحياة بفعل الشيطان، ولعل كل ما حصل عندنا من الخيرات والسعادات، فقد حصل بفعل الشيطان، وحينئذٍ لا يكون لنا سبيل إلى أن نعرف أن معطي الحياة والموت والصحة والسقم، هو الله تعالى الثاني: أن الشيطان لو قدر على ذلك فلم لا يسعى في قتل الأنبياء والأولياء، ولم لا يخرب دورهم، ولم لا يقتل أولادكم الثالث: أنه تعالى حكى عن الشيطان أنه قال: {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِّنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي} (إبراهيم: ٢٢)، فصرح بأنه لا قدرة له في حق البشر إلا على إلقاء الوسوس والخواطر الفاسدة، وذلك يدل على قول من

يقول إن الشيطان هو الذي ألقاه في تلك الأمراض والآفات، فإن قال قائل: لم لا يجوز أن يقال إن الفاعل لهذه الأحوال هو الله تعالى لكن على وفق التماس الشيطان؟ قلنا فإذا كان لا بد من الاعتراف بأن خالق تلك الآلام والأسقام هو الله تعالى، فأى فائدة في جعل الشيطان واسطة في ذلك؟ بل الحق أن المراد من قوله: {إِنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ} أنه بسبب إلقاء الوسوس الفاسدة والخواطر الباطنة كان يلقيه في أنواع العذاب والعناء. [تفسير: مفاتيح الغيب للرازي].

وأخيراً، فيما يتعلق بما يُسمى بـ"الرقية الشرعية"، فإننا لا نعتبرها سوى دعاء لا أكثر، ولا تُغني عن اتخاذ الأسباب التي قدّرها الله.

وتلك الرقية أمرٌ يقوم به الإنسان لنفسه؛ فيدعو الله، وقد يتلو من الآيات ما تيسر، ولكن مع الأخذ بالأسباب والعمل بها، بطبيعة الحال. وتأمل قصة أيوب عليه السلام، لما نادى ربه قائلاً: {أَنِّي مَسْنِيَ الشَّيْطَانُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ} (ص: ٤١)، فماذا كان الجواب؟ {ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ} (ص: ٤٢).

فقد قدّر الله لكل شيء أسبابه، ولا تأتي النتائج دون العمل والأخذ بأسبابها. والدعاء من قدر الله، ولكنه سببٌ من الأسباب، لا السبب الأوحد.

ولا ينبغي للمؤمن الغوص في هذه المسائل والانجرار خلفها وتصديق كل ما يقال فيها، وبالتالي اتباع الدجاجة والمشعوذين الذين يصرفون الناس عن الحق ويستغلونهم ويدمرون حياتهم. فلنقف عند ما ورد في النص القرآني، ولا نزيد عليه، ولا نوغل في الأوهام حول مسائل من هذا النوع. الجن موجودون، نعم، هل هم سواء؟ لا، منهم المؤمن ومنهم الكافر. هل نستطيع رؤيتهم؟ لا. هل يعلمون الغيب؟ لا. هل لشياطين الجن سلطان على الناس وتأثير أكثر من الوسوسة والإغواء والتزيين؟ لا، اللهم إلا لمن تبع وساوسهم وسلم لها عقله ونفسه، ولن تؤدّي به إلا إلى ارتكاب شتى المحرمات والكفريات... إذن، فلا داعي لتخويف الناس بمسألة كهذه (السحر والعين والجن .. الخ)، وتعليقهم بها، وجعلها من كبرى القضايا التي تأخذ حيزاً في نفوس المسلمين وعقولهم وأوقاتهم، ولنتجّه بالجهود نحو ما فيه الخير والنفع للمسلمين والبشرية جمعاء.

عودة المسيح

أما في هذه القضية؛ أعني قضية عودة المسيح عليه السلام في آخر الزمان (أو المهدي كذلك)، فهي مما لا تؤمن به، ولا نعدّها إلا خرافة كبقية الخرافات التي تشيع في المجتمعات التي تدّعي الإسلام، وهي جاهلة به بعيدة عنه. ولأهمية هذه المسألة، ولأننا نعتبر هذين الرأيين اللذين سنوردهما هما الأقرب لروح القرآن وتعاليمه؛ اقتبست اقتباساً مطوّلاً من دراسة مقارنة أعدّها الباحث أحمد النجبا في موقع الأستاذ سامر إسلامبولي؛ قارن فيها بين مواقف كلّ من عدنان الرفاعي وإسلامبولي وعدنان إبراهيم من هذه القضية الجدّ هامة والجدّ حساسة، وسوف آتي هنا بما عرضه لموقفي كلّ من سامر إسلامبولي وعدنان إبراهيم، وسوف نغض الطرف عن موقف الرفاعي لعدم أهميته وخرافيته وبعده عن روح المنهج القرآني العلمي في البحث، ولا سيما في قضية كهذه. والاقْتباس كالتالي: «مبحث نزول المسيح هو من أخطر مباحث الإيمان عند المسلمين كافة برأبي لما له من تبعات وخيمة على العقل الجمعي المسلم، ولذا؛ لا بد من الوقوف الدقيق على هذا المبحث قرآنيّاً لهذا أعرض دراسة مقارنة

مختصرة عن نزول المسيح بين عدنان الرفاعي وسامر إسلامبولي وعدنان إبراهيم.

ولعل أهم النصوص التي تتمحور حول قضية المسيح وادعاء نزوله في آخر الزمان هي التالية: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَتْوًىكِ وَرَافِعُكِ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكِ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} (آل عمران: ٥٥)، {وَأَنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} (النساء: ١٥٩)، {وَأَنَّهُ لَعَلَّكُمْ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرْنَ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} (الزخرف: ٦١). (...).

- رؤية (سامر إسلامبولي) لنزول المسيح:

خلص إلى أن نزول المسيح دعوى باطلة وأن عيسى عليه السلام مات كما مات كل النبيين والرسل قبله ولن يعود مجدداً إطلاقاً، وعدّ أن مفهوم الرجعة للمسيح أو شبيهه أو المخلص هو مفهوم تراثي دخيل من اليهود والنصارى وهو موغل في تراث البشرية نتيجة الضعف والانهازمية والاستعباد والخنوع للناس. ذهب (إسلامبولي) في بحثه المفصل إلى دراسة الكليات أولاً للانطلاق في تكوين مفهوم حول تفاصيل حياة ومات المسيح ابن مريم ومنها، وبعد تحديد وضبط الرؤية الكلية، وقف على البحث في تفاصيل الآيات التي استدل بها

الرفاعي للقول بنزول المسيح آخر الزمان فقام بتنفيذها وبينها على ضوء القراءة الكلية لنصوص التنزيل التي أتت على ذكر المسيح ابن مريم.

ينطلق (إسلامبولي) من عدة نقاط في استحالة القول بعودة المسيح آخر الزمان وسأذكر أهمها من وجهة نظري:

أولاً.. فكرة عودة المسيح آخر الزمان وإيمان الناس به من جديد هي فكرة تتعارض بشكل صارخ مع ختم نبوة محمد عليه الصلاة والسلام.. فالتنزيل الحكيم أكد بدلالة قطعية أن محمد (ص) هو خاتم النبيين ولا نبي بعده.. وما القول بعودة المسيح إلا نقض صريح للنبوة الخاتمة المتمثلة بشخص النبي محمد عليه الصلاة والسلام.

ثانياً.. المنطق القرآني الصريح القطعي الذي يدل في أكثر من موضع أن النبيين والرسل ما هم إلا بشر قد خلت من قبل النبي محمد وهي دلالة قطعية على أن كل النبيين قد أتموا ما عليهم ومن ثم توفاهم الله ولا خلود دنيوي لأحد كما تفرض عليهم سنة الله في البشر وليس المسيح مستثنى من هذه القطعية الإلهية... {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} (آل عمران: ١٤٤)، و المسيح وأمه مريم عليهما السلام ما كانا

بدع من البشر وانما كانا يأكلان الطعام كدلالة على بشرية تكوينهم الفيزيولوجي وأنهما بشر لا يمتازان عن غيرهم من الناحية الفيزيولوجية: {مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} (المائدة: ٧٥).

وهنا يمكن إيراد تفنيد إسلامبولي لفهم الآيات التي استدل بها الرفاعي:

يرى الرفاعي أدلة على نزول المسيح في قوله تعالى: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اذْهَبْ إِلَى الْيَهُودِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا كُنْتَ عَلَيْهِمْ نَذِيرًا وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ إِنَّكَ أَهْلٌ بِالنَّظَرِ} (آل عمران: ٥٥)، يرى الإسلامبولي أن مفهوم الوفاة هو باختصار استرجاع النفس إلى بارئها فهي وفاة منتبهة بموت فعلي وليس بصورة النوم، فالوفاة عند إسلامبولي لها عدة صور قرآنيًا ولكن هنا سأورد تمييزه بين الوفاة والموت خصوصاً لتعلقها الجوهري في بحث نزول المسيح..

الوفاة لسانياً هو الإرجاع الكامل للشيء.. فوفاة النفس لها صورتين قرآنيًا.. وفاة الموت ووفاة النوم {اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فِيمَا نُفِثَ مِنْهَا النَّفْسُ عَلَى الْمَوْتِ وَيُرْسِلُ الْأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} (الزمر: ٤٢)، ولكن الموت كلفظ لساني لا يترادف

من حيث المفهوم الأصل مع لفظ الوفاة، فليس كل وفاة موت، حيث الوفاة يمكن أن تعني قبض النفس أثناء النوم ولا علاقة للهوت هنا. وليس كل موت وفاة فالبهائم تموت أو الأرض تموت ولا تتوفى لأن الوفاة متعلقة فقط بالأنفس أما البهائم فهي تموت ولا تتوفى أي تهلك... فالموت يكون في هلاك الجسد الذي لم يعد صالح لحمل النفس فيفنى ويتحلل إلى عناصره الأولى وتستوفى النفس إلى بارئها...وهنا يخلص إلا أن الوفاة عندما تتعلق في نفس المسيح تدل على موته الفعلي في الحياة الدنيا دون رجعة واستيفاء النفس لترجع لربها لغياب أي قرينة تصرف الوفاة المتعلقة بالموت في النص إلى الوفاة المتعلقة بالنوم.

أما الرفع في قوله "ورافعك إليّ" .. لا تعني رفع المسيح المكاني إطلاقاً، فالقول بالرفع المكاني هو وقوع في فخ التجسيم لذات الله تعالى فالله منزّه عن التوضع في مكان ... ولا يخضع الله تعالى أصلاً لبعدي الزمان والمكان فهو خارج الزمكان فمن يقول إن الرفع مكاني فهو قول صريح أو ضمني بالتجسيم ... وأما رفع المسيح فهو يتبين في دراسة معنى الرفع قرآنياً حيث يظهر جلياً أن الرفع يأتي بمعنى رفع مكانة ومقام وليس رفعاً مادياً مكانياً كما ذهب المفسرون في حين أن لفظ السماء لم يرد أصلاً في نص الرفع ولكنه اعتبار ظني منهم لما

فهموه من لفظ الرفع...! {وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَشَبَّهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (الأعراف: ١٧٦)، {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} (الأنعام: ١٦٥)، {وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ} (الشرح: ٤)، فرفع المسيح هو رفع درجات وقيمة ونجاة من اليهود وليس رفعاً مادياً نهائياً.. ويؤكد إسلامبولي هذا من الآية أدناه {وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا} (النساء: ١٥٧)، {بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} (النساء: ١٥٨)، فمن الملاحظ ورود لفظ الرفع لعيسى في سياق الرد على من يدعي أنه قتل، ولم تذكر الوفاة إطلاقاً...! مما يدل على أن الرفع مقصود به الإنقاذ من كيد اليهود لا الرفع المكاني...!

ولفظ (إلي) لا يدل على الوجهة المكانية أيضاً.. فهو ليس انتقال من وإلى، فوجود الله مغاير لوجود خلقه وهو لا يخضع لقوانينهم الدنيوية... واستدل بالآيات أدناه كبرهان على نفي المكانية عن الله في قوله تعالى {إني رافعك إلي}،

{ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ.. } (فاطر: ١٠)، { قَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيِّدِينَ } (الصفات: ٩٩)، { وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ } (البقرة: ٢٨١).

أما عن صياغة الآية وترتيب التعهدات الإلهية فيها (متوفيك.. رافعك.. مطهرك) والتي أشكل ظاهرها على أغلب المؤمنين بعودة المسيح. والتي يرى أصحاب القول فيها دلالة على أن المسيح سيعود مجدداً لخصوصية هذه الصياغة...يقول (إسلامبولي): إن الواو لا تفيد الترتيب فالوفاة والرفع والطهارة لا يلزم منها الترتيب بوجود حرف الواو بين هذه الأفعال الإلهية التي تعهد الله بها لنبيه.. والواو تفيد أيضاً مجرد التعداد، وتقديم وتأخير الألفاظ بحسب الأولوية التي تقتضيها الحالة التي يتم فيها الخطاب والتي تقتضيها حالة المخاطب.

فاقتضى في الظرف أو الواقع الحرج من تدبير لقتل المسيح، تقديم التعهد الإلهي بوفاته على الرفع والطهارة لأن تعهد الله بوفاة عيسى هو تأكيد على نفي إمكانية القتل له وأنه سيتوفى كما أوحى إليه ربه... فقول الله "إني متوفيك" مقصدها أنك لن تقتل مهما كادوا لك وأن الله ينزهك أيها النبي من القتل الذي يدبر لك ويعصمك من الناس. فاقضى الظرف الابتداء بتعهد الله لنبيه بحفظه

والعناية به ، وبعده أتى التعهد بالرفع لمكانة النبي فالتعهد بالرفع اليه إنما هو تأكيد على إنقاذه من مكر اليهود له وإيمان آخرون به وبرسالته واتباعه وحمل دعوته ورسالته من بعد وفاته أيضاً... وتطهيره في الدنيا من أي أذى مادي يمكن أن يلحق به أو أذى نفسي حتى .

أما عن قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا} (النساء: ١٥٩) ، يقول (إسلامبولي): إن تحديد دلالة (إن.. من... إلا) لا يمكن أن يتم بمعزل عن فهم الكليات المتعلقة بالآية وفهم محل ارتباط الآية ذاتها في الواقع والتي يمكن بعدها تحديد دلالة الأحرف تلك... ويرى (إسلامبولي): (إن) ليست النافية وإنما هي (إن) المخففة من (أن)، و(من) هنا تبعية وليست بيانية كما في قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} (آل عمران: ١٩٩) ، أما (إلا) فهي ليست للحصر وإنما للتوكيد كما في قوله تعالى: {إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ} (الشعراء: ١١٥) ، (إن) في هذه الآية ليست نافية و(إلا) لا تفيد الحصر، فالنبي لا تقتصر دعوته على الإنذار فقط بدليل قوله تعالى في موضع آخر: {قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ

كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَأَسْتَكْثِرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ { (الأعراف: ١٨٨). هنا نرى أن النبي لا تقتصر دعوته على الإنذار فقط مما يعني إن (إلا) لا تفيد الحصر هنا وإنما هي للتوكيد و(إن) ليست نافية وإنما هي المخففة من (إن). ونفهم من إسلامبولي أن قوله تعالى: (وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ..) تعني إن بعض أهل الكتاب لا بد أنهم سيؤمنون به قبل موته للمسيح..

في حين أن باب التدبر يترك مفتوحاً في تبيان عائدة الضمائر في هذه الآية في كونها تخص النبي عيسى أم محمد عليهما السلام... رغم أن إسلامبولي قد رجع عائدة الضمائر للنبي محمد مستعيناً بسياق النصوص، كما أنه أرجع ضمير الهاء في نص {وَأَنَّهُ لَعَلَّكُمْ لِلْسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} (الزخرف: ٦١)، إلى القرآن حسب سياق السورة كلها من بدايتها وإلى ما قبل هذا النص فالقرآن هو العلم للساعة.

- رؤية (عدنان إبراهيم) بشكل مختصر:

رؤية عدنان إبراهيم لا تختلف عما خلص إليه إسلامبولي، بل إن هنالك تقاطعات كثيرة في تفنيد الآيات وتحليلها... ما خلص إليه الدكتور عدنان: إن المسيح لن يعود آخر الزمان، وما نزوله إلا فرية كبيرة، أصلها يهودي من حيث

إيمانهم بعودة المخلص آخر الزمان (وهو ليس المسيح عيسى بالتأكيد، بل مخلصهم هم)، ومنه بُنيت العقيدة النصرانية برفع المسيح نفساً وبدناً حتى عودته في الألفية السعيدة، ويتضح أصل هذه العقيدة اليهودية في سفر إشعياء، الإصحاح الحادي عشر، والتي تتطابق تماماً مع حديث لأبي هريرة في هذا الباب، كون الكفار سيُقتلون بأنفاس المسيح آخر الزمان...!

أما في تبيان "إني متوفيك ورافعك إلي"، فهو قارب تماماً ما خلص إليه إسلامبولي، فقال: إن الوفاة هي موت فعلي للمسيح، تعهده الله في موضع وحققه في آخر من كتابه، كما تعهد الرفع وحققه؛ فهنا كان وعد الله لوفاته ورفعه {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ مَتَوَفَّيْكَ وَارْفَعْكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} (آل عمران: ٥٥)، -وهنا تحقق هذا التعهد بوفاة المسيح وانتهاء شهادته في قومه تماماً.. {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} (المائدة: ١١٧)، وهنا تحقق الرفع للمسيح الذي هو خلاصه من مكر اليهود لقتله.. {قَوْلُهُمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ

الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا * بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا { (النساء: ١٥٧-١٥٨)، أما في قوله تعالى: {وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِدًا} (النساء: ١٥٩)، فقد رد على مدعي نزول المسيح بأن الآية واضحة من سياقها أنها تخص عموم أهل الكتاب فهو يرى هنا (إن) نافية و(من) بيانية أي ما من أحد من أهل الكتاب إلا (إلا هنا للحصر) ليؤمن بعيسى... ولكنه يقول: إن عائديه الضمير في قوله تعالى (قبل موته) تعود على كل فرد من أهل الكتاب وليس على المسيح.. أي قبل موت الكتّابي سيؤمن بالنبي عيسى، ولكنه غالباً إيمان لا ينفع كإيمان فرعون عندما أدركه الغرق.. مما يعني أن الآية لا تعني إيماناً سليماً يفيد الثواب لكل كتّابي عرف المسيح بل إن منهم كثير من سيخلص إلى الاعتراف بنبوته ورسالته من اليهود ولكن بعد فوات الأوان، وليس المعنى أن كل كتّابي سيصير مؤمناً بعيسى ونبوته إيماناً سليماً تماماً... فالإيمان لا ينفع دوماً كما في قوله تعالى: {فَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ نَفْعٌ مِنْهُ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ..} (غافر: ٨٥). أما في قوله تعالى: {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} (الزخرف: ٦١)، فيرى عدنان إبراهيم أن عائدية الهاء في

"وإنه" ليست للمسيح بل هي للقرآن، أي إن نزول القرآن هو علم للساعة. ويزيد فيقول: إن كل الضمائر التي وردت بهذه الصياغة من أول سورة الزخرف تدل على القرآن الذي نزل على الرسول محمد عليه الصلاة والسلام: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (الزخرف: ٣)، {وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلٌّ حَكِيمٌ} (الزخرف: ٤)، {وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ} (الزخرف: ٤٤)، {وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَاتَّبِعُونِ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ} (الزخرف: ٦١) « انتهى النقل.

موقفنا من أحداث التاريخ وخلافات الصحابة، وعدالتهم

خير ما يساق في هذا الموضوع هو قوله تبارك وتعالى: {تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (البقرة: ١٣٤). فلا نميل للإغراق في أحداث الماضي وخلافاته، ولا نبني عليها شيئاً من عقيدتنا؛ اللهم إلا على سبيل النظر التاريخي والاعتبار بما حصل في الماضي، كي لا يتكرر في المستقبل. على أننا نقر أيضاً -ولا ننفي ذلك- بأن أول انحراف حقيقي وقع بعد وفاة النبي الأكرم هو يوم قيل: "إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش"، فعادت العصبية الجاهلية جذعةً عند تلك اللحظة، وكأن محمداً عليه الصلاة والسلام لم يبعث!!!!

فكان التراجع والتقهقر عما حققته الثورة النبوية الإسلامية بقيادة الرسول الخاتم من مكتسبات إنسانية عالمية. فالشورى التي كانت في عهده (ص) قائمة على أساس المساواة بين المسلمين، دونما تفريق على أي أساس عرقي أو لغوي أو قبلي أو غيره؛ تحولت إلى حكم قبلي عصبي عنصري ضيق، ثم استمر الأمر في

الانحدار والانحطاط والفساد، حتى أعلنها معاوية الطليق ابن الطليق صراحة: إن الحكم ملك وراثي، ولا شورى بعد شورى النبي، مستكبراً على شريعة الله، كافراً بها وبجاملها، عليه صلوات ربي وسلامه وتبريكاته إلى أبد الآبدين. ولم يتوقف الانحدار والتراجع والتقهقر والبعد عن دين الله، -بل والكفر به- عند ذلك الحد، بل استمر إلى يومنا المعاصر. حتى غابت الشورى نهائياً، وأُفرغت من محتواها كلياً؛ إلى درجة أن الواحد منا عندما يدعو إلى تحقيق الشورى في الأمة المسلمة، يقابل بالاستنكار والاستغراب، بين من يقول: ها هي ذي معمول بها، فلم تطالب بما هو موجود بالفعل؟ معتبرين مجالس الطواغيت التي تتم بالتعيين "ممارسة وتطبيقاً للشورى القرآنية"، أو يقول: أنت تدعو "لأفكار غريبة"!!! وقد قيل لي ذلك مؤخراً من أحد المسعودين!!! فالله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا به.

والتحريف والكفر بشرائع الإسلام لم يتوقف عند الشورى، بل ابتدأ بها، وطال معظم الشريعة، حتى أصبحت حرباً صريحة عليها. ولولا أن الله قد تعهد بحفظ كتابه الحاوي لشريعته، لما بقي منها شيء، ولأصبحت في خبر كان.

وأما موقفنا من مسألة عدالة الصحابة، فيبدو واضحاً بعد ما تقدم؛ لا نقول بإطلاق عدالتهم، فيهم السابقون الصادقون، وفيهم المنافقون الذين مردوا على

النفاق (والنبي لم يكن يعلمهم)، يُعَذَّبُونَ مرتين ثم يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ،
 وفيهم من اعترفوا بذنوبهم، خلطوا عملاً صالحاً بأخر سيئاً، أمرهم إلى الله،
 عسى أن يتوب عليهم، وآخرون مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ، إما يعذبهم وإما يتوب
 عليهم، والله هو العليم بهم، الحكيم في قضائه، إلخ. ولنتأمل هذه الآيات:
 {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ أُولَئِكَ الْمُقَدَّمُونَ يُوقَفُونَ يَوْمَئِذٍ بِالنَّاصِرِ وَالَّذِينَ تَبِعُوا سَبِيلَهُمْ لَا يَخَافُونَ فِيهِمْ إِذَا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} ^{١٠٠}
 عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ
 الْفَوْزُ الْعَظِيمُ * وَمِنَ حَوْلِكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُّوا
 عَلَى النِّفَاقِ لَا يَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ
 * وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ
 عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ * خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ
 عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ
 التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * وَقُلِ اعْمَلُوا
 فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ
 فَيُنِصِّكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ * وَآخَرُونَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ
 عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ { [التوبة: ١٠٠-١٠٦].

لذا فإننا لا نقر بعقيدة «عدالة الصحابة»، ولا نقبلها، ولا عقيدة «عصمة الأئمة» لدى الشيعة. فلا أولئك بعدول كلهم، ولا للأئمة عصمة أصلاً؛ وهنا موقفنا واضح أيضاً من هذه الفكرة الشيطانية (أي فكرة عصمة الأئمة) التي تدعي أن لغير الرسول عصمة، بحيث يقولون إنهم لا يخطئون ولا يزلّون، كيف ذلك والنبي نفسه يخطئ ويصيب في غير الوحي؟! بل وتجدهم يأخذون نصوص أئمتهم ويتعاملون معها كما لو أنها نصوص منزلة من عند رب العالمين، نسأل الله السلامة والهداية والعافية للجميع.

الولاء والبراء

قال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} (المائدة: ٥٥)، «والولي هنا النصير الموالي، وولي الأمر الكلي الحامي، والأنيس الذي يرجى في الشدائد، ويرجع إليه في الكروب، والملجأ والمعاذ. وقد قُصرت الولاية على هؤلاء بأداة القصر «إنما»، والمعنى أن الله تعالى ورسوله والمؤمنين الصادقين في إيمانهم، الذين لم يعترهم زيغ ولا ضعف، ولا استخذاء واستكانة للذل، واستسلام للأعداء، لا ولي للمؤمن غير هؤلاء. فلا يصح للمؤمن أن يطلب بأي صورة النصرة من غيرهم، لأن قلوبهم مهما كانت مطوية على ضغن شديد وحقد مستمكن، وهم لا يريدون بالإسلام وأهله إلا الهوان، بل الفناء.

وفي هذا النص عبرة للمعتبرين الذين يرتمون في أحضان أعداء الإسلام، ويوالونهم، وهم الذين يؤذون المسلمين، ويخرجونهم من ديارهم، ويظاهرون على إخراجهم. والنبي عليه السلام يقول: (المسلم أخو المسلم لا يحقره، ولا يظلمه، ولا يسلمه، ولا يخذله).

(الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راکعون) هذه أوصاف المؤمنين الجديرين بأن يكونوا مع الله ورسوله في ولاية المؤمنين، وقد ذكرت لهم أوصافاً ثلاثة، كل واحد منها يوصل إلى معنى اجتماعي يدخل في تكوين الجماعة الربانية التي لا تعمل إلا لله، ولا تقوم إلا له:

• الوصف الأول: إقامة الصلاة، أي أدائها مقومة كاملة لا اعوجاج فيها، لتؤدي غايتها وهي تربية الوجدان الاجتماعي الذي يكون معه الإيثار والسيطرة على الأهواء المردية المخزية، وهي الصلاة التي قال الله تبارك وتعالى فيها: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ..} (العنكبوت: ٤٥).

• الوصف الثاني: أنهم يؤتون الزكاة، أي يعطونها سمحة بها نفوسهم، راضية بعطائها قلوبهم، يحسبون أن عطاءها مغنم لا مغرم، وذلك هو التعاون المادي المنبعث من القلب. وإذا كانت الصلاة مبعث التآلف الروحي، فالزكاة مظهر التعاون المادي الخالص.

• الوصف الثالث: ذكره سبحانه وتعالى بقوله: (وهم راکعون).

لقد قال كثير من المفسرين إن هذه الجملة حالية من قوله تعالى: (ويؤتون الزكاة)، أي أن إعطاء الزكاة يكون في حال الركوع، ويقولون إن سبب ذكر ذلك أن إمام الهدى علياً أعطى صدقة وهو راکع، ولا نرى ذلك؛ لأن ذلك

قطع للصلاة وانصراف عنها، ولا يكون ذلك من على كرم الله وجهه. وثانيا: أن اللفظ، ومؤدى ذلك أنه يكون محمودا من المؤمنين أن يؤدوا زكواتهم وهم يركعون ركوع الصلاة.

والذي نراه أن الركوع هنا ليس هو ركوع الصلاة المفروضة، إنما هو الخضوع المطلق لله تعالى في كل أعمالهم، في مصانعهم، ومتاجرهم، ومزارعهم، وسياساتهم، بحيث يكون كل شيء لله تعالى، ويتحقق فيهم قول النبي عليه الصلاة والسلام: (لا يؤمن أحدكم حتى يحب الشيء لا يحبه إلا لله).

جاء في مفردات الأصفهاني ما نصه: والركوع يطلق بمعنى الخضوع لله. الركوع: الانحناء، فتارة في الهيئة المخصوصة في الصلاة كما هي، وتارة في التواضع والتذلل، وإما في غيره. والله أعلم» [محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير، المائدة (٥٥)].

وقال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ} (المائدة: ٥٦). «الحزب معناه: الجمع المتضافر المتآزر القوي الذي يمانع ويقاوم، سواء أكان في الخير أم كان في الشر، وحزب الله تعالى حزب الخير، ولا خير أعلى مما يجتمع عليه. ومعنى النص الكريم: من يجعل نصرته من الله

ورسوله وولاءه لهما، وأمره إليهما، فإنه سيكون حزب الله المتضافر على الخير،
وسيكون هو الغالب إن شاء الله.

وهنا إشارتان بيانيتان ننوه عنهما:

إحداهما - أن قوله تعالى: (فإن حزب الله هم الغالبون) يومئ إلى مقدر محذوف
من القول يُبين في المعنى، وهو أن الذي يتولى الله ورسوله يكون من حزب الله
القوي المتضافر على الخير، وإن حزب الله وجماعته هم الغالبون.

الثانية - أنه في قوله: (فإن حزب الله) لم يذكر اسم الرسول - صلى الله عليه وسلم
-، وفي ذلك إشارة إلى أن الرسول لا يعمل إلا بأمر من الله، فيكتفى هنا بذكر
الله؛ لأنه المسيطر الغالب القاهر فوق عباده» [محمد أبو زهرة، زهرة التفاسير].

ويقول تعالى: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيَحْذَرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى
اللَّهِ الْمَصِيرُ} (آل عمران: ٢٨)، «ينهى الله المؤمنين أن يتخذوا الكافرين أولياء
بالحبة والنصرة من دون المؤمنين، ومن يتولهم فقد برئ من الله، والله بريء
منه، إلا أن تكونوا ضعافاً خائفين، فقد رخص الله لكم في مهادنتهم اتقاءً
لشرهم حتى تقوى شوكتكم، ويحذركم الله نفسه، فاتقوه وخافوه. وإلى الله
وحده رجوع الخلائق للحساب والجزاء» [التفسير الميسر].

وقال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} (التوبة: ٧١). هم المؤمنون والمؤمنات حقاً، الذين صدّقوا إيمانهم بالعمل بشرع الله، فأمرُوا بالمعروف وتناهوا عن المنكر وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطاعوا الله ورسوله، فقاموا بالقسط وأحسنوا ولم يظلموا أو يفسدوا.

أما من يدّعي الإيمان بلسانه دون أن ينعكس ذلك على سلوكاته فليس هو المقصود حتماً بوصف الإيمان!

نقول هذا لبيان أن ليس كل من ادّعى الإيمان وهو ظالم ومعتدٍ جازت موالاته؛ إذ لا ولائاً ولا محبةً للظالمين أيضاً، يقول الله تعالى: {وَأَنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ} (الجنّة: ١٩)، {وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} (البقرة: ١٩٠)، وقوله: {وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ} (هود: ١١٣)، «قال ابن عباس: معنى الركون الميل. وقال السدي وابن زيد: لا تداهنوا الظلمة. وقال قتادة: لا تلحقوا بهم. وقال سفيان: لا تدنوا إلى الذين ظلموا. وقال أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم، وقيل: لا تجالسوهم.. وتأمل قوله: ولا تركنوا، فإن الركون

هو الميل اليسير. وقوله: إلى الذين ظلموا، أي الذين وجد منهم الظلم، ولم يقل الظالمين، قاله الزمخشري.

وقال ابن عطية: ومعناه السكون إلى الشيء والرضا به. قال أبو العالية: الركون الرضا. وسئل سفيان الثوري عن ظالم أشرف على الهلاك في برية: هل يُسقى شربة ماء؟ فقال: لا. فقيل له: يموت، فقال: دعه يموت. وفي الحديث: (من دعا لظالم بالبقاء فقد أحب أن يعصى الله في أرضه) «[البحر المحيط].

البراء وأشكاله:

التبرؤ من الكفر وأهله يأخذ أشكالا متعددة، منها:

• التبرؤ القلبي: وهو بغض الكفر والكافرين، وعداوة ما هم عليه من باطل.

قال تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيَدْخُلُهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (المجادلة: ٢٢). ولا أوضح من هكذا بيان في منزلة الإيمان ومكانته في صدور الذين آمنوا حقاً وصدقوا إيمانهم ذاك اتباعاً وعملاً بما أنزله الله على

رسوله في كتابه العزيز. ولا يجتمع بحال أن يؤمن بالله ورسوله أحد وفي قلبه ذرة ميل للذين يحادون الله ورسوله، ولو كانوا أقرب الأقربين لهم، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوتهم أو عشيرتهم.. كل هذه الأواصر تنقطع وتتلاشى أمام آصرة الإيمان بالله تبارك وتعالى وبجامل ومبلغ رسالته.. هذا هو دين الله، وهذا هو انتماء المسلم الأول والأخير، وهكذا تتشكل هويته بحق.

لا شيء مقدم على الله ورسوله: لا الأهل، ولا الوطن، ولا النفس، ولا المال، ولا المتاع.. فمن تحققت فيهم تلكم الصفات فهم المؤمنون حقاً، وهم حزب الله، ومصيرهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ورضي الله عنهم ورضوا عنه، وأولئك هم المفلحون.

يقول سيد رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه، وما يجمع إنسان في قلب واحد ودين: ودّاً لله ورسوله وودّاً لأعداء الله ورسوله! فإما إيمان أو لا إيمان. أما هما معاً فلا يجتمعان. {وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ}.. فروابط الدم والقرباة هذه تنقطع عند حد الإيمان: إنها يمكن أن ترعى إذا لم تكن هناك محادة وخصومة بين اللوائين: لواء الله ولواء الشيطان. والصحبة بالمعروف للوالدين المشركين مأمور بها حين لا تكون هناك حرب بين حزب الله وحزب الشيطان. فأما إذا كانت المحادة

والمشاقة والحرب والخصومة فقد تقطعت تلك الأواصر التي لا ترتبط بالعروة الواحدة وبالجليل الواحد. ولقد قتل أبو عبيدة أباه في يوم بدر. وهم الصديق أبو بكر بقتل ولده عبد الرحمن. وقتل مصعب بن عمير أخاه عبيد بن عمير. وقتل عمر وحمزة وعلي وعبيدة والحارث أقرباءهم وعشيرتهم (قتل رد ودفع لا قتل ابتداء وعدوان). متجردين من علائق الدم والقرابة إلى آصرة الدين والعقيدة. وكان هذا أبلغ ما ارتقى إليه تصور الروابط والقيم في ميزان الله {أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ} [في ظلال القرآن].

وقال تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} (الممتحنة: ٤).

«ثم تأتي هذه الجولة فتصل المسلمين بأول هذه الأمة الواحدة: أمة التوحيد. وهذه القافلة الواحدة: قافلة الإيمان. فإذا هي ممتدة في الزمان، متميزة بالإيمان، متبرئة من كل وشيعة تنافي وشيعة العقيدة. إنها الأمة الممتدة منذ إبراهيم، أبيهم الأول وصاحب الحنيفية الأولى. وفيه أسوة لا في العقيدة

وحدها، بل كذلك في السيرة، وفي التجارب التي عاناها مع عاطفة القرابة ووشائجها، ثم خلع منها هو ومن آمن معه وتجرد لعقيدته وحدها. وينظر المسلم فإذا له نسب عريق، وماض طويل، وأسوة ممتدة على آمد الزمان، وإذا هو راجع إلى إبراهيم، لا في عقيدته فحسب، بل في تجاربه التي عاناها كذلك. فيشعر أن له رصيلاً من التجارب أكبر من رصيده الشخصي وأكبر من رصيده جيله الذي يعيش فيه.

إن هذه القافلة الممتدة في شعاب الزمان من المؤمنين بدين الله، الواقفين تحت راية الله، قد مرت بمثل ما يمر به، وقد انتهت في تجربتها إلى قرار اتخذته. فليس الأمر جديداً ولا مبتدعاً ولا تكليفاً يشق على المؤمنين.

ثم إن له لأمة طويلة عريضة يلتقي معها في العقيدة ويرجع إليها، إذا انبتت الروابط بينه وبين أعداء عقيدته. فهو فرع من شجرة ضخمة باسقة عميقة الجذور كثيرة الفروع وارفة الظلال، الشجرة التي غرسها أول المسلمون، إبراهيم. مر إبراهيم والذين معه بالتجربة التي يعانها المسلمون المهاجرون. وفيهم أسوة حسنة: {إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ}. فهي البراءة من القوم ومعبوداتهم وعباداتهم. وهو الكفر بهم والإيمان بالله. وهي العداوة والبغضاء

لا تنقطع حتى يؤمن القوم بالله وحده. وهي المفاصلة الحاسمة الجازمة التي لا تستبقي شيئاً من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الإيمان.

وفي هذا الفصل الخطاب في مثل هذه التجربة التي يمر بها المؤمن في أي جيل. وفي قرار إبراهيم والذين معه أسوة لخلفائهم من المسلمين إلى يوم الدين. ولقد كان بعض المسلمين يجد في استغفار إبراهيم لأبيه وهو مشرك ثغرة تنفذ منها عواطفهم الحبيسة ومشاعرهم الموصولة بذوي قرباهم من المشركين. فجاء القرآن ليشرح لهم حقيقة موقف إبراهيم في قوله لأبيه: {لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ}، فلقد قال هذا قبل أن يستيقن من إصرار أبيه على الشرك. قاله وهو يرجو إيمانه ويتوقعه: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}. كما جاء في سورة أخرى (التوبة: ١١٤). ويثبت هنا أن إبراهيم فوض الأمر كله لله، وتوجه إليه بالتوكل والإنابة والرجوع إليه على كل حال: {وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}. وهذا التسليم المطلق لله، هو السمة الإيمانية الواضحة في إبراهيم، يبرزها هنا ليوجه إليها قلوب أبنائه المسلمين، كحلقة من حلقات التربية والتوجيه بالقصص والتعقيب عليه، وإبراز ما في ثناياه من ملاحم وسمات وتوجيهات على طريقة القرآن الكريم» [في ظلال القرآن].

• عدم نصرتهم في عدوانهم على المسلمين:

وهذا يمثل الحد الأدنى لمفهوم البراء، فلا يجوز لإنسان يقول إنه مسلم أن يعاون الكفار المحاربين في عدوانهم على المسلمين بأي شكل على الإطلاق.

قال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُؤًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ كُنتُم مُّؤْمِنِينَ} (المائدة: ٥٧)، «يا أيها الذين آمنوا، لا تتخذوا أعداء الإسلام الذين اتخذوا دينكم سخرية ولهو - وهم اليهود والنصارى والمشركون - نصراء، ولا تجعلوا ولايتكم لهم، وخافوا الله إن كنتم صادقين في إيمانكم» [المنتخب في تفسير القرآن].

وقال سبحانه: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} (المائدة: ٥١).

وهناك من يقطع نصاً من آية من نفس السورة جاء فيها قوله تعالى: {وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى...}، ثم يتوقف هنا ويسكت محاولاً التلبس والتلاعب بدلالات الآيات الواضحات، ثم يعتقد بعد ذلك أن هناك تعارضاً بين الأولى التي تنهى عن تولي اليهود والنصارى، والثانية التي

اقتطعوها ليوهموا أنفسهم أنها تدعو ليس لتولي النصارى بل لمودتهم وأنهم الأكثر قرباً للذين آمنوا.. وهذا افتراء على كتاب الله وأسلوب شيطاني في التعامل معه.

ولو أنهم لم يقتطعوا الآية لتبين من هم المقصودون بالتعيين في الآية والآيات التي تلتها، يقول عز من قائل: {لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ} (المائدة: ٨٢)، لقد بين الله حال الفئة الأقرب للذين آمنوا وبين سبب وصفها بذلك، فقال: {ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قِسِيَسِينَ وَرُهَبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ}.

ثم يكمل وصف هذه الفئة بالذات في الآيات التي تليها: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ * وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَنْ يُدْخِلَنَا رَبَّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ * فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} (المائدة: ٨٣-٨٦)، لتكتمل الصورة كما أرادها الله تبارك وتعالى. فالذين وصفهم بأنهم أقرب للذين آمنوا هم فئة بعينها خضعت للحق

وَأَمَنْتَ بِهِ وَلَمْ تَكْذِبْ بِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ خَتَمَ بَعْدَ كُلِّ ذَلِكَ بِإِثْبَاتِ كُفْرٍ مِنْ لَيْسَ ضَمْنِ تِلْكَ الْفِتْنَةِ، وَبِأَنَّ مُصِيرَهُمُ الْجَحِيمُ عِيَاذًا بِاللَّهِ: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ}.

يقول سيد رحمه الله في تفسيره: «إن هذه الآيات تصور حالة، وتقرر حكماً في هذه الحالة. تصور حالة فريق من أتباع عيسى - عليه السلام -: (الذين قالوا: إنا نصارى)، وتقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا.

ومع أن متابعة مجموع الآيات لا تدع مجالاً للشك في أنها تصور حالة معينة، هي التي ينطبق عليها هذا التقرير المعين، فإن الكثيرين يخطئون فهم مدلولها، ويجعلون منها مادة للتميع المؤذي في تقدير المسلمين لموقفهم من المعسكرات المختلفة، وموقف هذه المعسكرات منهم.

لذلك نجد من الضروري - في ظلال القرآن - أن نتابع بالدقة تصوير هذه الآيات لهذه الحالة الخاصة التي ينطبق عليها ذلك الحكم الخاص: إن الحالة التي تصورها هذه الآيات هي حالة فئة من الناس، قالوا: إنا نصارى، هم أقرب مودة للذين آمنوا: (ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون).

فمنهم من يعرفون حقيقة دين النصارى فلا يستكبرون على الحق حين يتبين لهم.

ولكن السياق القرآني لا يقف عند هذا الحد، ولا يدع الأمر مجهلاً ومعمماً على كل من قالوا: إنا نصارى. إنما هو يمضي فيصور موقف هذه الفئة التي يعينها: (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق، يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين. وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين).

فهذا مشهد حي يرسم من التصوير القرآني لهذه الفئة من الناس، الذين هم أقرب مودة للذين آمنوا. إنهم إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت مشاعرهم، ولانت قلوبهم، وفاضت أعينهم بالدمع تعبيراً عن التأثير العميق الغني بالحق الذي سمعوه، والذي لا يجدون له في أول الأمر كفاء من التعبير إلا الدمع الغزير، وهي حالة معروفة في النفس البشرية حين يبلغ بها التأثير درجة أعلى من أن يفي بها القول، فيفيض الدمع ليؤدي ما لا يؤديه القول، وليطلق الشحنة الحبيسة من التأثير العميق الغني.

ثم هم لا يكتفون بهذا الفيض من الدمع، ولا يقفون موقفاً سلبياً من الحق الذي تأثروا به هذا التأثير عند سماع القرآن، والشعور بالحق الذي يحمله والإحساس بما له من سلطان. إنهم لا يقفون موقف المتأثر الذي تفيض عيناه بالدمع ثم ينتهي أمره مع هذا الحق! إنما هم يتقدمون ليتخذوا من هذا الحق

موقفاً إيجابياً صريحاً، موقف القبول لهذا الحق، والإيمان به، والإذعان لسلطانه، وإعلان هذا الإيمان وهذا الإذعان في لهجة قوية عميقة صريحة: (يقولون: ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين).

إنهم أولاً يعلنون لرَبِّهم إيمانهم بهذا الحق الذي عرفوه، ثم يدعونه - سبحانه - أن يضمهم إلى قائمة الشاهدين لهذا الحق، وأن يسلكهم في سلك الأمة القائمة عليه في الأرض، الأمة المسلمة، التي تشهد لهذا الدين بأنه الحق، وتؤدي هذه الشهادة بلسانها وبعملها وبحركتها لإقرار هذا الحق في حياة البشر. فهؤلاء الشاهدون الجدد ينضمون إلى هذه الأمة المسلمة، ويشهدون ربهم على إيمانهم بالحق الذي تتبعه هذه الأمة، ويدعونه - سبحانه - أن يكتبهم في سجلها.

ثم هم بعد ذلك يستنكرون على أنفسهم أن يعوقهم معوق عن الإيمان بالله، أو أن يسمعوا هذا الحق ثم لا يؤمنوا به، ولا يأملوا - بهذا الإيمان - أن يقبلهم ربهم، ويرفع مقامهم عنده، فيدخلهم مع القوم الصالحين: (وما لنا لا نؤمن بالله وما جاءنا من الحق، ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين).

فهو موقف صريح قاطع تجاه ما أنزل الله إلى رسوله من الحق، موقف الاستماع والمعرفة، ثم التأثر الغامر والإيمان الجاهر، ثم الإسلام والانضمام إلى الأمة المسلمة، مع دعاء الله - سبحانه - أن يجعلهم من الشاهدين لهذا الحق،

الذين يؤدون شهادتهم سلوكاً وعملاً وجهاداً لإقراره في الأرض، والتمكين له في حياة الناس، ثم وضوح الطريق في تقديرهم وتوحيده، بحيث لا يعودون يرون أنه يجوز لهم أن يمشوا إلا في طريق واحد: هو طريق الإيمان بالله، وبالحق الذي أنزله على رسوله، والأمل بعد ذلك في القبول عنده والرضوان.

ولا يقف السياق القرآني هنا عند بيان من هم الذين يعينهم بأنهم أقرب مودة للذين آمنوا من الذين قالوا: إنا نصارى، وعند بيان سلوكهم في مواجهة ما أنزل الله إلى الرسول من الحق، وفي اتخاذ موقف إيجابي صريح بالإيمان المعلن، والانضمام إلى الصف المسلم، والاستعداد لأداء الشهادة بالنفس والجهد والمال، والدعاء إلى الله أن يقبلهم في الصف الشاهد لهذا الحق على هذا النحو، مع الطمع في أن يختم لهم بالانضمام إلى موكب الصالحين. لا يقف السياق القرآني عند هذا الحد في بيان أمر هؤلاء الذين يقرر أنهم أقرب مودة للذين آمنوا، بل يتابع خطاه لتكملة الصورة، ورسم المصير الذي انتهوا إليه فعلاً: (فأثابهم الله بما قالوا جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين).

لقد علم الله صدق قلوبهم وألسنتهم، وصدق عزيمتهم على المضي في الطريق، وصدق تصميمهم على أداء الشهادة لهذا الدين الجديد الذي دخلوا فيه، ولهذا

الصف المسلم الذي اختاروه، واعتبارهم أن أداء هذه الشهادة - بكل تكاليفها في النفس والمال - منة يمن الله بها على من يشاء من عباده، واعتبارهم كذلك أنه لم يعد لهم طريق يسلكونه إلا هذا الطريق الذي أعلنوا المضي فيه، ورجاؤهم في ربهم أن يدخلهم مع القوم الصالحين. لقد علم الله منهم هذا كله، فقبل منهم قولهم وكتب لهم الجنة جزاء لهم، وشهد لهم - سبحانه - بأنهم محسنون، وأنه يجزيهم جزاء المحسنين: (فأثابهم الله - بما قالوا - جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك جزاء المحسنين).

والإحسان أعلى درجات الإيمان والإسلام. والله - جل جلاله - قد شهد لهذا الفريق من الناس أنه من المحسنين. هو فريق خاص محدد الملامح هذا الذي يقول عنه القرآن الكريم: (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا: إنا نصارى).

هو فريق لا يستكبر عن الحق حين يسمعه، بل يستجيب له تلك الاستجابة العميقة الجاهرة الصريحة. وهو فريق لا يتردد في إعلان استجابته للإسلام، والانضمام للصف المسلم، والانضمام إليه بصفة خاصة في تكاليف هذه العقيدة، وهي أداء الشهادة لها بالاستقامة عليها والجهاد لإقرارها وتمكينها، وهو فريق علم الله منه صدق قوله فقبله في صفوف المحسنين. ولكن السياق القرآني

لا يقف عند هذا الحد في تحديد ملامح هذا الفريق المقصود من الناس الذين تجدهم أقرب مودة للذين آمنوا، بل إنه ليمضي فيميزه من الفريق الآخر من الذين قالوا: إنا نصارى ممن يسمعون هذا الحق فيكفرون به ويكذبون، ولا يستجيبون له، ولا ينضمون إلى صفوف الشاهدين: (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم).

والمقصود قطعاً بالذين كفروا وكذبوا في هذا الموضع هم الذين يسمعون - من الذين قالوا إنا نصارى - ثم لا يستجيبون. والقرآن يسميهم الكافرين كلها كانوا في مثل هذا الموقف، سواء في ذلك اليهود والنصارى، ويضمهم إلى موكب الكفار مع المشركين سواء، ما داموا في موقف التكذيب لما أنزل الله على رسوله من الحق، وفي موقف الامتناع عن الدخول في الإسلام الذي لا يقبل الله من الناس ديناً سواه. نجد هذا في مثل قول الله سبحانه:

- (لم يكن الذين كفروا - من أهل الكتاب والمشركين - منفكين حتى تأتيهم البينة). (البينة: ١).

- (إن الذين كفروا - من أهل الكتاب والمشركين - في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية). (البينة: ٦).

- (لقد كفر الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة). (المائدة: ٧٣).

- (لقد كفر الذين قالوا: إن الله هو المسيح ابن مريم). (المائدة: ٧٢).

- (لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ). (المائدة: ٧٨).

فهو تعبير مألوف في القرآن، وحكم معهود، وهو يأتي هنا للتفرقة بين فريقين من الذين قالوا: إنا نصارى، وللتفرقة بين موقف كل فريق منهما تجاه الذين آمنوا، وللتفرقة كذلك بين مصير هؤلاء وأولئك عند الله. هؤلاء لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين، وأولئك أصحاب الجحيم.

وليس كل من قالوا: إنا نصارى إذن داخلين في ذلك الحكم: (ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا)، كما يحاول أن يقول من يقتطعون آيات القرآن دون تمامها، إنما هذا الحكم مقصور على حالة معينة، لم يدع السياق القرآني أمرها غامضاً، ولا ملاحظها مجهلة، ولا موقفها متلبساً بموقف سواها في كثير ولا قليل» [تفسير: في ظلال القرآن].

ويتكرر أيضاً أن يقتطع البعض قوله تعالى (ليسوا سواء...) ثم يبيّن على ذلك عقيدة أخرى غير التي قررها كتاب الله، والآية كاملة: {لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ} (آل عمران: ١١٣)، فلماذا لا يكملون الآية؟؟ وهي تقول صراحة: يتلون آيات الله؟؟

فإن قيل: ولكنها جاءت عامة (آيات الله)، نقول: إن كانت خاصة فالمعنى هو القرآن، وإن كانت عامة فحتمًا تشمل القرآن، أم أنه ليس من آيات الله؟؟ فلا مجال لعدم الإيمان به، ومن آمن به حتى صار يتلوه أثناء الليل أولئك هم الذين عنتهم الآية، فهؤلاء الذين ليسوا بكاقي أهل الكتاب آمنوا بمحمد وبالقرآن ويتلونه، ومن آمن به وجب أن يعمل به ويحكمه. فالآية إذن تتحدث عن فئة آمنت ولم تستكبر عندما رأت الحق، وإطلاق أهل الكتاب عليهم طبيعي؛ لأن القرآن بعد أن آمنوا به يلزمهم بالإيمان بكل الكتب المنزلة، فلا إشكال هنا. وقال بعض المفسرين إن قوله أهل الكتاب إنما هو باعتبار ما كان، كقوله: {وَاتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ...} (النساء: ٢).

والآية التي تليها تزيد الأمر وضوحًا، فقال تعالى إنهم: {يُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ} (آل عمران: ١١٤)، ثم قال: {وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ} (آل عمران: ١١٥).

ولو لم يكن هذا المعنى صحيحًا للزم أن يقال إن هذه الآيات تتناقض مع الآية التي أتت بعدها مباشرة، وفيها إقرار صريح بأن من كفر بعد ذلك فمصيره النار خالدا فيها، ومن كانت هذه مصيره فحتمًا ليس من الذين قال عنهم تعالى: (لا

خوف عليهم ولا هم يحزنون..). يقول تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (آل عمران: ١١٦).

والسؤال هنا: كفروا بماذا؟؟؟ والجواب الذي لا يختلف عليه أحد: كفروا بهذا القرآن ومن بلغه، ففرقوا بذلك بين رسله وكتبه، ويجوز أن يكون المعنى: كفروا بكل الكتب، والقرآن بذلك ضمنها، فيكون الكفر به موجبا لذلك المصير.

وقد جاء في موضع آخر قوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَمْ تَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ} (آل عمران: ٩٨)، فالمعنى واحد، لا تفصل آيات القرآن عن آيات باقي كتب الله تبارك وتعالى.

فالمسألة الآن واضحة لمن سلم وخضع للحق ولم يستكبر أو حاول تقويل كتاب الله ما لم يقله، وجعل آياته تتصادم فيما بينها نتيجة فهمه المعوج المنقوص المجتزئ لأي الكتاب.

• عدم التشبه بهم في خصائصهم العقديّة:

أي بعدم التشبه بالكافرين في شعائرهم، وأعيادهم، وطقوسهم، ورموزهم الخاصة: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا

يَعْلَمُونَ} (الجاثية: ١٨). أما في الأمور والأشياء الدنيوية العامة لديهم، فلا يعد تقليدهم فيها أو الاستفادة منها محرماً إذا لم يكن بقصد التعظيم، وكان فيها مصلحة مباحة؛ إذ الأصل في الأمور الإباحة ما لم يرد نص شرعي بخلاف ذلك.. هذا إذا اعتبرنا الاستفادة من شيء ما لديهم بفعل أو صنع مثله أو استيراده، هو من قبيل التشبه بهم.

التفريق بين الكافر المحارب وغير المحارب:

نصوص الإسلام واضحة في التفريق بين من يعادي ويحارب المسلمين، ومن لا يحاربهم ولا يعتدي عليهم. قال تعالى: {لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ} (الممتحنة: ٨).. وهذا أصل التعامل مع غير المسلمين عموماً؛ فهناك فرق بين النهي عن موالاتهم ومحبتهم، وبين الأمر بالإحسان إليهم وبرهم وعدم ظلمهم، ولا تعارض بين الأمرين.

ويقول الحق جل جلاله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (المائدة: ٨)، فنحن نعدل مع المؤمن وغير المؤمن، وحتى

مع من نبغضهم أشد البغض، ونبر بغير المؤمنين ونحسن إليهم، كما للناس جميعاً، طالما سالمونا ولم يعتدوا أو يظاهروا المعتدين علينا في ديننا، وحریتنا، وكرامتنا.

يقول تبارك وتعالى: {وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا ۝} (البقرة: ٨٣)، دون أن يتعلق ذلك بحجة ملتهم ومعتقدهم؛ فهذا شيء، وذاك شيء آخر، فوجب التنبيه. إذ العدوان والظلم هو المعيار في التعامل معهم؛ فمن حاربنا منهم حاربناه، ومن سالمنا سالمناه وأحسننا إليه. وقد نهى الله عن موالاة المحاربين بنصرتهم، فقال: {إِنَّمَا يَنهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (الممتحنة: ٩). وفي كلتا الحالتين (في السلم أو الحرب)، نتبرأ من عقائدهم وتصوراتهم الشركية والكفرية المخالفة لما في كتاب الله تبارك وتعالى.

هذا هو الفرق بين (الكافر الحربي، المعتدي) الذي يقاتل، و(غير الحربي) الذي يحسن إليه من غير تعظيم ولا محبة لما يعتقده.

ضوابط الولاء والبراء:

• الولاء والبراء يكونان على أساس الإيمان والكفر. والتعامل يكون على أساس العدوان أو المسالمة، لا على العرق أو الجنسية أو المصالح.

• لا يعني البراء العدوان أو الظلم، وإنما هو تميز عقدي وسلوكي.

• نحن مأمورون بالعدل حتى مع من نكره، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (المائدة: ٨)، ومأمورون بالإحسان إلى من لم يحاربنا ويعتد علينا في ديننا، وحریتنا، وكرامتنا.

والقرآن يعلمنا الإنصاف دائماً حتى مع من نختلف معهم في الاعتقاد الديني، وهو أعظم الأمور وأجلها.

انظر قوله تعالى في وصفه لقسمين من أهل الكتاب في مسألة دنيوية هي الأمانة المالية، يقول تبارك وتعالى: {وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِقِنطَارٍ يُودِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنُهُ بِدِينَارٍ لَا يُودِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (آل عمران: ٧٥). ثم بين علة انحراف القسم الثاني، بأنهم كذبوا على الله، وقالوا: {ليس علينا في الأميين (كل ما عداهم) سبيل}، أي ليس علينا في أكل حقوقهم حرج ولا إثم.

فبين تعالى أن هذا الانحراف الأخلاقي إنما نشأ عن اتباعهم للانحراف الاعتقادي، بكذبهم وتقولهم على الله سبحانه وتعالى، ولو أنهم اتبعوا ما أنزل

الله فقط حق الاتباع لما كانوا خونة غير مستأمنين. ولعل القسم الأول هم من الذين لم يتبعوا ما حُرّف مما أنزل سابقاً، وبالتالي لم يكفروا بما أنزله الله لاحقاً، فكانوا مؤمنين بالله وكتبه ورسله، ولذا جدير بهم أن يحفظوا الأمانة، صغيرة كانت أو كبيرة. {بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} (آل عمران: ٧٦)، و«(بلى) حرف جواب، وهو مختص بإبطال النفي، فهو هنا لإبطال قولهم: {ليس علينا في الأميين سبيل}» [التحرير والتنوير].

«فليس الأمر كما زعم هؤلاء الكاذبون، فإن المتقي حقاً هو من أوفى بما عاهد الله عليه من أداء الأمانة، والإيمان به وبرسله، والتزم هديه وشرعه، وخاف الله عز وجل فامثل أمره وانتهى عما نهى عنه. والله يحب المتقين الذين يتقون الشرك والمعاصي» [التفسير الميسر].

والشاهد من هذه الآية أن الاختلاف العقدي، على أهميته وأولويته ومركزيته، إلا أنه لا يبرر الظلم مع المخالف أياً كان، ولا يلغي الاعتراف بالفضيلة حيث وجدت، وهذا منسجم مع آيتي المائدة (٨)، والممتحنة (٨)، كما مر معنا فيما تقدم.



الولاء لله ورسوله مقدّم على ولاء القرابة:

لقد قدم القرآن العظيم الولاء (لله ورسوله والمؤمنين)، وأصرة الإيمان على أي ولاء آخر أو أصرة ورابطة، سواء النسب / الرحم أو الجنسية أو القومية أو غيرها.

قال تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} * قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (التوبة: ٢٣-٢٤).

وقال سبحانه عن إبراهيم عليه السلام: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحَدَهُ} إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا أُسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} (الممتحنة: ٤).



قد يقول قائل: فإذا عن قوله تعالى في سورة الأنفال: {.. وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ..}، ألا يجعل ولاء الرحم هنا أولى من كل ما عداه؟

نقول: هذا النص إنما هو جزء من آية، وتلك الآية جزء من آيات في سياق كامل، وكلها تعود لمنظومة واحدة كبرى. فلا يجوز الاجتزاء، واتخاذ آيات القرآن عَضِينَ، وهو منهج طالما نهى عنه القرآن ذاته. قال تعالى: {الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ} (الحجر: ٩١)، أي فرقوا آياته، وأخذوا بعضها وتركوا بعضها الآخر، فأخذوا ما يعجبهم وتركوا ما لا يعجبهم، وهذا ما يؤدي إلى خلل في الفهم وانحراف في الاستنباط. {فَوَرَبِّكَ لَنَسَأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ} (الحجر: ٩٢-٩٣).

والنص موضع الإشكال هو جزء من آخر آية من سورة الأنفال، وقد سبقه هذا السياق الكامل: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهَاجَرُوا مَا لَكُمْ مِّنْ وَلَايَتِهِمْ مِّنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجَرُوا وَإِنْ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ *}

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ * وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ { (الأنفال: ٧٢-٧٥).

فالنص المشكل هو حديث عن علاقة خاصة، هي علاقة الرحم والقربة، في إطار من الأولوية في الحقوق والواجبات (كالميراث والنفقة والوصال إلخ)، بعد أن استقر كيان المجتمع الإسلامي ودولته في المدينة. وهي علاقة تقوم على العناية والرحمة والبر والإحسان كما أمر الرحمن في كتابه، لا على أساس العصبية الجاهلية للنسب والعشيرة أو القبيلة.

وهذه العلاقة الخاصة تقع ضمن دائرة العلاقة العامة، التي يمثلها الولاء للإسلام بمفهومه الشامل.. فلا ينبغي للعلاقة الخاصة أن تتعارض مع العامة، وإن وقع التعارض فالعامة، أي الولاء لله ورسوله والمؤمنين، هي الأولى حينئذ، وهي الحاكمة والمقدمة.

فإذا تعارض ولء الرحم أو غيره مع ولء الدين في لحظة ما، كانت الأولوية للدين حتما، كما قال تعالى في محكم تنزيله: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ

عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كُتِبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانُ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَدَخَلَهُمْ جَنَّاتُ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ
اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ { (المجادلة: ٢٢).

وقد جاء نفس المعنى في آية الأحزاب، حيث قُدم النبي على النفس ذاتها:
{النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ
بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا
كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا} (الأحزاب: ٦) «اعلموا أيها المؤمنون أن النبي
أحرص على استقامة أمركم وأحق بولايتكم من أنفسكم، فعليكم أن تطيعوه
وتتبعوا شرعه» [تيسير التفسير]. فقررت الآية أن النبي أولى بالمؤمنين، ليس
من أرحامهم وحسب، بل من أنفسهم أيضا، فيما يأمرهم به وينهاهم عنه عن
ربه سبحانه، مما يؤكد أن الولاء العقدي مقدم على كل ولاء آخر، وليس ملغيا
له بالضرورة.

إذن، لا تعارض بين الولاء الخاص (كالرحم والقربة) والولاء العام (ولاء
الإسلام)، بل يضبط الخاص ضمن العام، ولا يجوز أن يقدم عليه أو يعارضه.
الخلاصة: ولاء الإنسان المسلم هو لله ورسوله والمؤمنين، بنصرته وحبه لرسالة
الإسلام بمعناه الأعم الشامل؛ بشرعه، ومعتقده، وشعائره، وقيمه، ومنظومته

الأخلاقية.. المتضمنة كلها في كتاب الله المجيد المهيمن على كل ما سواه. وذلك هو الولاء المقدم على كل ولاء آخر، كما قال تعالى: {إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ} (المائدة: ٥٥)، وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (التوبة: ٢٣).

على أن ولاء الإسلام، كما ذكرنا تواء، لا يلغي ولاء الرحم والقرباة وغيرها، وإنما ينظمها ويضبطها ضمن الولاء الأعلى والأشمل والأصل، وهو ولاء الإسلام. وعلى هذا الأساس تنبني، وتتشكل، وتفهم هوية الإنسان المسلم واندماؤه ووطنه الحقيقي في كل زمان ومكان.

الإقرار بتعدد الشرائع .. وسبيل النجاة في الآخرة!

سؤال: هل إقرار القرآن بتعدد الشرائع والمناهج في الدنيا دليل على أن الاكتفاء بإحداها (مع قيام الحجّة بالرسالة الخاتمة وبلوغها للناس ووعيم بها) كاف للنجاة في الآخرة؟!

يقول الله تعالى في سورة النساء: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا * وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا} (١٥٠-١٥٢)، فمن آمن بكتاب من كتب الله دون

بقية كتبه فهو كافر، وقد ضلّ ضلّالا بعيدا، والعذاب المهين في انتظاره.

وعليه؛ فليس لأحد من اليهود أو النصارى مثلاً، أو غيرهم، أن يقول إنه مؤمن بالله ثم لا يؤمن بكتبه ورسله وملائكته، أو يكتفي بأحد الكتب المنزلة دون البقية، وأهمها آخرها (القرآن العظيم)، المصدق لها والمهيمن عليها، والمتعهد بحفظه من قبل الله عز وجل. فمن يؤمن ببعض الكتب (والأنبياء والرسول)

ويكفر ببعضها (مع علمه ووعيه بها وبلوغها له) فهو كافر بنص القرآن. وبالتالي فإن اليهود والنصارى ممن وصلهم القرآن ووعوه هم كفرون وعلى ضلال إن لم يؤمنوا به، مع العلم أن الإيمان به جزء من الكتب السابقة أصلاً، وجزء من اعتقادهم إن كانوا يؤمنون حقاً بما أنزل في التوراة والإنجيل. يقول تبارك وتعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ { (الأعراف: ١٥٧). فكيف يقول أحدهم إنه مؤمن بالتوراة أو الإنجيل، ثم يبلغه القرآن فيكفر بالقرآن ومحمد؟ إذ لا يستقيم الإيمان بالتوراة أو الإنجيل دون الإيمان بالقرآن ومحمد. ومن آمن بالقرآن فقد لزمه اتباعه والعمل به وتحكيمه، ومن عمل به وحكمه فلن يرضى بغيره، كيف لا وهو المهيم والحاكم على ما سبقه من كتب، والحافظ والجامع لها؟ وهو كتاب الله الخاتم الذي حفظه الله جلّت قدرته من أوله إلى آخره.

كما أنه أيضاً لا يستقيم إيمان المسلم وهو لا يؤمن بالتوراة والإنجيل وكل ما أنزله الله تبارك وتعالى، على أن من آمن بالقرآن فقد لزمه أن يؤمن بكل ما سبقه

من الكتب؛ لأنه المصدق لها، المهيمن عليها، والمعتمد لما أراد الله بقاءه منها، والناسخ لما أراد الله نسخه منها. ومن آمن بالتوراة والإنجيل لزمه أن يؤمن بالقرآن ومحمد صلى الله على محمد، كون ذلك مخبرا به في تلك الكتب، وجزءا أصيلا من اعتقاد من يؤمن بها صدقا فيتبعها.

قال تعالى: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ} (العنكبوت: ٤٧). فكيف يؤمنون بالتوراة أو الإنجيل ثم يجحدون بالقرآن ومحمد، وهم على علم ودراية به؟ إنهم إذن كفار بالتوراة والإنجيل: {وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ}.

ولذلك استنكر الله - عز وجل - على اليهود توليهم عندما احتكموا للرسول الخاتم، في قوله تعالى: {وَكَيْفَ يُحْكُمُونَكَ وَعِنْدَهُمُ التَّوْرَةُ فِيهَا حُكْمُ اللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوْنَ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} (المائدة: ٤٣).. فليس الاستنكار هنا على احتكامهم للرسول، بل لأن حكم الله عندهم أصلا ولم يعملوا به. فكيف يحتكمون إليك وهم يعلمون حكم الله الذي لا تخالفه أنت، ثم لا يعملون به؟ إنهم إذن يريدون الهوى. فالاستنكار على كونهم يعملون حكم الله، وهو ذات ما جاء به محمد في القرآن، ثم يتولون من بعد ذلك، أي بعد أن حكموك وحكمت

لهم بما هو لديهم أصلاً، فليس أولئك حتماً من المؤمنين. «فهي كبيرة مستنكرة أن يحكموا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيحكم بشريعة الله وحكم الله، وعندهم، إلى جانب هذا، التوراة فيها شريعة الله وحكمه؛ فيتطابق حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم وما عندهم في التوراة، مما جاء القرآن مصداقاً له ومهيئاً عليه، ثم من بعد ذلك يتولون ويعرضون، سواء كان التولي بعدم التزام الحكم أو بعدم الرضى به» [في الظلال القرآن].

ج وقوله في نفس السورة: {وَلِيَحْكُمُ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ} وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (المائدة: ٤٧)، هو في ذات السياق أيضاً، وعبرة (بما أنزل الله فيه) حاسمة هنا، فليس الحكم المطلوب بالذي أصابه التحريف والتلاعب، بل هو ما أنزله الله حصراً مما كتّمه ولم يبينه، أي ما أنزل في الإنجيل الحق قبل أن يمسه أي تحريف. ولو أنهم اتبعوا ما أنزل الله فيه ولم يكتّموه ويحرفوه لصدقوا بالقرآن وآمنوا به وعملوا به واحتكموا إليه، كيف لا وهو قد بشر بمحمد والقرآن؟

كما أخبر سبحانه في محكم كتابه: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} (الصف: ٦)، «واذكر،

أيها الرسول لقومك، حين قال عيسى ابن مريم لقومه: إني رسول الله إليكم، مصدقا لما جاء قبلي من التوراة، ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد، وهو محمد صلى الله عليه وسلم، وداعيا إلى التصديق به، فلما جاءهم محمد صلى الله عليه وسلم بالآيات الواضحات قالوا: هذا الذي جئتنا به سحر بين» [التفسير الميسر].

فلن يحكموا بالإنجيل قبل الإيمان به، ولو آمنوا به صدقا، لصدّقوا وآمنوا بمحمد وبالقرآن، ولتحاكموا إليه، ولما أعرضوا عن حكمه أبدا. فالأمر بالحكم بالإنجيل ليس بديلا عن التحاكم إلى القرآن، كما قد يفهم من يقتطع آيات القرآن عن بعضها، بل هو حجة على من لم يؤمن بالقرآن ولم يحتكم إليه.

وبهذا نفهم أن الأصل في التحاكم هو إلى القرآن، فإن أبي اليهود والنصارى وغير المسلمين عموما وتولوا، فنعرض عنهم ولا نكرههم ما داموا لا يقاتلوننا في ديننا. ولكن لا يعني ذلك أن عدم إجبارنا لهم على التحاكم إلى القرآن أنهم على هدى، وأنه لا خوف عليهم يوم القيامة ولا هم يحزنون، بل هو امتحان لهم، والاختيار لهم، والحساب يوم الفصل.

وفي ظل هذا الفهم يمكن لنا إعادة قراءة آية البقرة ٦٢: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا

فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}، دون أن يشوش علينا بعض من اقتطع الآيات وابتسر الموضوعات، فقال إن مجرد الإيمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح كاف لدخول الجنة، وغفل عن أن الإيمان بالله وطاعته على الشكل الذي يرضاه لا يتم أصلاً بغير الإيمان بكتبه ورسله وملائكته، وأن الإيمان باليوم الآخر هو مما أخبرت به الكتب التي جاء بها الرسل، وأن العمل الصالح هو صالح بمعايير من؟ بمعايير الوحي المنزل من لدن الله عز وجل، لا بمعايير الأهواء البشرية. وليس هذا العمل منفلتاً بلا ضابط ولا غاية، ومن يحدد الغاية سواه جل جلاله؟

ولو كان الأمر كما يزعم البعض من أن النجاة في الآخرة تتحقق حتى لمن يكفر بالقرآن، فالسؤال له: كيف نفهم قوله سبحانه في محكم تنزيله: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا} (النساء: ١٣٦)، وقوله {إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا * أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا} (النساء: ١٥٠) - (١٥١). ماذا نفعل بهذه الآيات؟! ويقول عز من قائل: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ

بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ^س وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ { (الأنعام: ٩٢) » فالذين يؤمنون بأن هناك آخرة وحسابا وجزاء يؤمنون بأن الله لا بد مرسل للناس رسولا يوحى إليه، ولا يجدون في نفوسهم مشقة في التصديق به، بل يجدون داعيا يدعوهم إلى هذا التصديق. كما أنهم لإيمانهم بالآخرة وبهذا الكتاب يحافظون على صلاتهم، ليكونوا على صلة دائمة وثيقة بالله، وليقوموا بطاعته ممثلة في الصلاة. فهي طبيعة نفس، متى صدقت بالآخرة واستيقنتها صدقت بهذا الكتاب وتنزيله، وحرصت على الصلة بالله وطاعته» [في ظلال القرآن].

القتل والقتال في الإسلام

في كتاب الله هناك مبرر وحيد للقتل اختصرته هذه العبارة: {النفس بالنفس}، أي القصاص، أو الإفساد في الأرض الذي يكون مشتملاً على القتل المصحوب بسرقة أو اغتصاب أو استعباد أو أو أو... إلخ.

أما عدا ذلك فدم أي إنسان حرام؛ وقد جعل الله أغلظ العقوبات على من قتل إنساناً آمناً متعمداً... {وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا} (النساء: ٩٣)، واعتبر من قتل نفساً واحدة كأنما قتل الناس جميعاً... {... مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا...} (المائدة: ٣٢).

ومبررات القتال في الإسلام محدودة جداً، وتمثل في: رد العدوان: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ} (البقرة: ١٩٠)، نصره المستضعفين {وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا} (النساء: ٧٥)،

وحتى لا يكون هنالك إكراه [فتنة] {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ} (البقرة: ١٩٣) (أي حتى لا يفتن إنسان ما، بمعنى يُكرهه على اعتناق أو ترك دين ما).

القتال في الإسلام ليس في سبيل أوطان أو حكام أو أشياء مادية؛ وإنما هو في سبيل الله؛ أي سبيل رفع الإكراه عن الناس {وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنْ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} (الأنفال: ٣٩)، وليكون الدين كله لله، لا بد لبلوغ ذلك من خلق البيئة المناسبة، وهي البيئة الحرة التي يملك الإنسان فيها قراره، فيختار الإيمان أو الكفر دونما ضغط أو إكراه.

ولما جعل الله الإخراج من الديار مبرراً للقتال؛ فذلك لأن الإخراج ظلمٌ بواح؛ لذا كان القتال هنا قتالاً لرفع ذلك الظلم، كي يعيش الناس أحراراً في ديارهم وفي كل مكان، وليس على أن المعنى هو أن القتال من أجل الديار من حيث هي حجارة وحدود وتراب؛ لا، فهذا فهم مقلوب غير معتبر.

وإنما القتال هنا بوصفه رفعاً للظلم ودفعاً للعدوان، ليعيش كل إنسان في أي مكان بحرية وأمان.

نبذ العنصرية

يقول تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات: ١٣). إن الهدف إذاً من جعل الناس شعوباً وقبائل هو كي يتعارفوا، والتعارف شرط التعايش؛ بمعنى أنه لا تعايش بلا تعارف، وهو التمهيد الطبيعي لأي لقاء بين اثنين. التعارف إذاً هو شرط التعايش، ولذا كان المعنى: لتتعارفوا، ومن ثم لتتعايشوا، ولا يعلو أحد فوق آخر ولا قوم على قوم آخرين. ومن آياته تبارك وتعالى أنه حرم السخرية بين الأقسام والتنازع بالألقاب والهمز واللمز والبغي بغير الحق والنفاق وقذف المحصنات... إلخ، وهذا كله مما يُحصّن المجتمعات التي تتحقق فيها العبادية لله بالاستجابة لما أوحاه.

يقول عزّ من قائل:

- {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا

بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ
الظَّالِمُونَ { (الحجرات: ١١).

- {قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ
وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ {
(الأعراف: ٣٣).

- {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا { (النساء:
١٣٥).

- {إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ
عَذَابٌ عَظِيمٌ { (النور: ٢٣).

فهل يمكن لمن يعتبر هذه النصوص جزءاً من عقيدته ويكانه، مؤمناً عاملاً بها،
أن يسخر من قوم، ويتعنصر عليهم، ويدّعي أنه خير منهم لمجرد اختلاف عرق
أو لون أو لسان؟ محال.

وأكثر من ذلك، ففي مجتمع العبادية لله (المجتمع الإسلامي) يُحَرِّمُ التجسس
على الآخرين تحت أي ذريعة ومن أي جهة كانت؛ وهذا مما يحفظ كرامات
الناس وخصوصياتهم ويصون أعراضهم: {وَلَا تَجَسَّسُوا...}. كما تُحَرِّمُ الغيبة:

{وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ}،
والنسيمة: {وَلَا تُطْعَمُ كُلُّ حَلَّافٍ مَّيِّينَ * هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنِيمٍ * مَنَّاعٌ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٌ أَثِيمٌ}
(القلم: ١٠-١٢)، وظن السوء: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ
بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ}... إلخ، وكل ما يمكن أن يهدد استقرار وسلام وحيات
وأمن وتعايش المجتمعات التي أخلصت العبادة لله وأفردته سبحانه بها.

إن العنصرية اعتقاد فاسد وأيديولوجيا خبيثة، ولن يُقضى عليها إلا بعقيدة
مضادة هي عقيدة: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ}؛ عقيدة ينصهر الإنسان فيها،
ويتشكل بها، ويرتقي من خلالها، ويتحرر ويسمو.

إن الحل للبشرية اليوم هو في السعي نحو تحقيق العبادية الكاملة لله تبارك
وتعالى، وهذا هو الذي سيلجم الأهواء والشهوات، والنزعات العنصرية،
والميول الشاذة، ويضع حداً للمذابح والحروب والصراعات.

وماذا لو أن قوله تعالى: {وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا} ^ج إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ { (البقرة: ١٩٠)، كان جزءاً من عقيدة شعوب دول
احتلت ودمرت وقتلت ملايين الأبرياء خارج حدودها؟ لو أن تلك الآية جزء
من اعتقادهم الذي يؤمنون به ويخضعون له ويعملون به، لما حدث ما حدث،
ولما شهد العالم كل تلك المآسي.

وقد يعترض عليّ معترض فيقول: وماذا عن المجتمعات الإسلامية؟ أليست تؤمن بما تتحدث عنه، ومع ذلك فانظر إلى حالها وحال بلدانها! والجواب يكون: ومن قال لكم إن تلك المجتمعات مسلبة بحق؟

هل يكفي أن يقول الإنسان: (لا إله إلا الله) لتتحقق معانيها في قلبه، ثم تنعكس على واقعه بعد ذلك وحياته؟ لا، وأزيدكم أيضاً؛ ففرعون (وهو من هو؟ فرعون الذي معروف ما هو مصيره وجنوده) قد قال من قبل إنه (آمن بالله)، فهل نفعه إيمانه ذاك؟ يقول تعالى: {وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدُوًّا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ * الْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ} (يونس: ٩٠-٩١).

إذاً، فالمسألة جد عميقة وعويصة، ولست أبالي مطلقاً بمن يقول: وهل تكفر هذه المجتمعات كلها؟ وذلك لسببين:

الأول: أن التكفير عندي ليس موجباً للقتل ولا مبرراً لاتخاذ سبيل العنف، وذلك لما تقدم الحديث عنه من إقرار الإسلام للحرية وتحريمه كل صور الإكراه، سواء على الدين أو عن الدين. ثم أنا لا أكفر كل فرد بعينه؛ فهناك الاستثناءات بطبيعة الحال.

والثاني: لأن هذه هي الحقيقة؛ فهب أن شخصاً كتب قانوناً ما وأقره، ثم يصرّ على مخالفته وخرقه في كل مرة؛ فماذا تسمي ذلك حينئذ؟ إنه كافر بما كتب، وادعاؤه الإيمان به مجرد ادعاء، والادعاء لا يغني عن الحق شيئاً، فكل ادعاء كذب حتى يثبت بتطبيق عملي معاش. وإلا كان من العدل أن يُنجي فرعون إيمانه، ومن الظلم أن يناله ما سيناله!!

فمن قال: أنا أوّمن بقوله تبارك وتعالى: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُ}، ثم لا يوفرّ فرصة إلا ويمارس فيها كل صنوف العنصرية والتعصب والشوفينية، فادعاؤه الإيمان بالآية كذب لا محالة، حيث يثبت ما ادعاه بممارسة إيمانه عملياً بالآية، بأن يتخلص من عنصريته، ويغير نظرتَه إلى الوجود كله، ويدرك أن الناس كلهم خُلقوا من نفس واحدة: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ} (النساء: ١)، وبالتالي، فكلهم سواء، لا فرق بين إنسان وإنسان إلا بالتقوى.

وما اختلاف اللغات والألوان إلا آية من الآيات الدالة على الله سبحانه وعلى بديع خلقه، وأن التعدد والاختلاف سنة من سننه تعالى، ومما يزيد المجتمعات غنى وقوة ووعياً وتعايشاً وإنسانية وانفتاحاً، فلا يكون ذلك الاختلاف مبرراً للعنصرية، وإنما قاتلاً لها.

ويدرك أن الهدف من جعل الناس شعوباً وقبائل هو كي يتعارفوا، وبالتالي يتعايشوا، ذلك لأن الأكرم عند الله في نهاية المطاف هو الأتقى؛ أي الأكثر اتباعاً لتعاليم الله سبحانه وتمسكاً بها، وبالتالي الأكثر إحساناً ورحمة وتواضعاً وانفتاحاً وإنسانية... إلخ. وإن لم يثبت ذلك كممارسة عملية حقيقية تنعكس على تعامله مع الآخرين، فادعاء ذلك الإيمان يظل ادعاءً لا يغير من حقيقة كفره به شيئاً.

إذاً؛ فاتهمات التكفير تلك ليست مما يثير قلقنا. نعم، من يدّعي أنه مؤمن ثم يمارس ما يتنافى مع ادعاء الإيمان، فذلك ليس بمؤمن حتماً، وهو مدّع وكافر بما يدعيه.

وهذا كذلك منطبق على مسألة لزوم خضوع كل الناس للمساءلة والحساب، وبالذات أصحاب السلطة والنفوذ في المجتمع المسلم؛ فمن يقول إنه يؤمن بقول الحق تبارك وتعالى: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} (الأنبياء: ٢٣)، الذي يخبر فيه بحقيقة تعاليه وحده جل وعلا عن المساءلة... ثم يأتي فيضع فرداً أو مجموعة أو سلالة أو أسرة إلخ، فوق المساءلة ويرضى بذلك، فقد أشرك بالله قطعاً، لأنه أسبغ صفة هي لله حصراً على غيره. وهذا واضح وشائع في مجتمعاتنا الراضية تحت حكم الطاغوت؛ وقد سبق أن تحدثت مع كثير من المسعودين

(عبيد آل سعود)، فقالوا: نعم، آل سعود لا يخضعون للسؤال، ولا يمكن بحال أن يجترئ أحد على مساءلتهم فضلاً عن محاسبتهم، ونحن راضون بذلك. فقلت: إذا أنتم مشركون بلا أدنى ريب. فلم يثر ذلك فيهم أي امتعاض!



ابيضاض الوجوه واسودادها في الآخرة: تفنيد شبهة وجود عنصرية في الإسلام

وقعت مؤخراً على شبهة تتناقلها، بكثرة، السنة الملاحدة في مواقع التواصل؛ تتعلق بالآية الكريمة: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} (آل عمران: ١٠٦)، متهمين الإسلام بالعنصرية؛ يقولون: لماذا استعمل اللون الأسود في وصف وجوه الذين كفروا، واللون الأبيض في وصف وجوه الذين هم في رحمة الله: {وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} (آل عمران: ١٠٧)، معتبرين ذلك تحيزاً ضدَّ السود؟

والجواب هو: أولاً، ينبغي الانطلاق من تثبيت هذه الأصول والمبادئ الإسلامية الكلية لدى هؤلاء الجهلة، قبل أن يحكموا على الإسلام من استنباطاتهم المعوجة والمقلوبة، وهي:

* أن الله سبحانه وتعالى خلق الناس كلهم من نفسٍ واحدة، كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} (النساء: ١)، فلا تمييز، إذن، بين أحدٍ منهم، لا بناءً على لونٍ أو لسانٍ أو جنس؛ لأنهم كلهم من نفسٍ واحدة.

* أن الله عز وجل قد كرم كلَّ بني آدم، كما في قوله سبحانه: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} (الإسراء: ٧٠)، دون استثناءٍ عنصراً منهم، أو عرقٍ، أو تمييزٍ بينهم.

* أن الله عز وجل جعل الأكرم من خلقه، بالنسبة إليه، بعد أن كرمهم كلهم، هو الأتقى، وذلك كما جاء في قوله: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات: ١٣)، والأتقى هو الأكثر إحساناً وعملاً للخيرات للناس كافة، دون تمييزٍ بينهم على أي أساس. وأنه سبحانه إنما خلق الناس شعوباً وقبائل بغرض التعارف والتعايش والتسابق إلى الخيرات، لا من أجل التناحر والتنافر والتعالي على بعضهم بعضاً، والتعنصر والتحيز فيما بينهم!

* أن الله تبارك وتعالى قد جعل اختلاف الألوان والألسن بين البشر آيةً من آياته الدالة عليه سبحانه، كما في قوله: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ} (الروم: ٢٢)، فكيف يمكن أن يُعتبر لونُ بشرةٍ معينٍ أفضلَ من آخر، وكلاهما من آياته الدالة عليه سبحانه وتعالى؟

* أن الله أنزل كتابه على رسوله ليكون بشيراً ونذيراً للناس كافة، كما في قوله: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (سبأ: ٢٨)، وأنه رحمةٌ للعالمين: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} (الأنبياء: ١٠٧)، وهذا يشمل كل الناس، بغضِّ النظر عن اختلاف الألوان والألسن، فكيف يكون للناس كافة ورحمةٌ للعالمين إذا كان يستثني جزءاً منهم أو يتحامل عليهم بسبب لونهم أو لغتهم؟! والقرآن منزّه عن أن تتعارض آياته أو يناقض بعضها بعضاً.

* أن أول من نادى بالعنصرية هو إبليس، حيث قال: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} (ص: ٧٦). -والعنصري هو الذي يفضل عنصره على غيره من عناصر البشر، ويتعصب له-، فاستحق لعنة رب العالمين إلى يوم

الدين: {قَالَ فَانْخُرْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ * وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَى يَوْمِ الدِّينِ} (ص: ٧٧-٧٨). فالعنصري، إذن، ملعون، كما إبليس، في شرع رب العالمين.

ثانياً: بعد أن ثبتنا هذه الأصول والمبادئ الإسلامية الكلية، نقول، فيما يتعلق بالشبهة المطروحة، الآتي:

لقد وردت الآيات، من مثل قوله تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} (آل عمران: ١٠٦)، وقوله أيضاً: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ} (الزمر: ٦٠)، على أنها وصفٌ لحال وجوه من آمنوا ومن كفروا أو كذبوا على الله، ومصيرهم يوم القيامة، فهي تتحدث عن حالة خاصة في الآخرة.

غير أن المعنى الواضح، المباشر، المتبادر إلى الذهن في الآيتين وسياقهما، هو أن الموصوف هو حال الوجوه، لا لون بشرة الإنسان الأساسي؛ وهما وصفان حقيقيان؛ لأنهما يبدوان على الإنسان، بحيث لا يمكن إخفاؤهما، كما يبدو ذلك على من احمرَّ وجهه نجلاً، أو اصفرَّ تعباً، بغضِّ النظر عن لون بشرته الأساسي. أما لماذا توعدّ بالعذاب الذين اسودَّت وجوههم، في حين وعد بالرحمة الذين ابيضَّت وجوههم، فلأن البياض - كما هو معروف بداهةً - يوحى

بالنقاء والصفاء، والسواد بالظلمة والعتمة والشوائب الكثيرة، وهما وصفان للذين كفروا والذين آمنوا، بغضِّ النظر عن ألوان بشراتهم... فكيف يكون في هذين الوصفين عنصريةٌ أو تمييزٌ ضد أصحاب البشرة السوداء، إذا كان ابيضاض الوجوه مصير المؤمنين، واسودادها مصير الكافرين، وفي المؤمنين والكافرين بيضٌ وسودٌ، وغبرٌ أو ملونون أيضاً؟... والآيات كلها تحدثت، كما ذكرنا، عن حال الوجوه، ولم تتحدث عن البشرة نفسها أو عرقٍ بعينه، بمعنى: لم تقل: «البيض في الجنة، والسود والغبر في النار»! حاشا كتابَ الله المنزه عن مثل ذلك.

ومما يؤيد هذا الطرح قوله تعالى في الآيات التالية: {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ * ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ * وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ * تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ} (عبس: ٣٨-٤٢)؛ فهل في هذا الوصف عنصريةٌ تجاه الملونين أيضاً، أو الغبر؟! لا، ونحن معظمنا في غربي آسيا، وخاصة الجزيرة العربية، ألواننا تميل إلى اللون الأغبر (وهو لونُ أسمرٍ فاتحٍ إلى برتقاليٍّ مسمرٍ، وهو لون الغبار، ومنه أصل التسمية). غير أن الآية، ومن سياقها ومقابلتها بين وصف: ﴿مُسْفِرَةٌ﴾ و﴿عَلَيْهَا غَبَرَةٌ﴾، ووصف: ﴿ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ﴾ و﴿تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ﴾، تثبت أن الموصوف هنا هو حال الناس يوم القيامة، فيكون ذلك واضحاً

بيناً: وجوه مشرقة ضاحكة مستبشرة، وأخرى علتها الغبرة والظلمة، والعياذ بالله، وليس معناه ذماً لمن لونهم فيه غبرة، ولا ذماً للسود على الإطلاق، كما يزعم الجهال من الملاحدة، وإنما هي أحوال تعتري وجوه الناس، مؤمنهم وكافرهم، وتكون واضحة يوم القيامة.

ويقول الله تعالى في آية أخرى، واصفاً حال الجاهليين عندما يبشر أحدهم بمولود ويكون أنثى: {وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ} (58) يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَّا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ} (النحل: ٥٨)، فهل معنى ذلك أنه تغير لون بشرته الأساسي مثلاً؟! كلا، وإنما المعنى أنه اكفره وانقبض وانطفأ، وأصابته الكآبة والخزي؛ أي تغيرت حالة وجهه، لا لون بشرته. ولذلك قرن الله ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾، أي ممتلئ غيظاً وحزناً، والسياق كله سياق انفعال نفسي.

وعليه، فلا وجود مطلقاً لذلك التصور العنصري الذي قد يرد على أذهان البعض عند قراءتهم لتلك الآيات. ونحن نعلم أن من الملاحدة واللا دينيين من يتشبثون بهذه المسألة لغرض التشويش على عوام المسلمين، متهمين الإسلام بالعنصرية، وبالتالي بأنه مجرد صناعة بشرية محكومة بظروف وعادات

ومعتقدات بيئة معينة قبل أربعة عشر قرناً من الزمان!!! دون أن ينتبه أولئك الجهالة إلى أن الآية نفسها التي يتخذونها وسيلةً للطعن في دين الله: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ} (آل عمران: ١٠٦)، هي نفسها تنفي العنصرية؛ كيف لا، وهي تصرّح بأن الابيضاض والاسوداد أمران لم يحصلوا بعد، ويقعان في الآخرة، كلٌّ بحسب عمله وإيمانه وموقفه من رسالة رب العالمين.

وعليه، فليست حكماً على عرقٍ بعينه، ولا على لون بشرٍ بعينه؛ فمن كفر وأثقل بالخطايا سيُسود وجهه وتعلوه الغبرة، بغض النظر عن لون بشرته في الدنيا، أبيض كان أو أسود؛ أي يظلم وينطفئ. ومن آمن وعمل صالحاً سيبيض وجهه، وإن كان أبيض في الدنيا؛ أي يشرق ويشع نوراً وابتهاجاً، كما قال تعالى واصفاً المؤمنين والمؤمنات يوم القيامة: {يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (الحديد: ١٢)، بغض النظر عن أعراقهم وألوان بشراتهم في الدنيا. فهل في هذا عنصرية؟! كيف ذلك؟!

ونحن عندما نقول: «فلان قلبه أبيض»، فإننا نعني أنه طيبٌ نقيُّ السريرة، لا شوائب فيه، وعندما نقول: «فلان قلبه أسود»، فإن المقصود به أنه امتلأ بالغِلِّ والحسد والظلمة وشتى أمراض القلوب، ولا نقصد أنه ذمٌّ للون بشرته إنسانٍ

ما!!! وهذا متعارفٌ عليه في كل اللغات. ومما هو متعارفٌ عندنا في شبه الجزيرة العربية أن نقول عَمَّنْ بدت عليه علامات تعبٍ ونحولٍ وهزالٍ، وذبولِ النضارة: «فلان اليوم وجهه أغبر»، ولا نقصد بذلك لون بشرته، فقد يكون أسودَ أو أبيضَ البشرة. ويقال: «يوم أغبر»، أي يوم شديد أو عسير، و«زمن أغبر»، أي زمن كثرت فيه الفتن أو المظالم أو المصائب.

كما يقال: «فلان مصفرُّ الوجه»، وقد تكون للدلالة على الخوف أو الفزع أو الحرج أو صدمة بدت عليه، فظهرت علامات الوجوم والشحوب، ولا يقصد به أن لون بشرته الأساسي أصفر. ونقول كذلك: «احمرَّ وجهه»، ولا نعني أنه تغيَّر لون بشرته الأساسي، وإنما هي حالةٌ عارضةٌ اعترت الإنسان لموقفٍ محرجٍ.

فليكفَّ الجهلة إذن عن الخوض فيما يجهلون، وليبقَ المسلمون متيقظين لمثل هذه الشبهات التي تبدو للوهلة الأولى ساذجةً وسطحيةً، فلا تُعطى الاهتمام اللازم بالرد والإبطال، غير أن فيها من الخبث ما فيها، وقد تنطلي على بعض عوام الناس وصغار السن خاصة، فينجروا خلف أعداء الإسلام والإنسانية، ممن لا شغل لهم سوى السعي الدؤوب لتشويه دين الله، ومحاولات إظهاره بعكس حقيقته الجليلة في الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

إن الإنسانية كلها لم تعرف في تاريخها كله، بطوله وعرضه، معنى المساواة - من أصله - بين الناس، بغضّ النظر عن كل الاختلافات الظاهرة بينهم، ولم تكن لتصل إلى الحال الذي تصبح فيه العنصرية محرمةً، وكذا كل أشكال العصبيات؛ القبلية والدينية والوطنية... إلخ، سوى بالإسلام، وبشرعه الذي كرم كل بني آدم، ولم يجعل إنساناً أكرم عند الله من آخر إلا بالتقوى وعمل الخيرات لصالح كل الناس دون تمييز أو تفرقة، وما عدا ذلك فلا قيمة له في ميزان الشرع الخفيف؛ لا شكل الإنسان، ولا لون بشرته، ولا لغته؛ ولا نسبه.. وهو ما تنسجم معه كل الفطر السليمة: {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (الروم: ٣٠).



العدل

العدلُ في عقيدتنا يمثل واحدة من أهم غايات إنزال الكتب وبعث الرسل عليهم الصلاة والسلام، فقال عز من قائل: {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ..} (الحديد: ٢٥). وإن العدل جزء من العبادة، أي إن ممارسته عبادة؛ فإذا كانت عبادة الله بعدم عبادة سواه هي غاية الخلق، فإن ذلك لا يتم في ظل أجواء الظلم والجور؛ لذا كان العدل من أهم خصائص وشروط تحقيق مجتمع العبادية.

ولا يمكن بحال أن يوصف مجتمع ما بأنه مسلم وهو غارق في ظلمات الظلم والقهر.



إن الحرية والعدل والمساواة والشورى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، هي من أخص خصائص مجتمع العبادية لله (المجتمع الإسلامي)؛ ليس ذلك فقط، بل ونصرة المستضعفين، وإغاثة الملهوفين، واستقبال المهاجرين واللاجئين، وكفالة اليتامى والمحتاجين، ورعاية الفقراء والمساكين، والعناية

بالعاملين ومحدودي الدخل، والإحسان إلى عابري السبيل، واحترام خصوصيات الآخرين، فلا تجسس ولا ترويع للآمنين، وكذا التعايش مع المخالفين، ونبد العنصرية والتمييز والإقصاء، وكل صور التهيب والإكراه... وغيرها مما تفيض به آيات الذكر الحكيم من قيم ومبادئ لا يتبناها مجتمع إلا وأصبح آية في الأمن والسلام والحرية والكرامة والمساواة والعدالة والرقى والاستقرار والتعايش بين مختلف الناس. فهل نجد شيئاً مما ذكرناه في مجتمعات تدّعي أنها إسلامية؟ بل لا نجد إلا كل ما هو عكس ذلك.

لا تقل لي إنك تعبد الله وأنت لا تفتأ تظلم الناس، وتأكل حقوقهم، وتقسو على ضعيفهم، وتساند عليهم الظالمين والباغين والغاصبين والعنصريين والمفسدين في الأرض. كم تشكّل نسبة أبناء المسلمين في جيوش الطواغيت في العالم الإسلامي؟ أليست تلك أوضاع صور مساندة الظالمين؟

في مجتمع العبادية لله لا يقاتل الناس مع الطغاة: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} (النساء: ٧٦)، «الذين صدّقوا في إيمانهم اعتقاداً وعملاً يجاهدون في سبيل نصره الحق وأهله، والذين كفروا يقاتلون في سبيل البغي والفساد في الأرض، فقاتلوا أيها المؤمنون أهل الكفر والشرك الذين يتولّون

الشيطان، ويطيعون أمره، إن تدبير الشيطان لأوليائه كان ضعيفاً». [التفسير
الميسر].

الخمس لدى الشيعة

انظر مبلغ ما وصلت إليه عنصريتهم وتنفيرهم الناس من دين الله؛ قالوا إن لقراءة الرسول (من بني هاشم وبني عبد المطلب، بل منهم من قال قریش كلها) الخمس من الغنيمة، وذلك لياً لمعنى الآية في قوله تعالى: {وَأَعْلَوْا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ} وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ { (الأنفال: ٤١)؛ والآية واضحة.

أولاً: الخطاب موجه للجماعة ككل، وليس لفرد بعينه؛ فما غنمتم (أي الجماعة المسلمة، المقاتلين منهم خاصة)، والحديث كله هنا عن الغنيمة التي تكون بعد النصر في القتال على المحاربين المعتدين، وليس كما هو معمول به لدى الطائفة الشيعية حيث يُعطى الخمس سنوياً (كما لو أنه جزء من الزكاة) للمراجع الكهنوتية.

ثانياً: طالما الخطاب للجماعة، والمعني في المقام الأول هم المقاتلون، دلّ ذلك على أن المقصود منها هو أن كل واحد من المقاتلين عليه أن يجعل خمس ما

غنمه لله والرسول (وتُفهم هنا بمعنى ما فيه خدمة دين الله والدعوة إليه في كل مكان).

ثالثاً: ثم ذوي القربى ممن يعيلهم كل واحد من أولئك المقاتلين (أي قربي الإنسان الذي غنم، وقد لا تكون قربي دم، وإلا فماذا عن المتبنى مثلاً؟ إذا القربي المعاشة بالدرجة الأولى، وهي المسألة أيضاً، وإلا فما العمل مع القريب المحارب؟ أيعطى أم لا؟)، واليتامى عموماً، والمساكين، وابن السبيل. ولا يوجد في القرآن ما يحرم على أقارب النبي ﷺ قبول الصدقة، وهذا لمن قال إن الخمس لهم كان بسبب تحريم أخذهم الزكاة أو الصدقة.

وينبغي أن نتأمل ولو قليلاً في هذه النقطة (المتعلقة بحصة ابن السبيل، وهو المسافر الذي لا مال له يكفيه ليصل إلى مقصده)، ففي المجتمع الإسلامي (مجتمع العبادية لله) حتى عابر السبيل له حق في مال الأمة، فتخيّلوا عظمة وإنسانية ورحمة هذا الدين وعالميته!

ولكن الجاهليين فهموا الآية من خلال نظرتهم القبلية العنصرية الضيقة، فقالوا إن قوله (ولذي القربى) أي هم قرابة الرسول عيناً؛ وهو فهم لا يمكن أن يصدر إلا عن تأثر بالبيئة القبلية الجاهلية، وعاداتها الضاغطة، وعصبياتها النتنة. وأما قوله تعالى في آية الشورى: {...قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي

الْقُرْبَى...} (الشورى: 23)، فهي الأخرى واضحة إن لم تكن قراءتها خاضعة للعقلية القبلية الجاهلية.

وقد وردت لها وجوه تفسيرية كثيرة، غير أن أقربها للصواب هو المعنى التالي في نظرنا: قل لا أسألكم على ما أدعوكم إليه من خير أجرًا، اللهم إلا (والاستثناء للسؤال لا للأجر، لأنه (ص) لا يطلب الأجر من الناس مطلقاً، ولذا كان فائدة ما يسأله هنا من مودة في القربى عائد نفعه للرسالة ومن تبعها من الناس، لا لشخصه هو) أن تودّوني في قرابتي منكم؛ فلا تعترضوا طريق دعوتي ومن تبعني.

وأما لو كان المعنى ما ذهب إليه المنحرفون من أن حب قرابة الرسول -ويعنون بهم كل أقاربه- هو المقصود في الآية؛ لصادموا آيات القرآن بعضها ببعض؛ فمنهم المشركون الذين حاربوه وناصبوه العدا، وقد حرم ربي مودة المشركين وتوليهم.

لذا، فالفهم الأرجح، والذي ينسجم مع مجموع آيات الكتاب الكريم، يجعلنا نميل إلى أن المعنى هو ما جاء في تفسير الرازي مثلاً: «{قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ} على ما أدعوكم إليه {أَجْرًا إِلَّا} (وهنا استثناء من السؤال -كما قلنا- لا من الأجر، لأن طلب النبي للأجر منتفٍ) أن تودّوني لقرابتي منكم، والمعنى أنكم قومي وأحق

من أجابني وأطاعني، فإذا قد أَيْتَمَ ذلك فاحفظوا حق القربى، ولا تؤذوني،
ولا تهيجوا عليّ... وقول آخر ذكره الحسن وهو: أن تتوددوا إلى الله وتقتربوا إليه
بالطاعة والعمل الصالح». [مفاتيح الغيب، التفسير الكبير].

الملك العام في الإسلام

إنَّ الملك العام (السلطان) هو شورى بين جميع أفراد الأمة الإسلامية، والملك الوارد في القرآن ليس هو المملوكية الوراثية التي عرفتها البشرية بعد ذلك، وملك سليمان، عليه السلام، -الذي يستدل به الجهلة لتبرير الوراثة- لم يكن ملكاً وراثياً؛ فلم يرثه، بدلالة قوله: {قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا..}، ولم يرثه هو لمن بعده بدلالة قوله في نفس الآية: {..لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ} (ص: ٣٥) والذي ورثه سليمان من والده داود، عليهما السلام، كان العلم والمكانة لا السلطة والرياسة لقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ} * وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عِلْمَنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} (النمل: ١٦).

وقد أثبتنا في أبحاث سابقة أن المملوكية الوراثية مما يتعارض بشكل صارخ مع الأمر الإلهي بالشورى، التي جعلها المولى سبحانه من أهم صفات المؤمنين بالله، فجعلها بين الاستجابة له وإقامة الصلاة والإنفاق من الرزق؛ وذلك لعظيم

مكاتها، وأنها من صفات المؤمنين بالضرورة. أي بمعنى: أن تكونوا مؤمنين بالله مستجيبين له يعني أن يكون الأمر بينكم شورى، بينكم كلكم، رجالاً ونساءً، لا تمييز ولا تفرقة، لا على أساس عرق ولا جنس ولا لون أو اختلاف لسان، فقال: {لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} * وَالَّذِينَ يَحْتَبُونَ كِبَئِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ * وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ}، وقوله تعالى أمراً نبيه الكريم بأن يشاور المسلمين من حوله، ويذكره تعالى بأنه، بفضل رحمة الله، لان معهم، ولو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فظاً غليظَ القلبِ لانفضوا مِن حَوْلِكَ} فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ} (آل عمران: ١٥٩).

ج وفي موضع آخر يقول تعالى: {وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ} (الأنفال: ٦٢)، وفيها إشارة واضحة إلى أهمية الجماهير المؤمنة ودورها المحوري، حتى إن الله جعلها سبباً في نصرته، صلى الله عليه وسلم. وكان دورها بارزاً بهذا القدر لأن الأمر كان شورى بينهم، ولم يكن يستبد النبي بشيء من الأمر فيما لم ينزل به نص قرآني؛ إذ طالما كان

الأمر يتعلق بشيء مسكوت عنه، فالأصل أن الأمر فيه شورى، وكان ذلك هو الحال في وقته، صلوات ربي وسلامه عليه إلى أبد الآبدين.

وأن الله هو مالك الملك والمالك الحق: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ} (المؤمنون: ١١٦)، {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبْرُهُ تَكْبِيرًا} (الإسراء).

وأن كل ملك غير ملك الله هو مقيد ومؤقت وعرضة للنزع في أي لحظة؛ فالله يؤتي الملك وهو ينزعه، وهذه سنة ثابتة مستمرة لا تتخلف: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} (آل عمران: ٢٦).

وأن الإتياء ليس معناه الرضا الإلهي بالضرورة، وإنما هو الابتلاء والامتحان، وأن ذلك يجري عبر السنن الطبيعية والاجتماعية التي وضعها (قدرها) الله لهذا الكون ومن فيه، لا التدخل الإلهي المباشر كما يتصور البعض، لا سيما في عصر ما بعد ختم النبوة.

وأن قصة طالوت، الذي بعثه الله إلى بني إسرائيل ملكاً عليهم، كان يطلب منهم هم، وليس مفروضاً عليهم. وحين عينه نبياً عليهم، لم يسكت القوم، بل اعترضوا وقالوا: {أَتَنَى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ

يُؤْتِ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ
وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ { (البقرة: ٢٤٧).

وهذا الاعتراض يدل على وجود مناخ من الحرية والفسحة من جهة القدرة على التعبير، الذي يصل إلى هذا الحد، ويؤكد أن طالوت لم يكن متغلباً وارثاً للملك، بل جاء باصطفاء إلهي حصري وخاص، ولم يشكل قاعدة لحكم لاحق، ولم يكن من طبقة غنية ولا سلالة تدعي لذاتها الأحقية في الملك دون غيرها.

فلم يكن طالوت ملكاً وراثياً، إذًا، بل بعثه الله ملكاً باصطفاء خاص، في سياق خاص، وفي زمن لم تُحتم النبوة فيه بعد، مما يبطل علاقة الملك في القرآن بالملوكيات الوراثية السلالية التي عرفتها البشرية لاحقاً، وأنّ بعث طالوت ملكاً قد كان بطلب من بني إسرائيل في الأساس. ومع ذلك اعترضوا عليه.



ومع ما تقدّم، فقد اعترض عليّ كثير من المسعودين، قائلين: إن الله عز وجل هو من أعطى آل سعود الملك، وذلك دليل رضاه عنهم وتأييده لهم، ولو لم يكن راضياً لما حدث أن أوتوا الملك!!

ثم يستشهدون بالآية الكريمة: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أَحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ

فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ { (البقرة: ٢٥٨)، معتبرين إياها دليلاً يسند ما
قالوه! ولست أدري، والله، كيف يستدل هؤلاء بهذا الشكل المشوه المقلوب،
ولست، والله، أدري كيف يفكرون، إن كانوا يفكرون!

فقلت: ومن قال لكم إن هذا الإتياء معناه الرضا من الله، أو أنه قائم على
أساس من الشرعية؟ ثم من قال لكم، من الأصل، إن هنالك شيئاً في هذا
الوجود يخرج عن قوانين وسنن هذا الوجود التي وضعها وقدرها رب العالمين،
ومجموع الاحتمالات البشرية الممكنة التي يعلمها كلها وقبل حدوثها وأيّها
سيقع؟ ومعنى ذلك أن حصول أحد ما على السلطة ليس معناه، بالضرورة،
رضا الله، أو أن حصوله ذاك تم بطرق مشروعة! ولكن لا يعني أيضاً أنه أوتيّه
من عند غير الله!

ثم إن الدنيا قد جعلها الله للكافر والمؤمن سواءً ومتاعاً، لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ
وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ
الْمَصِيرُ { (البقرة: ١٢٦)، وقوله: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ
لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا * وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ

لَهَا سَعِيًّا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعِيهِمْ مَشْكُورًا * كَلَّا نُمَدِّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ
مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا { (الإسراء: ١٨-٢٠)،

وقال تبارك وتعالى: {اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ ^ط وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ * مَنْ
كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزَدَ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤَتْهُ مِنْهَا
وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ { (الشورى: ١٩-٢٠).

فإن الله يمد المؤمن والكافر على السواء؛ والدنيا دار امتحان وابتلاء، والناس فيها
مخيرون لا مسيرون. فكما أنه قد يستولي على السلطة غاصب، فهذا لا يعني أن
ذلك حق له أو أن الله راضٍ عنه، ولكنه، في ذات الوقت، ليس شيئاً
خارجاً عن إرادة الله، أو أن يكون غيره هو من آتاه؛ وإلا صار الكون كون
غير الله، أَسْتَغْفِرُ الله.

وبعبارة أخرى: لا يمكن أن نقول إنه استولى على السلطة رغماً عن إرادة الله،
جل وعلا، وإنما ضمن ما آتاه الله للناس، من الأصل، من حرية اختيار، والتي
قد يُساء استخدامها، كما يفعل الغاصبون المتسلطون على الشعوب، والتي على
أساسها يكون الحساب والعقاب أو الثواب يوم الدين.

وعليه؛ فإنه كما للغاصب الحرية التي مكنته من مخالفة أمر الله (بالشورى في
الأمر كله)، فلغيره حق، بل واجب، مقاومة ذلك الغاصب بكل الصور

والوسائل المشروعة الممكنة. وكما رضيتم بحكم الغاصبين باعتباره مما آتاه الله لهم، مستدلّين بقوله سبحانه: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ..} (البقرة: ٢٥٨)، وقوله: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ..} (آل عمران: ٢٦)؛ فدعوا من يقاومون الغاصبين وشأنهم، واطمئنوا؛ فإن هم نجحوا ونزعوا الملك من أولئك الغاصبين، فلترضوا بذلك النزع باعتباره جزءاً من ذات الآيّة، وبالتالي إرادة الله: {وَتَنَزَّعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ يَبِذُكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

أي: كما رضيتم بالإيتاء باعتباره إرادة الله، فلا تجزعوا عند النزع لأنه أيضاً بإرادة الله، ولا تأبها إلى من يسعون في سبيل ذلك؛ فكلّا الحالتين مما سمح به الله جلّ وعلا وكتبه. وللإنسان في نهاية المطاف الخيار: إما أن يخضع للغضب والظلم وتحريف الدين، وإما أن يرفع رأسه عالياً، مقاوماً مجاهداً، وراداً على المحرّفين والمفسدين والباغين ظلماً في الأرض.



لقد خلق الله الناس كلهم أحراراً، وحملهم الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها وأشفقن منها، قال الذي قوله الحق: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا

الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا { (الأحزاب: ٧٢). وتلك الأمانة التي حملها الإنسان هي حرية الاختيار، فكان مقتضاها الحساب، وبالتالي العقاب أو الثواب {لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} (الأحزاب: ٧٣)؛ فمن اختار أن يؤمن ويحسن فله الحسنی، ومن اختار الكفر وأساء فله العذاب.

ولكن في كلا الحالتين الله هو الخالق والموجد الأصلي لكل شيء وواضع ومقدّر قوانين الكون وخالق الإنسان العالم به وبكل الاحتمالات التي قد ترد على قلبه وفي خلدّه، وهذا معنى الإيتاء من حيث الأصل؛ فالله هو المعطي الذي أتى كل ذلك وأوجده. غير أن هذا لا يعني بحال أن الاحتمالات التي يختارها الإنسان كلها تدل على رضا الله أو موافقة لمنهجه الذي أنزله في كتبه؛ فقد يختار أن يكفر، وبذلك فالله هو الذي آتاه إمكانية أن يكفر، لكن الكفر لا يرتضيه، والحساب عليه يوم الحساب. فالدنيا دار امتحان وبلاء، وإذا ما وقع الإكراه والإجبار انتفى مسوغ الحساب، لذا كانت الحرية شرطاً أساسياً مقدساً تقرّه كل آيات الكتاب العزيز.

وجاء في الظلال عن حمل الإنسان لأمانةٍ أثبت عن حملها الجبال، تفسير بديع: «إن الإنسان الذي يعرف الله بإدراكه وشعوره. ويهتدي إلى ناموسه بتدبره

وبصره. ويعمل وفق هذا الناموس بمحاولته وجهده. ويطيع الله بإرادته وحمله لنفسه، ومقاومة انحرافاته ونزغاته، ومجاهدة ميوله وشهواته.. وهو في كل خطوة من هذه الخطوات مرید. مدرك. يختار طريقه وهو عارف إلى أين يؤدي به هذا الطريق!

إنها أمانة ضخمة حملها هذا المخلوق الصغير الحجم، القليل القوة، الضعيف الحول، المحدود العمر؛ الذي تناوشه الشهوات والنزعات والميول والأطماع.. وإنها لمخاطرة أن يأخذ على عاتقه هذه التبعة الثقيلة. ومن ثم {كان ظلوماً} لنفسه {جهولاً} لطاقته. هذا بالقياس إلى ضخامة ما زج بنفسه لحمله. فأما حين ينهض بالتبعة.

حين يصل إلى المعرفة الواصلة إلى بارئه، والاهتداء المباشر لناموسه، والطاعة الكاملة لإرادة ربه. المعرفة والاهتداء والطاعة التي تصل في طبيعتها وفي آثارها إلى مثل ما وصلت إليه من سهولة ويسر وكمال في السماوات والأرض والجبال.. الخلائق التي تعرف مباشرة، وتهتدي مباشرة، وتطيع مباشرة، ولا تحول بينها وبين بارئها وناموسه وإرادته الحوائل. ولا تقعد بها المشبطات عن الانقياد والطاعة والأداء.. حين يصل الإنسان إلى هذه الدرجة، وهو واع مدرك مرید. فإنه يصل حقاً إلى مقام كريم، ومكان بين خلق الله فريد. إنها

الإرادة والإدراك والمحاولة وحمل التبعة.. هي هي ميزة هذا الإنسان على كثير من خلق الله. وهي هي مناط التكريم الذي أعلنه الله في الملائكة، وهو يسجد الملائكة لآدم. وأعلنه في قرآنه الباقي وهو يقول: {ولقد كرّمنا بني آدم}.. فليعرف الإنسان مناط تكريمه عند الله. ولينهض بالأمانة التي اختارها؛ والتي عرضت على السماوات والأرض والجبال، فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها» [سيد قطب، في ظلال القرآن].

ثم إن الآية (آية البقرة: ٢٥٨) لا تتحدث عن شخص مؤمن يمكن الاستدلال بقصته والاستئناس بها على ما ذهبوا إليه من تحريف وتخريف، بل هو كافر جاحد مستكبر (قيل هو النمرود، ولكن لا دليل من القرآن عليه).

لذا فإن هذه الآية ليست دليلاً على القائلين بالحق الإلهي للملوك، والذي لا أساس له في الإسلام ولا بأي حال؛ بل جاء الإسلام فهدم الإمبراطوريات، وأنهى زمن الوراثيات، وأسقط المتجبرين العالين في الأرض.

والملك العام (مألاً وسلطاناً)، - كما أثبتنا- في التصور الإسلامي، هو حق عام تتوزعه جماهير الأمة (شورى بينهم)/، مشاع بينهم، وليس حقاً إلهياً لأحد بعينه أو فئة أو أسرة أو سلالة، بل هو حق للجماعة الإنسانية المؤمنة دون تمييز أو تفرقة. فيحرم حصره في سلالة أو فئة بعينها، ومن يفعل ذلك فهو -عملياً-

كافر بحكم الله تعالى في شأن السلطة والرياسة الذي قرر أن يكون (شورى بينهم)؛ بين كل جماهير الأمة في كل تجمع لهم في أي بقعة من بقاع الأرض. وأكثر من ذلك، فإننا نفهم من سياق الآية أن هذا الذي حاج إبراهيم، عليه السلام، في ربه إنما فعل ذلك لما أوتيته من ملك؛ فكأن السلطان الذي كان يملكه هو ما دفعه نحو الغرور والتأله. ففي هذا ذم للملك المطلق، كما في قوله، على لسان ملكة سبأ: {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرََّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً}، فجاء التأييد الإلهي لكلامها في ذات الآية: {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} (النمل: ٣٤).

ولذا فالآية (آية البقرة: ٢٥٨) تسلط الضوء على حقيقة أن السلطة المطلقة مفسدة مطلقة لا محالة، وأن الإنسان، ما لم يع أنه عبد لله، محدود وناقص وعاجز، لطغى واستكبر وتجبر وتأله {كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ} * {أَن رَّاهُ اسْتَغْنَى} (العلق: ٦-٧)، ومصير المستكبرين والظالمين معروف لا يجهله ذو نظر وبصيرة.

إذاً، نفهم الآية ليس بأن الملك الذي أُعطيَه هذا الكافر كان تعييناً ورضاً إلهياً، وإنما هو إيتاء بمقتضى حرية الاختيار التي آتاها الله الناس عند خلقهم. وإلا لو فهمت حسبما ذهب إليه المنحرفون من عبدة الطواغيت، لكان شرط

الحصول على ذلك الملك هو الكفران والجحود والعتوّ، وهذا ما لا يقول به عاقل.

فلينته، إذاً، هؤلاء الدجاجة عن تحريف الدين وقلب الحقائق وتشويه الوعي المسلم، الذي ما فتئ يتعرض لحمولات التشويه والإضلال والتشويش والتلبيس منذ وفاة الرسول الأعظم، صلوات الله عليه وسلامه، وحتى يوم الناس هذا.

والخلاصة: أنه لو كان المقصود من الآية أن كل إيتاء للملك يحمل في طياته رضاً وتعييناً إلهياً، لحصل التناقض الصارخ أمامنا؛ فكيف يرضى الله عمن ادّعى الربوبية، وكفر به سبحانه، وطغى واستكبر؟

بر الوالدين

هل بر الوالدين يعني الطاعة المطلقة لهما، أم أن لهذه الطاعة حدوداً تقف عندها؟ لا شك أن الله قد أوجب الإحسان إلى الوالدين وبرهما، ومصاحبتهما بالمعروف، ونهى عن نهرهما وسوء الأدب معهما، والدعاء لهما... إلخ، وحول ذلك قد وردت آيات عديدة، يقول الله تبارك وتعالى:

* {وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ} (البقرة: ٨٣).

* {يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُ مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِّنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ} (البقرة: ٢١٥).

* {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَلًا نَّفْسًا} (النساء: ٣٦).

* {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (الأنعام: ١٥١).

* {وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفْ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا} (الإسراء: ٢٣-٢٤).

* {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفَصَالَهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ} (الأحقاف: ١٥).

* {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَالَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} (لقمان: ١٤).

ولكن مع ذلك؛ فقد ورد الأمر كذلك في آيتين لاحقتين بعدم طاعتهما طاعةً مطلقة، كما في قوله تعالى:

* {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (العنكبوت: ٨).

* {وَأَنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ} (لقمان: ١٥).

وبالذات عندما يتعارض أمر أحدهما مع أمر الخالق سبحانه وتعالى؛ وقد وصفت عملية مجاهدتهما للأبناء على ارتكاب الظلم، أو أي معصية، في حال خضوع الأبناء لهما، شركاً... ذلك لأن تقديم الإنسان أمر أي كائن كان، وإن كان أباه أو أمه، على أمر الله، هو شرك عملي، أي حتى وإن ادعى الإنسان أنه ليس مشركاً بلسانه، فإن ذلك لا يكفي، وسلوكه يصدق أو يكذب ما ادعاه لسانه، وإن صاحبه الاعتقاد بأرحية أمرهما، أو أحدهما، على أوامر الله وتعاليم دينه، فذلك شرك اعتقادي واضح!

ومثال ذلك قوله تعالى، واصفاً شرك اليهود والنصارى عندما اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، يقدمون أقوالهم على قول الله، فيحلون ما حرم الله، ويحرمون ما أحل: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًُا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا

يُشْرِكُونَ} (التوبة: ٣١). وكما جاء في قوله تعالى في الآية (١٢١) من سورة الأنعام، في سياق الحديث عن تحريم أكل الذبائح التي لم يذكر اسم الله عليها: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذَكِّرْ اسمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإنَّهُ لَفَسَقٌ وَإنَّ الشَّيَاطِينَ لِيُوحُونَ إِيَّاهُ أَوْلِيَاءَهُمْ لِيَجَادِلُوكُمْ...} إلى أن يقول: {وَأِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ}، «أي حيث عدلتم عن أمر الله لكم (مهما كان ذلك الأمر) وشرعه، إلى قول غيره (أيًا كان هذا الغير)، فقد متم عليه غيره... فهذا هو الشرك» [تفسير: في ضلال القرآن].

فما بالك لو كان الضغط من الوالدين (ترهيباً أو ترغيباً، إغواءً أو ابتزازاً) على الأبناء بموالاته الظالمين، والعمل لصالحهم، وعداء المصلحين ودعاة الخير والقسط من الناس، ومحاربتهم، وحتى قتلهم؟! بل كيف إذا ما كان أحد الوالدين بنفسه جندياً من جنود الظالمين الطاغين الغاصبين الكافرين؟!

إن الحديث عن هذا الموضوع لهو من أهم ما يجب الحديث عنه، لا سيما في بيئات حوّلت مفهوم بر الوالدين من إحسان ورحمة لهما في حدود ما أمر الله به، إلى عبادتهما ومساواتهما بالله، أو أكثر من ذلك. ولكم استخدمت أنظمة بأكملها هذا المفهوم المشوّه؛ لجعله سلاحاً فتاكاً تضرب به المجتمع، وتحكم من خلاله السيطرة على الأجيال الجديدة، جيلاً بعد الآخر؛ فلا يخرج أحد عن

المسار المرسوم، والعادات المتوارثة، والتقاليد البالية، والأعراف الجاهلية، إلا
عدَّ عاقاً لوالديه، عاصياً لربه، عدواً لمجتمعه!!! لا لشيء إلا لأنه اختار طريق الله
ورسوله، ولم ينصع للضغوط الهادفة إلى جعله أداة طيعة بيد النظام السياسي
الظالم القائم!!

ولقد نجح آل سعود في هذا المجال أيما نجاح، هم وكهنتهم الذين يحرفون دين
الله ويجيرونه لصالح أسيادهم، وكانت ولا تزال الأسرة هي أهم أسلحتهم
ووسائلهم؛ لضمان عدم خروج جيل متمرد، لديه القدرة على الاختيار والعيش
بالطريقة التي يراها منسجمة مع دين الله، وغير متطابقة مع ما هو محدد له
مسبقاً من جهة الأسرة والقبيلة والمجتمع والنظام السياسي القائم!

إن من يتدبر آي الكتاب الحكيم في هذا الموضوع سيتبين له مباشرة طاعة مَنْ
المقدّمة على غيرها، وولاء مَنْ المقدّم على غيره، وسيرى أن الوالدين غير
مقدّمين على الله ورسوله بأي حال، وأن حدود طاعتهما (أي الوالدين) هي
ضمن ما تسمح به الشريعة، لا العكس، بحيث تصبح طاعة الشريعة ضمن ما
تسمح به عادات وتقاليد الوالدين والمجتمع!!!

ولنا في خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام خير مثال وأسوة؛ فقد كان يدعو أباه
لأن يؤمن بالله ويترك عبادة الأوثان، ووعدته بأن يستغفر له، كما جاء في قوله

تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا * إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا * يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا * يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا * يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا * قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا * قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا * وَأَعْتَرِلَكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا} (مريم: ٤١-٤٨). ولكنه أبى، فلها تأكد لإبراهيم إصرار أبيه على ضلاله تبرأ منه على الفور: {وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} (التوبة: ١١٤). فلمعيار واضح، دين الله هو المعيار، ومن شذ عنه وعاداه نتبرأ منه، ولو كان أباً أو أمّاً أو ابناً أو زوجاً.

كما نهى الله تبارك وتعالى رسوله الخاتم عن الاستغفار للمشركين مهما كانت قرابة الدم بينهم وبين المسلمين، إذ الولاء لدين الله وكتابه مقدّم على كل ما عداه، يقول تعالى: {مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ} (التوبة: ١١٣). وعن

المنافقين قال تعالى ناهياً نبيه: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} (التوبة: ٨٠)، أي لا أمل في الدعاء لهم (والظاهر أنه عليه السلام استغفر لهم قبل أن يتبين له كفرهم)، ومن بعد ما تبين له، فلم يعد ليستغفر لهم. وقيل: «المقصود من هذا الكلام أن القوم لما طلبوا منه أن يستغفر لهم منعه الله منه، وليس المقصود من ذكر هذا العدد (سبعين مرة) تحديد المنع، بل هو كما يقول القائل لمن سأله الحاجة: لو سألتني سبعين مرة لم أقضها لك، ولا يريد بذلك أنه إذا زاد قضاها، فكذا ههنا، والذي يؤكد ذلك قوله تعالى في الآية: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فبين أن العلة التي لأجلها لا ينفعهم استغفار الرسول، وإن بلغ سبعين مرة، كفرهم وفسقهم، وهذا المعنى قائم في الزيادة على السبعين، فصار هذا التعليل شاهداً بأن المراد إزالة الطمع في أن ينفعهم استغفار الرسول عليه السلام مع إصرارهم على الكفر، ويؤكد أنه أيضاً قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾، والمعنى أن فسقهم مانع من الهداية». [تفسير: مفاتيح الغيب للرازي].

ولو لم يكن القصد في الآية النهي، وكان التخيير هو المقصود، على ما ذهب إليه البعض، لما جاء تأكيد النهي في سورة المنافقون: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ

لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوْ أَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ * سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ
 أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الْفَاسِقِينَ { (المنافقون: ٥-٦) . ولذا فإن الأرحح في الآيات ليس تخيير النبي في
 أن يستغفر أو لا يستغفر، بل هو نهي صريح، وتم تأكيده في آية المنافقون.

كما حرم المولى على نبيه الصلاة على من مات من المشركين والمنافقين، أو القيام
 على قبورهم، كما قال سبحانه: {وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى
 قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ} (التوبة: ٨٤)، وبغض
 النظر عن قرابة الدم، إن وجدت.

وقدم الله قول كلمة الحق والعدل عند الإدلاء بالشهادة، وفي كل حال، ولو
 كان ذلك ضد الوالدين والأقربين، يقول الحق تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا
 قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا
 أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوْا أَوْ تَعْرَضُوا فَإِنَّ
 اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا} (النساء: ١٣٥).

من هذا كله نفهم كيف أنه لا مجاملة مطلقاً في دين الله وتعاليمه وقيمه، ولا
 يقدم عليه أحد أبداً، وذلك بموجب البيعة التي يتحقق بها إسلام المرء بحق،
 والتي نصت على أن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم بأن لهم الجنة: {إِنَّ اللَّهَ

اَشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {
(التوبة: ١١١)، أي ولا النفس ولا المال مقدّمان على الله ودينه.

وقال تعالى في مسألة الولاء والبراء: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (المجادلة: 22)، أي «لا تجد - أيها الرسول - قوماً يؤمنون بالله ويؤمنون بيوم القيامة يحبون ويوالون من عادى الله ورسوله، ولو كان هؤلاء الأعداء لله ورسوله آباءهم، أو كانوا أبناءهم، أو كانوا إخوانهم، أو عشيرتهم التي ينتمون إليها؛ لأن الإيمان يمنع من موالة أعداء الله ورسوله، ولأن رابطة الإيمان أعلى من جميع الروابط، فهي مقدمة عليها عند التعارض. أولئك الذين لا يوالون من عادى الله ورسوله - ولو كانوا أقرباء - هم الذين أثبت الله الإيمان في قلوبهم فلا يتغير، وقواهم ببرهان منه ونور، ويدخلهم يوم القيامة في جنات عدن تجري من تحت قصورها وأشجارها

الأنهار، ما كثر فيها أبداً، لا ينقطع عنهم نعيمها ولا يفنون عنه، رضي الله عنهم رضا لا يسخط بعده أبداً، ورضوا هم عنه لما أعطاهم من النعيم الذي لا ينفد، ومنه رؤيته سبحانه، أولئك الموصوفون بما ذكر جند الله الذين يمثلون ما أمر به، ويكفون عما نهى عنه، ألا إن جند الله هم الفائزون بما ينالونه من مطلوبهم، وبما يفوتهم من مرهوبهم في الدنيا والآخرة». [الجمهرة: معلة مفردات المحتوى الإسلامي]. وقال تبارك وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} (التوبة: ٢٣).

إن مجتمعاً مثل المجتمع المسعود، والذي هو في غالبته مجتمع جاهلي عنصري رجعي، -يأخذ من الدين ما يعجبه ويترك ما لا يعجبه ولا يتناسب مع بقاء الطغيان والاستبداد وأسرّة الغضب والكفر والإجرام (أي أسرة آل سعود)-، كان باستمرار يولي مسألة بر الوالدين (أو بالأصح عبادة الوالدين) الاهتمام الأكبر، والتركيز الأشد، حتى إنه يقال في تلك البيئة، وأنا عشت فيها سنين طويلة من عمري: "لو أمر الأبُّ ابنه أن يلقي نفسه في النار، فليس له أن يعصيه!". وكَم من بيوت وزيجات أُفشلت ودُمّرت، وأبرياء ظُهِلوا بسبب مفهوم البر المشوّه هذا، فإن لم يكن هذا هو الشرك الذي حذر الله منه، فما هو إذاً؟!

ولذا كان سهلاً على آل سعود سوق هذا الشعب إلى حيث ما أرادوا على مدى عقود، لا بل قرون... ونرى كيف أنه ما إن يخرج أحد الشباب أو الشابات معلناً معارضته لآل سعود وكفره بهم، حتى تُعلن في المقابل الحرب الشعواء عليه، بدءاً من الوالدين والأسرة والقبيلة، وحتى المجتمع كله، بوحى من الشياطين الحاكمين وكهنتهم... فلا يتركون تهمة في الكون كله، ولا فحشاً في القول، ولا سباً، إلا ويصبون به ضده، لا شيء إلا لأنه قرر أن يتحرر من عبودية الخلق ليعبد خالق الخلق وحده، كافراً بكل من يعطي لنفسه صفات هي لله حصراً وحده.

ولم يقصّر المحرّفون، ولم يألوا جهداً عبر العقود -لا بل القرون- الماضية في سعيهم الدؤوب لتحريف النص القرآني بكل الطرق، حتى وصل بهم الكفر والفجور إلى حد نسخ بعض آي الكتاب العزيز بروايات بشرية تُنسب إلى النبي الكريم ﷺ، رغم مخالفتها الواضحة لكتاب الله؛ كاشتراطهم رضا وإذن الوالدين لمن أراد الجهاد في سبيل الله بكل السبل، رغم عدم وجود نص قرآني بذلك، بل إن ذلك يعد من الصد عن سبيل الله!!

ذلك لأن المسلم لا يحتاج إلى إذن والديه ليجاهد في سبيل الله، ولا يحتاج إلى تصريح من أي جهة كانت، طالما الأمر الإلهي موجود، كما في قوله تعالى في

حالة النفير العام للقتال في سبيله (والذي لا يكون إلا لرفع ظلم، أو دفع عن النفس، أو نصرة للمستضعفين، ورفع الإكراه عن العالمين): {انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (التوبة: ٤١)، ولم يستثن إلا هذه الحالات، كما جاء في قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} * وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ} * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} (التوبة: ٩١-٩٣).

وفي قوله سبحانه: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَْعَذِبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا} (الفتح: ١٧).

وذم المولى تعالى من قَدَّم الآباء والأبناء والأموال على الجهاد في سبيله: {قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ

فِي سَبِيلِهِ قَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ۚ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ } (التوبة: ٢٤).

وما من شك أن معارضة الظالمين الغاصبين ومواجهتهم بكلمة الحق داخل في صميم معنى الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمته في الأرض؛ لذا كان الخروج وإعلان رفض الظلم وقول كلمة الحق واجباً على كل مسلم، ولا يسقط عنه ذلك الواجب بحجة أن الوالدين رفضاً، وأن برهما يوجب طاعتهما في الامتناع عن الخضوع للأمر الإلهي!!! هذا إذاً تقديم لهما على الله ورسوله، ومن قدم وأطاع قول غير الله على قول الله فهو مشرك بنص القرآن: {وَأَنِ اطَّعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ} (الأنعام: ١٢١).

إن تحرير مفهوم بر الوالدين مما لحق به من تحريف وتشويه على أيدي كهنة آل سعود لهو، في نظرنا، من أهم الخطوات الثورية الجذرية باتجاه تحقيق التغيير الفكري الجمعي في الجزيرة العربية، وكل مكان وجد فيه مثل هذا التشويه لمفهوم بر الوالدين، والذي سيؤدي بدوره إلى التغيير الفعلي على أرض الواقع، بما يشمل تغيير النظم السياسية الوراثة الغاصبة عبر اقتلاعها من جذورها، تمهيداً لإقامة الجمهورية الإسلامية في الجزيرة العربية، والتي تقوم على أسس الاختيار والرضا والشورى ضمن حاكمية الله عز وجل.

ذلك لأنه يستحيل أن تخرج أجيال ثورية متمردة على الظلم والقهر والفساد والإجرام والكفر، ما لم تتحرر من القيد الأعنى والسلاح الأخطر بيد آل سعود وكهنتهم، والذي هو (مفهوم ير الوالدين المشوّه)، الذي استطاع الغاصبون المفسدون في الأرض أن يستغلوه أقدر استغلال؛ لتقييد الجماهير المسلمة وإخضاعها، وتحويل الآباء والأمهات من مربين مصلحين مرشدين إلى الخير؛ يأمرّون أبناءهم بالمعروف (وقول كلمة الحق ونصرة المستضعفين أعظم المعروف)، وينهونهم عن المنكر (والظلم والسكوت عنه أفظع المنكرات)، إلى حراس يحرسون السجن الكبير الذي اسمه "السعودية"؛ لخدمة بقاء حكم الطاغوت إلى أطول أمد ممكن.

ولكن هيات أن يتم للظالمين ما أرادوا، وللجماهير موعد مع الحرية، وإن طال الانتظار؛ لكن ليس قبل الثورة الفكرية الجذرية التي نعمل بكل طاقاتنا، وسخرنا لها كل وقتنا لإشعالها، ثم إبقائها مشتعلة لا تنطفئ، كما هو نور الإسلام الذي لا ينطفئ، وثورته المستمرة غير المنقطعة أبداً.

البيعة: لمن تكون؟

من أكثر المفاهيم التي تعرضت للتلاعب والاستغلال والتشويه من قبل آل سعود وكهنتهم المحرّفين وعبيدهم المناكيد، منذ تأسس الكيان السعودي الغاصب للعين، وإلى يوم الناس هذا، وحتى يوم زواله، هو مفهوم البيعة... والتي هي المعاهدة والالتزام والميثاق على السمع والطاعة لله ورسوله في المنشط والمكره، وتنعقد للمرء مع إسلامه.

والمأمل في كل الآيات (وهي أربع) التي ورد فيها هذا المفهوم، سيلاحظ أنها إنما وردت، أينما وردت في القرآن، مع الله وحده، كما في قوله: {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} (التوبة: ١١١). ومع رسوله (ص)، بوصفه الرسول المبلّغ عن ربه، والنبي القائد لمجتمعه، فتكون مبايعة الناس له حينئذ إنما هي، في حقيقتها، بيعة لله ولرسالته، كما في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ

أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمُيَسَّرٌ لِّهِ أَجْرًا عَظِيمًا} (الفتح: ١٠)، وقوله: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا} (الفتح: ١٨)، وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعَصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْنَهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (الممتحنة: ١٢).

وهي (أي البيعة) عهد والتزام من قبل المسلمين بالولاء التام لله تعالى وللرسول، حامل الرسالة الإلهية، وطاعة كل ما يأمرهم به عن ربه، ونصرة دعوته، والسعي لتمكينها، والذود عنها في الأرض، وعدم التخلف عن ذلك، لا بالمال ولا بالنفس.

فلاحظ في كل هذه المواضع التي ورد فيها مفهوم البيعة أنها كانت حصراً لله ورسوله، وهي مقتضى الإسلام والإيمان، بمعنى أن من أسلم وآمن فقد بايع الله ورسوله بالضرورة، وسلوكه في الحياة هو الذي يثبت ذلك أو ينفيه بعد ذلك.

وهذا يعني أن البيعة تستمر مع الإنسان ما دام مسلماً صادقاً مخلصاً متجرداً لدين الله، ولا تُنقض ولا تُجدد ولا تُورث؛ ذلك لأنها إنما تتم بالاختيار بعد اقتناع

(إذ إن الاختيار هو شرط صحتها الأهم). وعليه، فكل إنسان ملزم باتخاذ القرار بنفسه عند بلوغه سن الوعي والإدراك والرشد.

والبيعة من البيع، فأنت حين تقول: بعت شيئاً، فإنك لا تملك استرداده، ومن يشتري فهو متصرف بالشيء المشتري كما يرى. وعند تطبيق ذلك على الإنسان، فإنه لا يملك أن يتعامل معه على هذا الأساس إلا خالقه وحده لا سواه، ورسوله بما يبلغ من أمر ربه.

ومن هنا كان اقتصار البيعة على الله ورسوله واضحاً صريحاً في كل الآيات المتعلقة بموضوع البيعة، بما هي عقد أو عهد يبيع به الإنسان نفسه لله وفي سبيله، فينصر رسالته وحامل تلك الرسالة بكل ما أوتي من قوة، ولو قاده ذلك للموت في سبيلها وسبيل تمكينها والدفاع عنها.

وهذا ما تم حينما بايع المؤمنون الرسول في بيعة الرضوان على الموت في سبيل أن ينصروه ودعوته، عليه الصلاة وأزكى السلام، وألا يتراجع أو ينكث أحد منهم. وهذا ما تم أيضاً حينما بايعته المؤمنات "عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئاً وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبَهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعَصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ". والنبي لا يأمر بغير المعروف، والمعروف هو ما عرّفه أو استحسّنه أو أقرّه الشرع، ممثلاً بالنص القرآني المعظم وحده.

وبالتالي؛ فإننا نلاحظ، من خلال كل ما تقدم، ما يلي:

١- أن المبايعة (العهد والالتزام بالسمع والطاعة) تتم من قبل المؤمنين لله ورسوله، مقابل رضا الله وجنته "بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ..".

٢- أن المبايعة محصورة بالله ورسوله، ويتم بالاختيار بعد الاقتناع، ولا إكراه فيها مطلقاً، ولا تنطبق على غيرهما.

٣- أن المبايعة تتعقد بانعقاد الإسلام.

٤- أن المبايعة لا تُجَدِّد ولا تُورَث، ولا يجوز أن تُنْقِض، وإلا انتقض إسلام المرء، ومات ميتة جاهلية.

كما يجدر بنا، بعد ما تقدم، أن نوضح أيضاً ما التبس على كثير من الإسلاميين في عصرنا؛ حيث يعتبرون عملية انتخاب الحاكم أو النائب في مجلس الشورى مرادفة للبيعة الواردة في كتاب الله، وهذا خطأ فاحش وجهل بدين الله فاضح.

إذ لا علاقة مطلقاً بين العملية الانتخابية، التي يكون المنتخب بموجبها خاضعاً لما أقسم بالحفاظ عليه، وملزماً بالقيام بما وعد في حملته الانتخابية بالقيام به، ويكون، في حال الإخلال بذلك، عرضة للعزل والعقاب، كما أنه لا يُطاع طاعة مستقلة (عن الله ورسوله) ولا مطلقة، ولا حق له في التشريع المطلق...

إنّ، بل إنه هو بنفسه ملزم بأن يكون مبيعاً لله ورسوله قبل خوضه الانتخابات، لا أن يبيع الناس أو هم يبيعونه (هذا فهم محرف ومعكوس لدين الله)؛ ذلك لأن الطرفين، الجمهور والمرشحين، مطالبان بالبيعة منذ إسلامهما، على حد سواء، لكن ليس لبعضهما، وإنما لله ورسوله... (ونحن نتكلم هنا عن مجتمع إسلامي في كيان إسلامي).

نقول إنه لا علاقة بينها (العملية الانتخابية) وعملية المبيعة، كما نص عليها القرآن، والتي تعني بيع الإنسان نفسه وكل ما يملكه لله ورسوله، أي في سبيله، تبارك وتعالى، الذي وضع معالمة وبينه في رسالته الخاتمة والمحفوظة في كتابه العزيز الخاتم المحفوظ، بحيث لا يكون له الحق في الاعتراض أو العصيان، وإنما هي طاعة مطلقة لكل ما أنزل في كتاب الله، تبارك وتعالى.

وعليه؛ فإننا ندعو كل الإسلاميين حول العالم إلى تصحيح هذا الانحراف الخطر، والحذر والتنبه من الخلط بين عملية انتخابية أو عقد دستوري بشري يكون خاضعاً للنقد والاعتراض والتجديد والتطوير والتبديل، وبين البيعة التي لا مجال فيها للتطوير ولا للتعديل ولا للتبديل والتجديد؛ ذلك لأنها بيعة بمعنى الكلمة (وبيع الشيء يكون مرة واحدة لا تتكرر)، بحيث لا يكون الإنسان فيها، ضمن أوامره تعالى، مالكا لنفسه، أو يكون له مباحاً أن يؤثرها على نصره دين

الله بما هو دين العدل والحرية والمساواة والشورى ونصرة المستضعفين، وقول كلمة الحق، ومجابهة الظالمين والمفسدين والمحاربين لله ورسوله.

لا بد، من الآن فصاعداً، أن يكف عبيد آل سعود والطواغيت في كل مكان عن استخدام مفهوم البيعة بمعنى مبايعة الحاكم على السمع له والطاعة (أي بيع أنفسهم له)، كما لو أنه إله مع الله؛ لأنه لا بيعة إلا لله. وعليه، فلا معنى لقول المسعودين: "في رقابنا بيعة لآل سعود"، لأن استخدام اللفظ هنا استخدام شيطاني خبيث، قصده تحريف الدين وتعبيد المسلمين، وبيعهم لشراذم من الغاصبين، المفسدين، المستبدين، الوراثيين، الإقطاعيين، العنصريين، المجرمين.

وليكف الإسلاميون كذلك عن الخلط بين العقود الإنسانية الخاضعة للنقد والمراجعة والتبديل، وبين العقد مع رب العالمين ورسوله الكريم، والذي لا مجال فيه لنقضه (إلا بانتقاض الإسلام كله)، ولا تجديده، ولا الاعتراض عليه، ولا توريثه.

إن البيعة لله ورسوله (حامل ومبلغ رسالته) هي المعنى الأصيل للإيمان الحقيقي بالله عز وجل، والتسليم التام له، والطاعة المطلقة لأوامر رسالته، وأحكام شريعته الغراء. وإن من نكث هذا العهد فإنما ينكث على نفسه، لقوله

تعالى: "فَمَنْ نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ"، فهو الخاسر والظالم لنفسه، والله غني
عن الخلق أجمعين.. والحمد لله رب العالمين.

طاعة ولي الأمر.. من طاعة الله ورسوله!!!

لا يفتأ محرّفو الدين من كهنة السلاطين عبّاد الشياطين يحرفون كلام الله، ويزيغون أفهام المسلمين تليدساً وتضليلاً وقلباً لدلالات النصوص الواضحة، كل ذلك في سبيل رضا حكام الجور والتغلب والتوريث وأعوانهم معهم، وفي سبيل استمرارهم يتحكمون في مصائر الناس وحقوقهم وحرّياتهم. فمن ذلك قولهم: إن طاعة ولي الأمر جزء من طاعة الله ورسوله، أي إنه من يطع ولي الأمر فقد أطاع الله! ثم يستشهدون بقوله عزّ من قائل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا {النساء: ٥٩}، ظناً منهم أن خداعهم ذا سينطلي على الناس كلهم.

ومن يقرأ الآية بقلب سليم وحد أدنى من فهم العربية لن يجد أدنى صعوبة في ملاحظة أنه لم يرد أصلاً فعل (أطيعوا) خاصاً بأولي الأمر في الآية ولا في أي آية من أي الذكر الحكيم، وإنما عُطفت على طاعة الرسول، ما يدل دلالة واضحة على أن أولي الأمر لا يطاعون لذواتهم ولا في كل ما يصدر عنهم، وإنما ما

داموا طائعين هم أنفسهم لله ورسوله، غير متجاوزين حدود ما شرعه المولى تعالى في كتابه. والآية نصت على (أولي الأمر) لا (ولي الأمر)، ما يعطي دلالة واضحة لا لبس فيها على أنهم جمع من الناس، كل الناس، لا فرد أو فئة أو حزب أو أسرة أو سلالة معينة دون غيرها.

ثم هم (أي: أولو الأمر) يجب أن يكونوا «منّا» لا «علينا»، وهم منّا عندما نكون قد اخترناهم، وهم علينا إذا لم نختبرهم وفرضوا علينا بالقهر والتغلب والتوريث. وسبيل ذلك في عصرنا (أي السبيل نحو أن يكون أولو الأمر منّا) هو بآليات الديمقراطية الحديثة، عبر صناديق الاقتراع والتصويت الحر والمنافسة العادلة والفرز النزيه للأصوات، وبمراقبة الناخبين أنفسهم. ثم نصّت الآية بعد ذلك على احتمال وقوع نزاع بين أولي الأمر المنتخبين المفوضين وبقية المسلمين الناخبين المفوضين: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا}؛ فدلّ على عدم معصوميتهم أو قداستهم، وأن احتمال ورود النزاع وإمكانيته لا يفهم ولا يُتخيل إلا بتصور بيئة حرة تتدافع فيها جميع القوى والتيارات والأحزاب السياسية بسلمية وحرية وبسقف عالٍ لا يحده سوى حدود الشرع. فإذا وقع النزاع، فالرد حينئذ يكون إلى الله تعالى ورسوله، والرد إلى الله أي إلى كتابه، ولا يتم

ذلك إلا عبر رسوله الأمين حامل الرسالة ومبلّغها بالتمام دون زيادة أو نقصان، لذلك أضاف (ورسوله) لا على أساس استقلاله بالتشريع، بل باعتباره المتلقي والمبلّغ والمطبّق والمعلّم الأول للتشريع الإلهي. فإن كان النزاع على أمر ورد به نص قرآني فيقدّم النص وينهى النزاع على الفور، لقوله تعالى: {إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ} (يوسف: ٤٠)، وقوله: {وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۚ} (المائدة: ٤٩)، وقوله: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّوْا تَسْلِيمًا} (النساء: ٦٥).

وإذا كان تحكيم النبي ﷺ في حياته واجباً بنص الوحي، فالسؤال الجوهرى الذي يغيب عن الأذهان هو: بماذا كان يحكم ﷺ؟ أليس بكتاب الله؟

فإن كان كذلك، وهو كذلك، فتحكيمه بعد وفاته لا يكون إلا بالرجوع إلى ما كان يحكم به هو، أي إلى كتاب الله . هكذا نطيعه، وهذا هو هديه ﷺ الذي لم يكن إلا استنباطاً من القرآن وامثالاً له؛ إذ لم يكن ﷺ يحكم إلا بما أنزل الله عليه، ولا يتحاكم إلى غيره، ولا يخالف شيئاً مطلقاً من هدى القرآن العظيم: {وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُيَمِّنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ۚ} (المائدة: ٤٨).

وهذا السياق يوضح المعنى الذي قلناه، يقول تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَكَّمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا * وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا * فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْفُونَ بِاللَّهِ إِنَّ أَرْدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا * وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا * فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} (النساء: ٦٠ - ٦٥).

ويقول تعالى في سورة الأحزاب: {وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ وَلَا الْمُؤْمِنَةِ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} (الأحزاب: ٣٦)، «ولكلمة الرسول معنيين، الأول الرسالة، والثاني حامل الرسالة (المفردات مادة رسل)، ووظيفة الرسول هي تبليغ الرسالة بدون زيادة أو نقصان. ولأن الناس لا يمكنهم سماع كلام الله مباشرة منه سبحانه، كان لا بد من بعث الرسل لتبليغهم رسالته، لذلك لا يمكن أن

يكون كلام الرسول مصدرا ثانيا للتشريع؛ لأنه مبلغ عن الله تعالى رسالته وليس شريكا له فيها. لذا فإن ورود مصطلح (رسول الله) في القرآن يسلط الضوء على آيات القرآن، وأول المخاطبين لامثال تلك الآيات هو محمد صلى الله عليه وسلم» [أ. د. عبد العزيز بايندر].

فتحكيمه صلى الله عليه وسلم إذن يتحقق بتحكيم كتاب الله، أي عندما يكون المرجع التشريعي الأعلى هو كتاب الله (حاوي رسالته)، وألا يتعدى أو يمس أحد من أولي الأمر المنتخبين في كل التشريعات والقوانين الصادرة عنهم في مجالس الشورى حداً من حدود الله، أو يحل أو يقنن محرماً من المحرمات في كتاب الله. فالحرام هو ما حرمه كتاب الله، وهو عين ما حرمه الرسول، إذ ليس له صلاحية التحريم أو التحليل لا زيادة ولا إنقاصاً، وإنما هو مبلغ ومتبع ومعلم ومطبق ومجتهد لزمانه وظروفه الموضوعية، لا أكثر ولا أقل.

والقاعدة الأصولية في الحلال والحرام هي: «الأصل في الأشياء (وتشمل الأفعال) الإباحة إلا ما ورد النص القرآني بتحريمه نصاً أو استنباطاً من النص بشكل قطعي. وهذا التفصيل لا بد منه حتى لا يأتي أحدهم ويدعي -على سبيل المثال لا الحصر- أن نكاح الجدة من طرف أبوي الزوجة مباح، أو مباح

الجمع بين المرأة وعمتها أو خالتها في النكاح، أو إباحة نكاح الأحفاد، لانتفاء وجود نص صريح لفظاً بذكر هؤلاء.

ونص تحريم النكاح هذا: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبنَاتُ الْأَخِ وَبنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّن الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي جُورِكُمْ مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ يَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِّنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا} (النساء: ٢٣). وتم تحريم المذكورين بناء على فهم أبعاد النص ودلالات الكلمات منطقياً ولسانيا وما يلزمها.

فتحريم الجدات تم من فهم تحريم نكاح الأمهات لأن الجدات هن أمهات عليا. وتم تحريم الحفدة من فهم تحريم نكاح البنات لأن الحفدة هم أبناء نزولا، وابن الابن ابن، وهكذا.

وتم تحريم جمع المرأة وعمتها أو خالتها في نكاح واحد فهما من تحريم جمع الأختين في نكاح واحد لأن علة التحريم هي الرحم المشترك، وهذا رأي التراث. أما رأيي وفهمي فالقياس والاستنباط خطأ، لأن العمة والخالة من الأصول ولا يصح قياسها على الفروع (الأختين)، والصواب أن تلحق العمة

والخالة بأم الزوجة (الحماة) ويأخذن حكم تحريم النكاح الأبدي مثل تحريم أم الزوجة» [سامر إسلامبولي].

والتحكيم أيضاً في القضاء، ومعلوم أن القاضي إنما يحكم تبعاً للقوانين الصادرة عن مجالس التشريع الشورية (أولي الأمر)، فإذا كانت هذه المجالس الشورية ملتزمة بحاكمية الشريعة (النص القرآني)، وكان كل ما يصدر عنها من قوانين موافقاً، أو على الأقل لا يخالف النص القرآني، كان القضاء عندئذ شرعياً.

وإذا كان النزاع على أمر لم يرد به نص قرآني، ويحتمل الاختلاف وتعدد وجهات النظر، وكان أمراً من المباحات عامة، فيُحال إلى التصويت العام، أي إلى الأصل (الشورى): «وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ» / «وَشَاوَرَهُمْ فِي الْأَمْرِ»، إن كان لا بد من إصدار قانون ما بشأنه، أو يُترك الناس وأمرهم إن كان عائداً لأمر شخصي خاص بكل إنسان، فيقرر كل إنسان ما يناسبه.

وكل ذلك بما يتناسب مع كل بيئة وظروفها وواقع وأحوال الناس فيها. ولذلك كان النظام السياسي الإسلامي أميل إلى اللامركزية، ومستوعباً للأنماط المختلفة، الفيدرالية والكونفدرالية، وداعياً إلى تعدد مجالس الشورى تبعاً لتعدد واختلاف البيئات والظروف والأعراف.

ولودّوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم!

ويستشهد بعضهم أيضاً بآية (النساء: ٨٣) على أن الرد يكون لأولي الأمر، وما للناس أي قيمة ولا اعتبار، لمزيد من التلبس على عامة المسلمين خدمة لعروش الغاصبين^ط المجرمين، والآية كاملة هي: {وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا} (النساء: ٨٣).

وواضح من الآية أنها تتحدث عن قضية تتعلق بأمن الدولة الإسلامية، وهي قضية جد حساسة وجد خطيرة. فالقضية إذاً عسكرية في جوهرها، بدلالة قوله تعالى: «أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ»^ط، وبدلالة السياق الذي جاءت الآية ضمنه: {مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا * وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِنْدِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا * أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا * وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي

الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا قَلِيلًا * فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى اللَّهِ أَنْ يَكْفَ بِأَسِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا (النساء: ٨٠ - ٨٤).

فإذاعة شائعات الخوف دون تبيين وتثبت ستثير ذعر المجتمع، وإذاعة شائعات الأمن أيضاً قد تؤدي إلى التراخي والتهاون والتساهل، مما يجعلنا عرضة لمباغطة العدو. فالأمران خطيران، ثم سياق الآيات قبلها وبعدها، كما عرضنا، يؤكد ذلك. وهي في فئة من المنافقين أو من اتبعهم من ضعاف النفوس في المجتمع المسلم.

وأيّاً ما يكون؛ تكمل الآية: {وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ}.. وهنا لنا وقفة:

أولاً: الرسول كشخص محمد عليه الصلاة والسلام ليس بيننا، ولكن الشيء الذي أصبح به محمد بن عبد الله رسولاً موجود بيننا ومحفوظ بأمر الله، وهو كتابه العزيز. وهدي الرسول الأكرم لا يخرج عن دائرة ما أنزل عليه، وهو أول مأمور باتباعه. فهديه هو القرآن؛ من سار على ذلك كان مهتدياً بهديه، مقتفياً أثره، مستنئاً بسنته.

وما وصلنا مما نُسب إليه من روايات كثيرة، الحكم والمعيار في الثبوت من أنها صدرت عنه صلى الله عليه وسلم هو القرآن.

فما وافقه، وما لم يتعارض مع ظاهر نصوصه، أخذنا به استثناساً. وما عارضه، عرفنا أنه إما أُصيب بالتلاعب: الزيادة أو النقصان - سواء بحسن نية أو بسوء نية - أو أنه لم يقله أبداً. وفي الحالتين، لا نأخذ سوى ما وافق الكتاب ولم يتعارض مع ظاهر نصوصه، كونه الذي أُكِل به الدين، وهو المحفوظ من أي تحريف. فالرد هنا إنما يكون بهذا الشكل: أي إلى كتاب الله (الرسول الحي)، وهو الكتاب المهيم على كل ما سواه. وهدي الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - إنما كان هذا القرآن؛ هديه، وحياته، وأخلاقه، وسيرته.

الأمر الثاني: تقدّم أن عرضنا لموضوع أولي الأمر وحدود طاعتهم، فعرفنا أن أولي الأمر هم جماعة، وليس فرداً أو فئة أو أسرة أو طائفة أو حزباً، وهم من الأمة، أي باختيارها، فهم ممثلو الأمة، وأن طاعتهم ليست لذواتهم، وإنما مشروطة بطاعة الله ورسوله، وأن النزاع معهم وارد، ما ينفي العصمة أو القداسة عنهم وعن ما يصدر عنهم، وهو ما يؤسس لنظام شوري تعددي تداولي يميل إلى اللامركزية، تتوزع فيه السلطة بين أكثر من جهة أو مجلس. وهذا يتسق مع قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ

شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون} (الشورى: ٣٨) أي أن «الأمر» (أي السلطة والتدبير والقرار أو الملك العام) ليس بيد فرد واحد، بل شورى بين الأمة، يمارس بالشراكة والتمثيل لا التفرد والاحتكار والتوريث.

وفي الآية محل البحث (النساء: ٨٣)، جاء نفس التعبير «أولي الأمر منهم»، وهذا يعزز نفس المعنى الذي في الآية (٥٩)، أن «أولي الأمر» ليسوا مفروضين، ولا فوق الأمة، بل هم منها، نابعون منها، مرتبطون بها. فهم إذن نفس أولي الأمر المنتخبين، أي إنهم ليسوا فئة معزولة عن الأمة، أو فوقها، أو مفروضة عليها، أو معصومة من الخطأ. ولكن المختلف في هذه الآية فقط، هو هذه الزيادة الدقيقة والهامة، وهي: «لَعَلَّهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ».

هذا الجزء دقيق جداً، ويؤكد أن الاستنباط الأمني والعسكري له جهة مختصة، ليست كل الأمة تحسن تقديره، بل «الذين يستنبطونه»، أي الخبراء المختصون في هذا الجانب. وهذا يؤسس لمفهوم اللجان المتخصصة داخل النظام السياسي الشورى، مثل: لجنة الأمن والدفاع، لجنة الشؤون الخارجية، لجنة التقدير الاستراتيجي.. إلخ.

فتزيد هذه الآية تفصيلاً غاية في الأهمية، وهو: تقسيم مهام أولي الأمر في مجالس الشورى عبر لجان مختصة، تتشكل من الخبراء والمختصين كل في مجاله.

وهنا، في الآية، الحديث في المقام الأول عن الأمن والاستعداد العسكري للمجتمع الإسلامي، خاصة في سياق الحرب. ففي هكذا حالات، ليس كل ما يسمع يذاع، وإنما يرد إلى كتاب الله (الرسول الحي)، الذي وجه برده إلى أولى الأمر، الذين هم من الأمة، أي مختارون منتخبون، ليعلمه المختصون منهم من لجان الاختصاص المختلفة في مجالس الأمة المنتخبة، ثم يصدرون هم الرأي والقرار المستند إلى ما لديهم من علم ومعرفة وخبرة واختصاص في الأمر المحدد.

وهذه الآية هي جزء تفصيلي لا يمكن أن ينتزع لوحده من إطاره العام، الذي يشكله الكيان الإسلامي الحقيقي، القائم على الشورى والاختيار ومرجعية الوحي، ليوظف في غير محله. وعليه، فإن محاولة استغلال هذه الآية وإسقاطها على واقع غير إسلامي أصلاً، يقوم على احتكار الحكم وتوارثه والاستبداد به، وعلى قهر الناس ومنعهم حقوقهم التي قررها وأوجبها الشرع، هو عين التحريف والاقتراء على رب العالمين.

طاعة الله وطاعة رسوله: هل هنالك فرق!

وهنا بودّي أن أوضح جملة من الأمور، عن طريق الإجابة عن بعض الأسئلة فيما يتعلق بالفرق بين طاعة الله وطاعة رسوله، فقد وردتني أسئلة كثيرة عن هذا الأمر بعد أن بينّا في نقاشات سابقة مع بعض تلامذة الأستاذ أحمد السيد والأستاذ عبد الله العجيري، أن طاعة الرسول هي نفسها طاعة الله، لأن (المرسل / الرسول) حاملٌ لكلام المرسل، لا يزيد عليه ولا ينقص منه شيئاً، وطاعته بالتالي هي طاعة للمرسل نفسه (الله جلّ وعلا).

فكان أكثر الأسئلة تكراراً هو: لماذا إذن ذكر الله والرسول معاً؟ ولماذا في الآية نفسها (النساء: ٥٩) يقول الله عز وجل: «فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ»؟ أليس معناه وجود ردّ إلى الله وردّ آخر إلى الرسول؟ وكأن هناك جهتين يُردّ لهما الأمر؟

فقلت مستعيناً بالله: لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم هو الواسطة بين الناس وربّهم؛ فالتناس لم يسمعوا كلام الله مباشرة منه، وإنما عبر رسوله، ومن خلاله عرفوا وعرفنا جميعاً كيف يُعبّد الله وكيف يُطاع على الوجه الذي

يرضاه. لذا، من البديهي أن يُذكر الرسول لا بكونه مستقلاً عن الله أو يشرع من دونه، بل بكونه حامل الرسالة والناطق الأول بها ومبلغها بالتام والكمال، وصاحب أول تطبيق لها في حدود زمانه ومكانه وظروف مجتمعه حينئذ. ولو لم يُذكر مع الله لما قوبل بالاهتمام من الناس، ثم إن السؤال الذي يطرحه كل من التقى بالرسول ودعاه إلى طاعته هو: بماذا أرسلت؟ لأن الرسالة جوهر الموضوع كله.

إذن، فذكر الرسول مع الله لا يعني استقلال الرسول بالتشريع، بل لكونه الناطق به. فكان الرد إلى الله يمر عبره بوصفه حامل الرسالة ومبلغها ومطبقها، ولم يتوفَّ حامل الرسالة إلا بعد إكمالها وجمعها وحفظها، وتلك كانت جوهر وظيفته صلى الله عليه وسلم.

وصار الرد إلى الله ورسوله بعد ذلك متمثلاً بما أتمّه وبلغه الرسول نفسه، أي صار الرد متمثلاً بالرسالة ذاتها المحفوظة في كتاب الله العزيز باعتبارها الرسول الحي المستمر، وباعتبارها المعيار والميزان والكتاب المهيم على كل ما عداه، بما في ذلك الروايات الواردة عنه صلى الله عليه وسلم، حيث لا تُؤخذ إلا بعد موافقتها للقرآن. فكان من اكتفى بالقرآن لم يفته شيء من دين الله ولم ينقص منه مثقال ذرة.

إذن، فالرد إلى الله إنما يكون عبر رسوله، أي حامل ومبلغ رسالته والناطق الأول بها (ولذا اقتضى منطقاً وبداهة ذكره).

وكان الرسول في زمن تنزل الوحي هو الممثل الحصري له، كونه أول ناطق به والمأمور الأول بإبلاغه واتباعه وتطبيق ما جاء به ضمن ظروف الواقع الذي عاشه النبي ومن معه في ذلك الوقت.

ثم بعد اكتمال الرسالة بانتهاء نزول الوحي، توفي النبي بعد ذلك بفترة قصيرة لانتهاء مهمته {مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ} (المائدة: ٩٩).

فأصبحت صفة «الرسول» والطاعة المتعلقة بها (وأطيعوا الرسول) - والطاعة متعلقة دائماً بالحي - تتمثل في الرسالة نفسها؛ والرسالة أو «الرسول الحي» هي محل الطاعة والاتباع في الجوهر والأصل: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} فالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ

وَرَسُولُهُ النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبَعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ {
(الأعراف: ١٥٧ - ١٥٨).



لذا فقول بعضهم: ولكن القرآن قال: «وأطيعوا الرسول»!!؟

يُردُّ عليه بالآتي: ومن هو الرسول في القرآن؟

والجواب: هو النبي محمد عند نطقه بالقرآن، لذا وصفه تعالى بأنه حين نطقه به:
{وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} (النجم: ٣-٤).

وليس أن كل ما ينطق به وحى من الله، وإنما فقط عند نطقه بالقرآن.

وفي هذا السياق أورد ما جاء في كتاب عبد الله العجيري (زخرف القول)،
وكلامه هنا هو ذات كلام أحمد السيد في كتابه (تثبيت حجية السنة ونقض
أصول المنكرين)، لا فرق بينهما، وردنا عليه كان بالشكل التالي:

١- العجيري: «كل ما يصدر عن النبي كالقرآن، كلاهما وحى منزل وملزم».
ص (٢٢).

٢- العجيري في تبريره لقصة تأبير النخل وخطأ رأي النبي ﷺ فيها: «إنما قاله
من عنده ظنا وليس عن الوحي». ص (٤٦).

٣- العجيري: اجتهاد النبي ﷺ عرضة للخطأ والصواب، والحكم النهائي والمصحح هو الوحي (أي هنا: القرآن). ص (٤٥، ٤٦).

نستنتج من كلامه الآتي:

١- ليس كل ما ينطق به النبي وحيا.

٢- إذن، قول العجيري إن «كل ما يصدر عن النبي كالقرآن، كلاهما وحي منزل وملزم» هو قول خاطئ، وبما أن المصحح دائما هو القرآن، فالهيمنة للقرآن في نهاية المطاف.

وقوله في صفحة رقم (٢٢): «فما حرمه رسول الله هو كالحرم بالقرآن» قول باطل هو الآخر وساقط، والصواب أن يقول: «ما حرمه رسول الله هو عين ما حرمه الله، بلا زيادة ولا نقصان، وما الرسول إلا مبلغ ومطبق للتشريع الذي يتلقاه عن ربه، لا مشرع بالاستقلال عنه».

٣- المقصود بقوله تعالى {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ} (النجم: ٣-٤)، هو حين ينطق النبي بالقرآن حصرا، لا بكل ما يصدر عنه من أقوال أو تصرفات أو تقريرات. وهذا ليس قولي أنا، بل هو قول جملة من المفسرين أيضا؛ منهم جمال الدين القاسمي، حيث قال: «{وَمَا يَنْطِقُ عَنِ

الهوى}: أي وما ينطق بهذا القرآن عن هواه ورأيه. {إن هو إلا وحي يوحى}: أي ما هذا القرآن إلا وحي من الله يوحى إليه. والضمير عائد على القرآن؛ لفهمه من السياق، ولأن كلام المنكرين كان في شأنه. وأرجعه بعضهم إلى ما ينطق به النبي مطلقا، واستدل به على أن السنن القولية من الوحي. والصواب هو الأول، أعني: كون مرجع الضمير للقرآن، وذلك لما ذكرنا؛ فإنه رد لقولهم: «افتراه»، والقرينة، كما هو معلوم، من أكبر المخصصات. وجلي أنه صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يقول بالرأي في أمور الحرب وأمور أخرى، فلا بد من التخصيص قطعاً.

ومنه رشيد رضا: «{وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحي يوحى}: هذا في القرآن خاصة، وإلا كان كل كلامه -عليه الصلاة والسلام- وحيا، وقد ورد أن الوحي كان ينقطع أياما متعددة، وأنه كان يسأل عن الشيء فينتظر الوحي». وكذلك الجوزي في تفسيره: «{وما ينطق عن الهوى} أي: ما يتكلم بالباطل؛ وذلك أنهم قالوا: إنه يقول القرآن من تلقاء نفسه. {إن هو} أي: ما القرآن إلا وحي من الله يوحى».

والزحشري أيضا: «أي وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه، وإنما هو وحي من عند الله يوحى إليه».

والبيضاوي: «أي: ما يصدر نطقه بالقرآن عن الهوى، ما القرآن الذي ينطق به إلا وحي يوحى، أي إلا وحي يوحيه الله إليه».

والنسفي: «أي: وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه، إنما هو وحي من عند الله يوحى إليه».



لماذا سمي الرسول رسولا؟!

والجواب: لأنه حامل للرسالة الإلهية الخاتمة التي عليه إبلاغها بالتمام والكمال، دون أن يزيد عليها أو ينقص منها شيئا، وتبينها وعدم كتمانها.

يقول الحق سبحانه: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} (المائدة: ٦٧)، «يا أيها المرسل من الله، أخبر الناس بكل ما أوحى إليك من ربك، وادعهم إليه، ولا تخش الأذى من أحد، وإن لم تفعل فما بلغت رسالة الله، لأنك قد كلّفت تبليغ الجميع، والله يحفظك من أذى الكفار، إذ جرت سننه ألا ينصر الباطل على الحق، إن الله لا يهدي الكافرين إلى الطريق السوي» [المنتخب في تفسير القرآن الكريم].

ويقول سبحانه: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ} (آل عمران: ١٤٤)، «أعلم الله تعالى في هذه الآية أن الرسل ليست بباقية في قومها أبداً، وأنه يجب التمسك بما أتت به الرسل وإن فقد الرسول بموت أو قتل» [الجامع لأحكام القرآن]. ويقول: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} (الكهف: ١١٠). «أي: قل - أيها الرسول الكريم- للناس: إنما أنا واحد مثلكم في البشرية إلا أن الله -تبارك وتعالى- قد خصني واصطفاني عليكم برسالته ووحيه، وأمرني أن أبلغكم أن إلهكم إله واحد. فمن كان منكم يرجو لقاء الله -تبارك وتعالى- ويأمل في ثوابه ورؤية وجهه الكريم، والظفر بجنته ورضاه، فليعمل عملاً صالحاً، بأن يكون هذا العمل خالصاً لوجه الله -تبارك وتعالى- ومطابقاً لما جئت به من عنده - عز وجل - ولا يشرك بعبادة ربه أحداً من خلقه سواء أكان هذا المخلوق نبياً أم ملكاً أم غير ذلك من خلقه -تبارك وتعالى-» [التفسير الوسيط].

ويقول تعالى: {وَإِذَا تَنَادَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا

مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنَّ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ * قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَاكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ { (يونس: ١٥-١٦)، «وإذا تتلى على المشركين آيات الله التي أنزلناها إليك -أيها الرسول- واضحات، قال الذين لا يخافون الحساب، ولا يرجون الثواب، ولا يؤمنون بيوم البعث والنشور: ائت بقرآن غير هذا، أو بدل هذا القرآن: بأن تجعل الحلال حراماً، والحرام حلالاً والوعد وعيداً، والوعيد وعداً، وأن تُسقط ما فيه من عيب آلهتنا وتسفيه أحلامنا، قل لهم -أيها الرسول: إن ذلك ليس إليّ، وإنما أتبع في كل ما أمركم به وأنهاكم عنه ما ينزله عليّ ربي ويأمرني به، إني أخشى من الله -إن خالفت أمره- عذاب يوم عظيم وهو يوم القيامة.

قل لهم -أيها الرسول:- لو شاء الله ما تلوت هذا القرآن عليكم، ولا أعلمكم الله به، فاعلموا أنه الحق من الله، فإنكم تعلمون أنني مكثت فيكم زمناً طويلاً من قبل أن يوحى إليّ ربي، ومن قبل أن أتلوه عليكم، أفلا تستعملون عقولكم بالتدبر والتفكير؟» [التفسير الميسر].

ويقول تبارك وتعالى: {مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ^ط وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا} (النساء: ٨٠)، أي من يطع الرسول (بما حُمِّلَ من رسالة) فقد أطاع الله؛ لأن الرسالة رسالته تبارك وتعالى، وما محمد الرسول سوى الناطق بها

ومعلّمها، دون زيادة ولا نقصان، ومن تولى فليست مسؤولاً، أيها الرسول، عن إعراضهم وإدبارهم.

ويقول تعالى في مفتتح سورة الأنفال: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} (الأنفال: ١) .. كيف تتحقق طاعة الله ورسوله في مسألة الأنفال أو الغنائم؟ كيف تُقسّم الغنائم؟ أين ذلك في القرآن؟ والحقيقة أن التفصيل قد ورد في السورة نفسها في الآية (٤١): {وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَلِالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقَىٰ أَجْمَعِينَ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} .. فلم يزد الرسول كشخص شيئاً من عنده، وليس له أن يفعل، إذ التفصيل نزل في السورة نفسها، مع حقه في أن يجتهد في التطبيق وتنزيل الأحكام بطبيعة الحال. «وعلى هذا، فإن قوله تعالى: {وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ... الآية} (الأنفال: ٤١)، هو الإجابة المفصلة المبينة لحكم الأنفال من حيث مصارفها وأنصبتها، فكانت الأنفال هي الغنائم» [الألوكة].

ويقول تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ} (الأنفال: ٢٠). وطاعة الله على الوجه الذي أراده ويرضاه لا تتم إلا

عبر رسوله، حامل ومبلغ رسالته والناطق الأول بها، فتكون طاعة رسوله حينئذ طاعة له سبحانه، لأن الرسول، كما تقدّم، إنما هو في الأصل حامل الرسالة ومبلغها ومعلمها، دون أن يزيد عليها أو ينقص منها شيئاً. ويقول: {اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} (الأعراف: ٣).

«أي اتبعوا أيها الناس القرآن الذي فيه الهدى والنور والبيان المنزل إليكم من ربكم {وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} أي ولا تتخذوا أولياء من دون الله كالأوثان والرهبان والكهّان تولونهم أموركم وتطيعونهم فيما يشرعون لكم {قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} أي تتذكرون تذكراً قليلاً، قال الخازن: أي ما تتعظون إلا قليلاً» [صفوة التفاسير].

ويقول: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ^ط فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ^س وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} (النور: ٥٤).

فماذا حُمِّلَ غير القرآن؟! وماذا عليه كرسول سوى البلاغ؟!

ويقول: {قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ^ج وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ} (الأنبياء: ٤٥)، «أمر الله رسوله أن يخاطبهم بتعريف كنه دعوته، وهي قصره على الإنذار بما سيحلّ بهم في الدنيا والآخرة إنذاراً من طريق الوحي المنزل عليه

من الله تعالى وهو القرآن، أي فلا تعرضوا عنه، ولا تتطلبوا مني آية غير ذلك، ولا تسألوا عن تعيين آجال حلول الوعيد، ولا تحسبوا أنكم تغيطوني بإعراضكم والتوغل في كفركم» [الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير].

ويقول: {إِنَّمَا أُمرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَا وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} * وَأَنْ أَتْلُو الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ * وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} (النمل: ٩١ - ٩٣)،

«والمعنى: ما أمرت بشيء مما تبتغون من تعيين أجل الوعيد ولا من اقتلاع إحالة البعث من نفوسكم ولا بما سوى ذلك إلا بأن أثبت على عبادة رب واحد وأن أكون مسلماً وأن أتلو القرآن عليكم، ففيه البراهين الساطعة والدلالات القاطعة فمن اهتدى فلا يمين على اهتدائه وإنما نفع به نفسه؛ ومن ضل فما أنا بقادر على اهتدائه، ولكني منذره كما أنذرت الرسل أقوامها فلم يملكو لهم هدياً حتى أهلك الله الضالين» [التحرير والتنوير].



وقد ورد في القرآن ما يثبت استخدام كلمة (رسول) بمعنى (الرسالة)، حتى في حياة الرسول كشخص، كما في قوله: {فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ

الْعَالَمِينَ} (الشعراء: ١٦)، قال أبو عبيدة: «رسول» بمعنى «رسالة»، والتقدير: إنا ذوو رسالة رب العالمين» [تفسير القرطبي].

«وقال الزجاج: المعنى: إنا رسالة رب العالمين، أي: ذوو رسالة رب العالمين، قال الشاعر:

لَقَدْ كَذَبَ الْوَاشُونَ مَا بُحْتُ عَنْهُمْ

بِسِرٍّ وَلَا أَرْسَلْتَهُمْ بِرَسُولٍ

أي: برسالة» [تفسير زاد المسير].

ونجد أيضا الدكتور محمد عمارة وهو يفند قول من يقول إن حد الحراة كان محصورا بمن حارب الرسول كشخص فقط، وبالتالي فإنه بعد وفاته لا يعود هناك محل لهذه الآية أو الحد ليطبّق، مستندا إلى قوله تعالى: {إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ} (المائدة: ٣٣).

فيقول الدكتور رحمه الله: «ما المبرر لنقل المراد بالرسول من «الرسالة» إلى «شخص الرسول»؟!»

ثم يكمل قائلاً: إن الحرب لله هي حرب لدينه، والحرب للرسول هي حرب لذات الدين «الرسالة»، ولم يكن هناك سبب غير الرسالة والدين يحاربون لأجلها الرسول، فهو صلى الله عليه وسلم على المستوى الذاتي والشخصي كان «الصادق الأمين»، والذي عُرِضَ عليه «الملك والجاه والمال» إذا هو تنازل عن «الرسالة» [د. محمد عمارة، سقوط الغلو العلماني].

من قال إن الرد إلى الله والرسول يوجب أو يفترض تعدد الجهات التي يرد إليها؟! أي من قال إن ذكر الرسول مع الله يدل على ضرورة وجود طاعتين لأمرين مختلفين، أو كأنهما متعارضان بحيث تكون طاعة أحدهما ليست هي طاعة للآخر؟! وهل يخالف الرسول المرسل نفسه أو يستقل عنه بتشريع غير التشريع الذي أرسله به؟! هذا محال.

ولذلك قال تعالى: {مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} وَمَنْ تَوَلَّىٰ فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا { (النساء: ٨٠)، لأن الرسول هو حامل كلام الله والناطق به، وهو واسطة الناس إليه سبحانه. فسواء ذكراً معاً أو ذكر أحدهما، فالمعنى واحد، ومحل الطاعة واحد، وهو الرسالة، والرسالة مرتبطة بمرسلها، والرسول لا يخرج عنها، لقوله: {وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ * لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ * ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ * فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ * وَإِنَّهُ لَتَذِكْرٌ لِّلْمُتَّقِينَ} (الحاقة: ٤٤)

(٤٨ -)، أي: «ولو ادعى محمد علينا شيئاً لم نقله، لانتقمنا وأخذنا منه باليمين، ثم لقطعنا منه نياط قلبه، فلا يقدر أحد منكم أن يحجز عنه عقابنا. إن هذا القرآن لعظة للمتقين الذين يمثلون أوامر الله ويحتجبون نواهيه» [التفسير الميسر].

ولقوله: {وَأَن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَإِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَاَتَخَذُوكَ خَلِيلًا * وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدَّتْ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا * إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا} (الإسراء: ٧٣ - ٧٥)، «ولقد قارب المشركون أن يصرفوك - أيها الرسول - عن القرآن الذي أنزله الله إليك؛ لتختلق علينا غير ما أوحينا إليك، ولو فعلت ما أرادوه لاتخذوك حبيباً خالصاً. ولولا أن ثبتناك على الحق، وعصمناك عن موافقتهم، لقاربت أن تميل إليهم ميلاً قليلاً من كثرة المعالجة ورغبتك في هدايتهم. ولو ركنت -أيها الرسول- إلى هؤلاء المشركين ركوناً قليلاً فيما سألوك، إذا لَأَذَقْنَاكَ مِثْلِي عَذَابِ الْحَيَاةِ فِي الدُّنْيَا وَمِثْلِي عَذَابِ الْمَمَاتِ فِي الْآخِرَةِ.. ثم لا تجد أحداً ينصرك ويدفع عنك عذابنا» [التفسير الميسر].

وفي قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} (الأنفال: ٢٧)، فإن المراد بالرسول هنا لا يقتصر على شخصه في حياته فقط، بل وينسحب على الرسالة نفسها بعد رحيله صلى الله عليه وسلم، فيصبح

المعنى هكذا: «يا أيها الذين صدّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه لا تخونوا الله ورسوله بترك ما أوجبه الله عليكم وفعل ما نهاكم عنه (في كتابه)، ولا تفرطوا فيما ائتمنكم الله عليه، وأنتم تعلمون أنه أمانة يجب الوفاء بها» [التفسير الميسر].

وعلى هذا نفهم قوله تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ خُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} (الحشر: ٧)، على أن ما أتى به الرسول ليس هو إلا جملة الأوامر التي جاءت في القرآن، وما نهى عنه يتمثل في جملة النواهي الواردة في الكتاب العزيز أيضاً. ولا يحق له الزيادة على ذلك أو الإنقاص منه. لذا ينبغي فهم هذا جيداً حتى تفهم النصوص على الوجه الصحيح.



هل يمكن قرآنياً إلزام الناس بما ليس محفوظاً بالقطع؟

والجواب المباشر: لا. لا يمكن إلزام الناس بشيء متعلق بالدين من مصدر ظني، غير محفوظ، مسته أيادي التحريف والتزييف؛ فهذا ليس من العدل في شيء، ولا يمثل حجة على الخلق أمام الله سبحانه، ولا يقبله عقل سوي. فالتكليف لا بد أن يكون بنص: قطعي الثبوت أولاً، ثم قطعي الدلالة ثانياً، وهذا لا ينطبق إلا على القرآن، والقرآن فقط، ولا يتحقق إلا به.

يقول تعالى عن هذا الكتاب: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ { (فصلت: ٤١ - ٤٢)، وقال عنه: {وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ} (الحاقة: ٥١). أي إن هذا القرآن لحق ثابت لا ريب فيه.

«وإنه (هذا القرآن) لعميق في الحق، عميق في اليقين. وإنه ليكشف عن الحق الخالص في كل آية ما يثني بأن مصدره هو الحق الأول الأصيل» [في ظلال القرآن] .. وهو تبيان لكل شيء متعلق بدينه تبارك وتعالى: {وَوَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ} (النحل: ٨٩). «أي: في أصول الدين وفروعه، وفي أحكام الدارين وكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبين فيه أتم تبين بألفاظ واضحة ومعانٍ جلية، حتى إنه تعالى يثني فيه الأمور البكار التي يحتاج القلب لمرورها عليه كل وقت، ويعيدها في كل ساعة، ويعيدها ويديها بألفاظ مختلفة وأدلة متنوعة لتستقر في القلوب فتثمر من الخير والبر بحسب ثبوتها في القلب، وحتى إنه تعالى يجمع في اللفظ القليل الواضح معانٍ كثيرة يكون اللفظ لها كالقاعدة والأساس. واعتبر هذا بالآية التي بعد هذه الآية وما فيها من أنواع الأوامر والنواهي التي لا تحصى، فلها كان هذا القرآن تبياناً لكل شيء صار حجة الله على العباد كلهم» [تفسير السعدي].

ويقول تبارك وتعالى: {وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا} (الإسراء: ١٥).
 فلا عذاب ولا مؤاخذة حتى يُبلِّغ الإنسان برسالة واضحة من الله عز وجل.
 والرسول هنا يعني: الحجّة الواضحة، كشخص الرسول بما حمل من رسالة في حياته، أو الرسالة وحدها بعد وفاته. فبعد وفاة النبي الكريم محمد بن عبد الله لا يمكن لعقل أن يقول: لن يعذب الله من وصله القرآن ووعاه ثم كفر به، وذلك لأنه لم ير الرسول كشخص محمد صلى الله عليه وسلم!

فالحجة لا تزال قائمة بعد وفاته بالنص القرآني المحفوظ (حاوي رسالة رب العالمين)، وستظل قائمة إلى يوم القيامة، وليست منحصرة بشخص الرسول ومن عاصره.

«وقد شاءت رحمة الله ألا يأخذ الإنسان بالآيات الكونية الموثقة في صفحات الوجود، وألا يأخذه بعهد الفطرة الذي أخذه على بني آدم في ظهور آبائهم، إنما يرسل إليهم الرسل منذرين ومذكّرين، وهي رحمة من الله أن يُعذر إلى العباد قبل أن يأخذهم بالعذاب» [في ظلال القرآن].

يقول تعالى: {وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ} (القصص: ٥٩). ويقول تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ}

وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا { (النساء: ١٦٥). فإرسال الرسل بالكتب هو الذي يرفع العذر، وقبل ذلك لا حجة لله على الناس، ولا مؤاخذه.

فالإنذار والتبليغ هو شرط في استحقاق الحساب والعقوبة، فكيف بعد ذلك يُلْزَمُ الناس بشيء لا يمكن القطع بثبوته، كالروايات الظنية المتنازع عليها بين الفرق الإسلامية، والتي فيها الشيء الكثير مما يخالف صريح نصوص الكتاب العزيز، بل ويطن فيه بالإلغاء والتعطيل، وادعاء وجود أحكام فيه لم ينص عليها، بل نص على غيرها وعكسها؟!!



هل ينزل على النبي وحي غير القرآن؟

ثم جاءني سؤال آخر، هذا نصه: هل ينزل على النبي وحي غير القرآن أم لا؟ إذا قلت نعم، فوجب أن نتبعه، وإن قلت لا، فأين ذكر القبلية الأولى في القرآن التي كان الصحابة يستقبلونها، وبعدها نزل الأمر بالتولي عنها؟

فقلت: السؤال الجوهرى ليس: هل يوحى إلى النبي شيء غير القرآن؟ وإلا فكيف أصبح نبياً لو لم يكن يوحى إليه خارجه؟ أي كيف صار نبياً أصلاً؟ من أبلغه بأنه نبي، وكيف؟ فهذا لا خلاف عليه؛ إذ إنه بمجرد اختيار الله له ليكون حامل رسالته ومبلغها أصبح نبياً، وهذه العملية (أي: عملية إبلاغه بالوحي

واختياره لحمل الرسالة) هي وحي بحد ذاتها. والله لا يكلم بشراً إلا عبر صور محددة، هي: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلَّهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بآيَاتِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ} (الشورى: ٥١). «والمراد بالتكلم بلوغ مراد الله إلى النبي، سواء كان ذلك البلوغ بكلام يسمعه ولا يرى مصدره، أو بكلام يبلغه إليه الملك عن الله تعالى، أو بعلم يلقي في نفس النبي يوقن بأنه مراد الله، بعلم ضروري يجعله الله في نفسه» [التحرير والتنوير].

وليس بالضرورة أن يكون كل ما أوحى إليه وارداً في القرآن أو ملزماً لكل الأمة، سواء من عاصره أو من جاء بعده؛ لأن ليس كل ما أوحى إليه هو وحي تشريعي متلو ودائم وملزم، أو من القصص والأنباء التي أراد الله أن تكون جزءاً من كتابه الخاتم لما فيها من العظات والعبر للناس (من الذكر).

بل السؤال هو: هل غير وحي القرآن، الذي هو الذكر (المتلو والمتعهد بحفظه والمتعبد بتلاوته)، ملزم للأمة كلها، أم هناك غيره مما لم يُحفظ ووصلنا عبر بشر يصحح ويخطئ بعضهم بعضاً، فمرة تكون هذه الرواية صحيحة عند فرقة هنا في مرحلة زمنية ما، ومرة تكون هي نفسها ضعيفة أو موضوعة لدى فرقة هناك في مرحلة زمنية أخرى مختلفة؟! وأما فيما يتعلق بتحويل القبلة فنقول: لقد كان النبي ﷺ يتوجه إلى بيت المقدس في صلاته قبل نزول الأمر الإلهي بتحويل

القبلة، وهو بذلك لم يكن مخالفا لأمر الله، إذ لم يكن قد نزل في المسألة نص قرآني بعد. ويحتمل أن يكون هذا التوجه اجتهدا نبويا، أو عبر وحي خاص ظرفي غير متلو (قد يكون إلهاما أو ما يكون في المنام، أي توجيها ربانيا لم ينزل في الكتاب المحفوظ، بل كان متعلقا بمرحلة معينة وظرف محدد). حتى نزل النص القرآني في قوله تعالى: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ...} (البقرة: ١٤٤).

فوق النسخ، وهو في هذه الحالة إلغاء لتوجيه ظرفي غير قرآني أصلا، الهدف منه بينته الآية التي قبلها: {وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ [٢] مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ...} (البقرة: ١٤٣)، بنص قرآني خالد متلو: {فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ}، لا على سبيل نسخ آية بآية، بل رفع

[٢]. «والمراد بالعلم هنا علم حصول ذلك وهو تعلق علمه بوقوع الشيء الذي علم في الأزل أنه سيقع فهذا تعلق خاص وهو حادث لأنه كالتعلق التنجيزي للإرادة والقدرة وإن أغفل المتكلمون عده في تعلقات العلم. ولك أن تجعل قوله: {لنعلم من يتبع الرسول} كناية عن أن يعلم بذلك كل من لم يعلم على طريق الكناية الرمزية فيذكر علمه وهو يريد علم الناس كما قال إياس بن قبيصة الطائي: شعر:

وأقدمت وأخطيئُ يخطرُ بيننا
لأعلمَ من جباؤها من شجاعها

أراد ليظهر من جبانها من شجاعها فأعلمه أنا ويعلمه الناس بجفاء القرآن في هذه الآية ونظائرها على هذا الأسلوب» [التحرير والتنوير].

لتوجيهه او اجتهاده ظرفي سابق غير متلو أصلا، وغير متعهد بحفظه، واستبداله بحكم قرآني بين خالد، ضمن الوحي المتلو، المتعهد من الله بحفظه، والملزَم بالتابعه.

إذن، فالتوجه إلى بيت المقدس لم يكن مبنيا على نص قرآني من الأساس، بل كان إما اجتهادا نبويا مرحليا في شيء لم ينزل به نص بعد، أو توجيها ربانيا خاصا (لا نعلم بالقطع صيغته ولا طريقة تلقي النبي له)، وفي كلتا الحالتين لم يكن في ذلك مخالفة لكتاب الله عز وجل. ولذلك، لم يكن ذلك الاجتهاد أو التوجيه السابق متعبدا به بعد نزول النص القرآني الأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام.

ولقد أطلع الله نبيه على ما نبأت به إحدى زوجاته مما أسر به إليها، فهل هذا وحي ملزم للأمة كلها مثلاً، أم هو خاص بالزمان بل وبالأشخاص أيضا؟

لقد أشار القرآن إلى حصول الإنباء والإظهار بقوله {وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضُهُ وَأَعْرَضَ عَنْ بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا قَالَ نَبَاَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ} (التحریم: ۳)، لكن القرآن لم يبين طريقة الإنباء، ولا كيف وقع الإظهار، ولا صيغتهما، مما يدل على خصوصية هذا الوحي بالنبي ﷺ ولمن عاصره، بل ليس لكل من عاصره،

وإنما لاثنين من زوجاته فقط، بدلالة الآية التالية: {إِنْ تَوْبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ} (التحریم: ٤). ولم ترد صيغة الإنباء والإظهار متلوة، وإنما ورد ذكرها هنا نخبر عن الحادثة فقط دون أية تفاصيل أخرى عن كيفية تلقي هذا الوحي الخاص. ومما يتعجب منه ما نجده في بعض التفاسير، فبينما الآية تقول: {وَإِذْ أَسْرَ النَّبِيُّ إِلَى بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا..} دون أي ذكر لتفاصيل الأمر، نجد تلك التفاسير تقول: بل الحديث - الذي هو سر أصلا - هو كذا وكذا.. ولا أدري ماذا أفادوا أو استفادوا بتلك التفاصيل؟!!

ولتجب أنت (أعني السائل) عن السؤال الآتي: هل يجوز اليوم - بدعوى وجود مواقف أوحى فيها إلى النبي بوحى خاص وظرفي خارج القرآن لأسباب عينية - أن نتوجه إلى بيت المقدس في الصلاة كما كان قبل نزول الآية، معتبرا ذلك جزءا من اتباع الرسول ﷺ، مع وجود نص قرآني صريح يأمر بالتوجه إلى المسجد الحرام؟! أم أن اتباع الرسول هنا لا يمكن أن يفهم إلا على أنه اتباع للنص القرآني ذاته؟!!

فإن أجبت بالنفي (أي بعدم صحة وعدم جواز استقبال بيت المقدس مع النص)، فقد سلّمت بأن التوجيه (الوحي) الظرفي الخاص غير المتلوة، المتعلق

بأسباب محددة زمن النبي، وغير المحفوظ في القرآن والمنسوخ به، ليس تشريعاً ملزماً للأمة المسلمة، وأن الاتباع الحق للرسول ﷺ منذ اكتمال الوحي ووفاته هو بالالتزام بالنص القرآني (الرسول الحي الدائم)، المهيمن، المحكم، المتلوه، والمتعهد من المولى سبحانه بحفظه.

كما يشتمل ذلك اتباعه صلى الله عليه وسلم في الشعائر (كالصلاة والحج) لا لكونها من لدن النبي كشخص أو من اختراعه هو، بل لكونها أوامر ورد بها النص القرآني نفسه أساساً من مواقيت للصلاة وهيئة وذكر.. الخ، بل حتى تفاصيل الضوء وردت نصاً في القرآن، فلم يخترعها الرسول من عنده، وإنما فقط طبقها بحكم أنها أمور عملية تحتاج إلى التطبيق الفوري من الرسول مباشرة باعتبارها جزءاً أساسياً من مهمته كرسول، وترك له تحديد ركعات كل صلاة باستنباطه النبوي من كتاب الله: {أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُوداً} (الإسراء: ٧٨) / {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} (النور: ٥٦) / {وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفَا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرِي لِلَّذِينَ} (هود: ١١٤). والحج ورد به النص كذلك: {وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} (آل

عمران: ٩٧) / {ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} (البقرة: ١٩٩)، إلى آخر الآيات.

وهذا ما نراه في حياتنا، فكنا تعلمنا الشعائر التعبدية مشاهدة حسية، ووصلتنا تواتراً عملياً مشاهداً. وبالعكس، فالاختلافات التي نراها في بعض جزئيات الصلاة مثلاً بين الفرق والمذاهب "الإسلامية" منشؤها الحقيقي الروايات والعنغيات، فنجد منهم مثلاً من يصلي الخمس صلوات على خمس أوقات، ومن يسدل أو يضم، ومن يجهر أو يسر، وفي الأذكار وما يقال في الأذان.. وغيرها من اختلافات، على أن الكل متفق على الهيئة العامة للصلاة من ركوع وسجود وقيام وجلوس وتلاوة ما تيسر من الذكر الحكيم، وشرط الطهارة لها واستقبال القبلة ودخول الوقت، كما نص على ذلك القرآن.

وإن أجبت (أعني السائل) بنعم (أي بجواز وصحة استقبال بيت المقدس)، فقد خالفت صريح النص، ورددت كلام الله، وبالتالي عصيت الرسول، وصرت ممن شاق الرسول واتبع غير سبيل المؤمنين، عياذا بالله: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} (النساء: ١١٥)، (وإشاقق) من المشاقة، وهي المخالفة والمعاندة المقصودة. وأصل الكلمة من الشق، لأن من يشاقق كأنه انفصل إلى

شق آخر، غير شق الرسول ﷺ والمؤمنين؛ أي اتخذ لنفسه طريقا مبينا لطريق الحق. أي: من يعاديه ويخالفه عن وعي وإصرار، {مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى}، أي بعدما ظهر له الحق، وقامت عليه الحجة، وعلم أن ما جاء به الرسول ﷺ هو هدى الله ودينه الحق.

ولا يعقل بحال أن يكون المقصود بـ«الهدى» في هذه الآية شيئا غير القرآن أو يخالفه، أو أن تكون «سبيل المؤمنين» غير سبيل الإيمان بهذا القرآن واتباعه والعمل به.. {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ} (الجمعة: ٢٠)، هذا القرآن المحفوظ إلى يوم الدين، والذي جعله الله - في آن واحد - هدى للناس عامة، وللمتقين خاصة، كما قال تبارك وتعالى: {الْم * ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ} (البقرة: ٢ - ١)، وقوله: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ} (البقرة: ١٨٥).

فـ«سبيل المؤمنين» ليست هي إلا الإيمان بهذا الكتاب، والاتباع الكامل لما جاء فيه، وأما ما كان يصدر عنه ﷺ في حياته كشخص فإنه لا يخالف قط ما قد أمر هو باتباعه قبل كل الناس: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} (الأنعام: ١٠٦)، {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} (يونس: ١٠٩)، {وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ

رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا { (الأحزاب: ٢)، { فَإِذَا قَرَأْتَ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ { (القيامة: ١٨)، { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ { (الجاثية: ١٨).

ويقول تعالى: { لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلِيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ { (النور: ٦٣).

وإذا أخذنا الآية على العموم وليس على أنها خاصة بمخاطبين من معاصري الرسول كشخص (وهذا الأرجح، إذ الأصل دائماً هو الرسول وما يحمله من رسالة إلا أن دل السياق على غير ذلك، وهنا واضح أنها خطاب لمعاصري الرسول، ولغيرهم أن يستنبطوا العبرة منها، ولكن في كلا الحالتين: سواء اعتبرناها عامة أو خاصة أي سواء اعتبرنا الرسول هنا الشخص نفسه أو الرسالة)، فإنه في كلا الحالتين النتيجة واحدة.. فالرسول لم يكن إلا متبعاً لما أنزل عليه ومطبقاً له بحكمة ووعي ورحمة، ولا يمكن بحال أن يأتي هو كشخص بشيء مخالف لما أنزل عليه كرسول.

ولنا أن نسأل: هل يعقل أن يكون المقصود بـ«أمره» هنا تفضيلاً شخصياً للنبي في المأكل أو الملبس؟ أم هو في أصل الرسالة والتشريع، أي أمر يخص الأمة

كلها سواء الأمة زمن النبي أو إلى يوم القيامة؟ ثم هل يعقل أن يكون أمره هذا متعارضاً مع - أو غير - ما جاء في كتاب الله، وهو أول من أمر باتباعه؟!

والجواب نجده في القرآن:

• {قُلْ مَا كُنْتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ^ط إِن أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (الأحقاف: ٩).

• {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِن أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} (الأنعام: ٥٠).

• {وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا^ج قُلْ إِنَّمَا أَتَّبَعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَآئِرُ مِّنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (الأعراف: ٢٠٣).

• {وَإِذَا سَأَلَ^ج عَلَيْهِمُ آيَاتُنَا بِيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِن أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ} (يونس: ١٥).

وإن كان للنبي أن يجتهد وقد فعل، وقد أخطأ في مواضع محددة وصح الله له في القرآن وصوبه، إلا أن اجتهاده كان في شيء لا نص فيه أصلاً، وحين ينزل

النص لا يعود إلى ما أخطأ فيه مطلقاً، إذ كان - صلوات ربي وسلامه عليه - لا يخالف ما أنزل عليه قط، بل كان وكأنه قرآن يمشي على الأرض.

لذلك فحتى من اتبعه كشخص زمن الوحي فإنه لا يضل لأنه لا يخالف ما يوحى إليه، وإن اجتهد بغير نص وأخطأ صحح له القرآن على الفور، أو اعترف لهم هو أن اجتهاده ذاك (في دائرة المباحات) ليس بوحى، فيتيح لهم الاجتهاد في تفصي الصواب في المسألة المعينة. ففي الحالين، اتباعه كشخص لمعاصريه هو اتباع للرسالة وضمن حدودها، فلا يخيب ولا يضل من اتبعه {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} (الأنفال: ٦٤) فالله يكفيه ويكفيهم. ولهذا نجد أحياناً تداخلاً بين مقامه كرَسُولٍ ونبى ومقامه كبشر.

وفي الآية (النساء: ١١٥) لا يمكن اليوم أن يفهم معنى مشاققة الرسول على أن المقصود الشخص نفسه، فالشخص قد ارتقى إلى ربه ولم يشاقق الرسول أحد بسبب أنه محمد، بل لأنه حامل الرسالة، وإلا هو كشخص فلم يكن يعرف بين قومه قبل أن يأتيه الوحي إلا بالصادق الأمين.

فالمقصود إذن هنا هي الرسالة نفسها في القرآن الكريم، ذلك الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. هي الرسالة حين تطبق على أرض الواقع وتكون مرجعاً للمجتمع وحاكماً على تشريعاته وكل جوانب حياته.

وانظر قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ} (المتحنة: ١). فسبب إخراجهم الرسول كشخص ومن معه هو أن آمنوا بما جاء به الرسول؛ أي أن آمنوا بالله تبارك وتعالى ورسالته. فهم إذن أخرجوا الرسول ليس لذاته، بل لما جاء به من رسالة.. {وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ} أي القرآن. والمعنى العام للآية: «يا أيها الذين صدقوا بالله ورسوله: لا تتخذوا أعدائي وأعداءكم أنصاراً. تُفَضُّونَ إِلَيْهِم بِالْحُبَّةِ الْخَالِصَةِ، مع أنهم يجدوا بما جاءكم من الإيمان بالله ورسوله وكتابه، ويخرجون الرسول ويخرجونكم من دياركم لإيمانكم بالله ربكم. إن كنتم خرجتم من دياركم للجهاد في سبيلي وطلب رضائي، فلا تتولوا أعدائي، تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمُودَةِ سِرًّا، وأنا أعلم بما أسررتم وما أعلنتم. ومن يتخذ عدو الله ولياً له فقد ضل الطريق المستقيم» [المنتخب في تفسير القرآن الكريم].

وبودي أن أستعرض هذه الآية (آل عمران: ٥٣) سريعاً للرد على من قال بوجود فرق بين طاعة ما أنزل الله وطاعة الرسول، فأقول: الآية جاءت في

سياق الحديث عن الحواريين، قال الله تعالى: {فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} (آل عمران: ٥٢)، ثم حكى قولهم: {رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أُنزِلَتْ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} (آل عمران: ٥٣)، والمعنى: أي إنهم آمنوا بما أنزل الله. أنزل ماذا؟ وعلى من أنزل؟ أنزل كتابه، وعلى من؟ على رسوله (عيسى عليه السلام). فماذا فعلوا؟ فاتبعوه.. أي اتبعوه فيما أنزل عليه. فالرسول (كل رسول) محكوم برسالته، لا يخرج قيد أنملة عنها زيادة أو إنقاصاً، وإلا خان الأمانة ولم يبلغ الرسالة.

«فأنت ترى أن الحواريين، لقوة إيمانهم وصفاء نفوسهم، قد لبوا دعوة عيسى - عليه السلام - في طلب النصرة دون أن يخشوا أحداً إلا الله. وقولهم - كما حكى القرآن عنهم {نحن أنصار الله} - إشعار بأنهم ما وقفوا بجانب عيسى إلا نصرة لدين الله ودفاعاً عن الحق الذي أنزله على رسوله عيسى. ثم حكى القرآن عنهم أنهم قالوا أيضاً {ربنا آمنا بما أنزلت} على أنبيائك من كتب، {واتبعنا الرسول} أي امتثلنا ما أتى به منك إيلنا، {فاكتبنا مع الشاهدين} أي كتبنا بفضلك ورحمتك مع الشاهدين بوحدانيتك العاملين بشريعتك المستحقين لرضاك ورحمتك» [الوسيط في تفسير القرآن الكريم].

هذا، واعلم رعاك الله، أن من تمسك بالقرآن نجا، ومن أعرض عنه - أو حَمَّ غيره - قد ضل وهوى.. وأن طاعة الله ورسوله تتمثل أول وأبلغ وأتقى وأعظم وأصح ما تتمثل فيه حين تطيع ما جاء في القرآن العظيم، وتعيد له في نفسك مكانته الحقيقية كما أراد له المولى سبحانه، مكانته المرجعية باعتباره المرجع الأعلى في الإسلام والمهيمن على كل ما سواه.. فاللهم اجعلنا من أهل هذا القرآن، الكتاب الذي أنزلته على نبيك محمد، وكان أول من أُمر باتباعه فكان الأسوة - خير أسوة - لنا في ذلك، وعليه سار هو وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، وذلك - لا سواه - هو سبيل المؤمنين حقاً.

وقد روي علي بن أبي طالب أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قال: «ستكون فتن. فقلت: فما المخرج منها يا رسول الله؟ قال: كتاب الله، فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل، ليس بالهزل. من تركه من جبارٍ قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم. لا تزيغ به الأهواء، ولا تختلف به الآراء، ولا تلبس به الألسن، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء. من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أُجِر، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم».

الحكمة

ثم ينبغي بعد هذا كله معرفة أن محمداً صلى الله على محمد، لم يكن رسولاً مبلغاً للوحي وحسب، وتلك أعظم مهمة وأجل وظيفة، ولكنه كان أيضاً نبياً معلماً وموجهاً ومزيكاً ومرياً وقائداً وقاضياً ومطبقاً للرسالة في حدود زمانه ومكانه وظروفه، {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ} (الجمعة: ٢).

وقد اجتمعت فيه كل تلك المقامات لكونه كان ممثل الوحي زمن التنزيل، والمطبق الأول له بتنزيله على واقعه؛ فهو الذي يتنزل عليه الوحي (وهذا هو مقصودنا بالتطبيق؛ فليس هو شيئاً جديداً أو زائداً على ما في الكتاب الحكيم، وإنما هو القدرة على تنزيل أحكامه على الواقع المتغير المحكوم بالزمان والمكان بعلم وفقه وحكمة)، وهو أول من نطق به، وهو صاحب أول تطبيق عملي للقرآن وفق ظروفه زمن التنزيل والواقع الموجود حينئذ، ولكن هذا التطبيق بعينه وحرفيته ليس هو محل الطاعة أو التأسي أو الإلزام، ولا هو آخر تطبيق للرسالة، وإنما هو التطبيق الأول وفق واقع معين هو واقع الجيل الأول في مكة

والمدينة، والواجب على الأمة هو التأسّي بنهج الرسول هذا في كيفية تنزيله لأحكام القرآن على الواقع المتغير والظروف المتبدلة والأمكنة المختلفة بحكمة فذة، وتيسيره على الناس وفهم أحوالهم ورفع الحرج عنهم.. وهذا جزء من حكمته صلى الله عليه وسلم، وهي (أي الحكمة) قابلة للتعلم بدليل قوله تعالى عن النبي الكريم: {وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ}، فهو يعلمهم الكتاب، أي بنقله لهم كما أنزل عليه، والتعليم هو ذا: نقل المعلومة كما هي دون زيادة أو نقصان إلى المتلقي لها، والحكمة هي منهجية التعامل مع الكتاب بناء على إدراك اختلاف الواقع وتغيره المستمر، وبكونه متأثراً بالزمان والمكان، وبالتالي ضرورة توخي الدقة في كيفية وحيثية تنزيل الأحكام والنصوص على محلها الصحيح من الواقع...

والحكمة وإن كانت صفة لا تفارق الأنبياء والرسل، إلّا أنها غير منحصرة بهم وحدهم، لقوله جل من قائل: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ} (البقرة: ٢٦٩). أي: «يؤتي الله الإصابة في القول والفعل من يشاء من عباده، ومن أنعم الله عليه بذلك فقد أعطاه خيرا كثيرا، وما يتذكر هذا وينتفع به إلا أصحاب العقول المستنيرة بنور الله وهدايته» [التفسير الميسر]. قال ابن عرفة: الظاهر أن المراد به الفقه والعمل به. وجاء في تفسير الظلال: أي «أوتي القصد والاعتدال فلا يفحش

ولا يتعدى الحدود؛ وأوتي إدراك العلل والغايات فلا يضل في تقدير الأمور؛ وأوتي البصيرة المستنيرة التي تهديه للصالح الصائب من الحركات والأعمال.. وذلك خير كثير متنوع الألوان.. {وما يذكر إلا أولو الأبواب}.. فصاحب اللب، وهو العقل، هو الذي يتذكر فلا ينسى، ويتنبه فلا يغفل، ويعتبر فلا يلج في الضلال.. وهذه وظيفة العقل.. وظيفته أن يذكر موحيات الهدى ودلائله، وأن ينتفع بها فلا يعيش لاهيا غافلا. وهذه الحكمة يؤتيها الله من يشاء من عباده، فهي معقودة بمشيئة الله سبحانه».

فالحكمة إذن ليست مصدر تشريع آخر في الدين مع القرآن، فضلا عن أن تستقل عنه: {...} وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَيْكُمْ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (البقرة: ٢٣١). «ولو كانت الحكمة شيئا آخر غير القرآن لقال في الآية: (يعظكم بهما)، ولكن لأن الحكمة هي القرآن (ومتضمنة فيه وتستنبط منه ومتلبسة به) فقد قال: (يعظكم به)، فهما شيء واحد، لذا عاد الضمير عليهما بصيغة المفرد» [د. أحمد صبحي منصور]. وإن أردنا مزيدا من التوضيح والدقة للمسألة فنقول: إن الحكمة تمثل، في جانب منها، جملة من الأوامر الأخلاقية الواردة في القرآن نفسه (لذا فالقرآن يتضمن تلك الحكمة أيضا).

لتأمل الآيات في سورة الإسراء من الآية رقم (٢٢) وحتى الآية رقم (٣٩)، يقول الذي قوله الحق:

{لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا * وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا * رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا * وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا * إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا * وَإِمَّا تَعْرِضْ عَنْهُمْ ابْتَغَاءَ رَحْمَةٍ مِّنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا * وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا * إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا * وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِن قَتَلْتُمْ كَانَ خَطِئًا كَبِيرًا * وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا * وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا * وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا * وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتَمَ

وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا * وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا * كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا * ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا { (الإسراء: ٢٢ - ٣٩).

لاحظ ماذا قال سبحانه في آخر آية: (ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ)، أي: «ذلك الذي بيناه ووضحناه من هذه الأحكام الجليلة، من الأمر بحسن الأعمال، والنهي عن أراذل الأخلاق، مما أوحيناه إليك أيها النبي» [التفسير الميسر]. و«{ذلك} يعني: ما تقدم ذكره {مما أوحى إليك ربك من الحكمة} من القرآن ومواعظه» [تفسير الوجيز].

فهذا جانب من الحكمة (الجانب الأخلاقي والسلوكي والاعتقادي)، والجانب الآخر هو النهج الحكيم في التعامل مع الكتاب الحكيم، مع الأخذ بعين الاعتبار الواقع المتغير باستمرار وملابساته المختلفة تبعاً لاختلاف الزمان والمكان، ما يقتضي ضرورة تنوع التطبيق وتجده باستمرار دون انقطاع، وفق مبدأ التيسير ورفع الحرج. وهذا ما وجدنا الشيخ الغزالي رحمه الله قد ذهب إليه في كتابه

[كيف نتعامل مع القرآن]، فقال بالنص: «الحكمة في نظري هي: كيف تنزل آيات القرآن على الواقع المختلف من مكان لمكان ومن زمان لزمان».

وهذه هي الحكمة في الاصطلاح واللغة. فالحكمة لغة: هي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، مشتقة من الحكمة، وهي ما أحاط بخنكي الفرس حتى يمنعه من الجراح. سميت بذلك لأنها تمنع صاحبها من أخلاق الأراذل. وأحكم الأمر: أي أتقنه فاستحكم، ومنعه عن الفساد، أو منعه من الخروج عما يريد، وأصل «حكم» يدل على المنع.

ومعناها اصطلاحاً:

قال أبو إسماعيل الهروي: «الحكمة اسم لإحكام وضع الشيء في موضعه». وقال ابن القيم: «الحكمة: فعل ما ينبغي، على الوجه الذي ينبغي، في الوقت الذي ينبغي». وقيل: «الحكمة: كل ما منع من الجهل، وزجر عن القبيح». وقيل هي: «فضيلة تمنع صاحبها من الجهل في القول والعمل، وتصدّه عن سوء التصرف والمعاملة، وتحذره رذيلة الاندفاع والعجلة، وتعلمه أن يضع كل شيء في موضعه». وقيل إن الحكمة هي الحكم الصحيح... إلخ



بقي أن نستعرض قوله تبارك وتعالى عن عيسى عليه السلام: {...وَإِذْ عَلَّمْتُكَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۚ} (المائدة: ١١٠)، وقوله عنه أيضا في
موضع آخر: {وَعَلَّمَهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} (آل عمران: ٤٨).
ونسأل: هل الواو هنا للمغايرة؟ أي هل هناك أربعة أشياء مختلفة عن بعضها
عليها عيسى، كل واحد منها على حدة؟ أم لا؟ ألا يوجد بينها تداخل يفيد
العطف والتبيين والتفصيل، لا الانفصال والتنافر والاستقلال؟ وكيف نفهم
هاتين الآيتين في ضوء ما تقدم؟!

«الواقع أن العطف بالواو في القرآن قد يكون للتبيين والتوضيح والتفصيل،
وليس للمغايرة. ودليلنا قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً
وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ} (الأنبياء: ٤٨)». «أي التوراة الفارقة بين الحق والباطل والحلال
والحرام، {وضياء} بها، {وذكرا} عظة بها {للمتقين}» [تفسير الجلالين].

«فالمراد بالفرقان والضياء والذكر: التوراة، فيكون الكلام من عطف الصفات.
والمعنى: ولقد أعطينا موسى وهارون، عليهما السلام، كتاب التوراة ليكون فارقا
بين الحق والباطل، ويكون أيضا ضياء يستضيء به أتباعه من ظلمات الكفر
والضلالة، ويكون ذكرا حسنا لهم، وموعظة يتعظون بما اشتمل عليه من آداب
وأحكام» [التفسير الوسيط].

فالفرقان والضياء والذكر كلها أوصاف توضح وتفصل وتبين معنى التوراة. وفي موضع آخر يقول تعالى عن التوراة، في حديثه تعالى عن موسى وهارون: {وَاتَيْنَاهُمَا الْكِتَابَ الْمُسْتَبِينَ} (الصفات: 117)، فالتوراة، أو الكتاب المستبين، هي نفسها الفرقان والضياء والذكر. والعطف هنا معناه التوضيح والتفصيل للمعنى الشيء الواحد، وليس المغيرة. والله تعالى يقول لعيسى: {...وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۚ} (المائدة: ١١٠)، ويقول تعالى عنه: {وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ} (آل عمران: ٤٨)، فالكتاب والحكمة أوصاف للتوراة والإنجيل، ولا يعني ذلك أن الله تعالى علم عيسى أربعة أشياء منفصلة مختلفة. والدليل هو قوله تعالى عن عيسى: {وَلَمَّا جَاءَ عِيسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ ۚ} (الزخرف: ٦٣). «أي المتلوة، وهي الإنجيل والشرائع والمعجزات، {قال قد جئتكم بالحكمة} أي هي البينات بمعناها المذكور، وفسرها بعض بالإنجيل، على أن البينات غيره، أو على أنها الإنجيل، فإنه من حيث البيان بينات، ومن حيث إنه صواب لائق نافع هو حكمة» [تيسير التفسير].

فالحكمة هنا تعني الإنجيل الذي جاء به عيسى، والآية هنا تلخص ما جاء في الآيتين السابقتين عن الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل» [د. أحمد صبحي

منصور]. «والكتاب (في الآية) قد يكون المراد به الكتابة، وقد يكون هو التوراة والإنجيل، ويكون عطفهما على الكتاب هو عطف بيان. والحكمة حالة في النفس يتأتى معها وضع الأمور في مواضعها، وإدراك الصواب واتباعه، وهي خير كثير» [سيد قطب، في ظلال القرآن].

«وقال بعض العلماء إن (الكتاب) هنا يراد به جنس الكتب السماوية، أي أن الله تعالى علم عيسى عليه السلام الوحي والشرائع السماوية عموماً، وليس فقط التوراة والإنجيل.

وذهب بعض المفسرين إلى أن التوراة والإنجيل قد عطف تفسيرا على الكتاب والحكمة، فيكون المعنى: {ويعلمهم الكتاب والحكمة أي التوراة والإنجيل}، وهذا هو التفسير الأقرب للآية. وينبغي التنويه هنا أن الحكمة ليست شيئا منفصلا عن الكتاب، وإنما هي الحكم والأحكام والمواظب التي يتضمنها الكتاب، كما أنها تأتي بمعنى المنهج الذي يمكن من الوصول إلى مراد الله تعالى من آياته. وكل كتب الله تعالى قد تضمنت الحكمة (آل عمران: ٨١)، ويتم التوصل إليها وفق المنهج الذي بينه الله تعالى في كتابه، المتمثل برد المتشابه إلى المحكم، وجمع الآيات ذات الموضوع الواحد، وتدبرها جميعا لمعرفة المناسبات والروابط التي بينها، فتظهر الحكمة من خلال هذا المنهج» [موقع

حبل الله، معنى الكتاب في قوله تعالى: "وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ".

يقول الأستاذ (عبد العزيز بايندر) في هذا الموضوع: «إن الحكمة هي علم إيجاد الحلول من كتاب الله. وبناء على ذلك، فليس من المرجح أن تكون كلمات الإمام الشافعي التالية صحيحة: "قرن الله تعالى الحكمة بكتابه، فأتبعها إياه، ولم يجعل هذا لأحد من خلقه غير رسوله".

اعتبر الشافعي أن الحكمة شيء خارج القرآن، علما أن الله تعالى ذكر بوضوح أنه أنزلها في كتابه. يقول الله تعالى مخاطبا نبيه الخاتم: {.. وَمَا أُنزِلَ عَلَيْكُمْ مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ ..} (البقرة: ٢٣١)، فلم يشر الله تعالى إلى الكتاب والحكمة هنا بضمير التثنية، بل استخدم الضمير المفرد، مما يدل على أن الحكمة هي من جنس الكتاب ومتلبسة به».

ويقول تبارك وتعالى في الآيات الموجهة لنساء النبي: {وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا} (الأحزاب: ٣٤)، وجاء في تفاسير عدة ما يؤيد ما تقدم من طرحنا وما استعرضناه من أقوال لباحثين ومفسرين، ويضيف إليه أيضا.. ففي فتح القدير: «قوله {واذكرن..} أي اذكرن موضع النعمة إذ صيركن الله في بيوت يتلى فيها آيات الله والحكمة، أو

اذكرنها وتفكرن فيها لتتعظن بمواعظ الله، أو اذكرنها للناس ليتعظوا بها ويهتدوا بهداها، أو اذكرنها بالتلاوة لها لتحفظنها ولا تتركن الاستكثار من التلاوة. وقال مقاتل: المراد بالآيات والحكمة: أمره ونهيه في القرآن. وقيل: إن القرآن جامع بين كونه آيات بينات دالة على التوحيد وصدق النبوة، وبين كونه حكمة مشتملة على فنون من العلوم والشرائع».

وفي تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور جاء: «فعل {واذكرن} يجوز أن يكون من الذكر بضم الذال، وهو التذكر، وهذه كلمة جامعة تشمل المعنى الصريح منه، وهو أن لا ينسين ما جاء في القرآن ولا يغفلن عن العمل به، ويشمل المعنى الكثائي، وهو أن يراد مراعاة العمل بما يتلى في بيوتهن مما ينزل فيها وما يقرؤه النبي صلى الله عليه وسلم فيها، وما يبين فيها من الدين، ويشمل معنى كثائياً ثانياً، وهو تذكر تلك النعمة العظيمة أن كانت بيوتهن موقع تلاوة القرآن.

والتلاوة: القراءة، أي إعادة كلام مكتوب أو محفوظ، أي ما يتلوه الرسول صلى الله عليه وسلم، و{من آيات الله والحكمة} بيان لما يتلى، فكل ذلك متلو، وذلك القرآن، وقد بين المتلو بشيئين: هما آيات الله والحكمة، فأيات الله يعم القرآن كله، لأنه معجز عن معارضته، فكان آية على أنه من عند الله. وعطف {والحكمة} عطف خاص على عام، وهو ما كان من القرآن مواعظ وأحكاماً

شرعية. قال تعالى بعد ذكر الأحكام التي في سورة الإسراء (٣٩): {ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ..}».

«فالمراد بالحكمة القرآن أيضاً، فإنه آيات وحكمة، ويتقوى هذا بأن التلاوة لم تعرف للسنة، بل للقرآن، والآية تذكير بنعمة الله عز وجل، إذ جعل بيوتهم مهبطاً للوحي» [تيسير التفسير].

وقال السعدي: «والمراد بآيات الله القرآن، والحكمة أسرارهِ. وأمرهن بذكره يشمل ذكر لفظه بتلاوته، وذكر معناه بتدبره والتفكر فيه، واستخراج أحكامه وحكمه».

وفي تفسير الوسيط: «أي: واذكرن في أنفسكن ذكراً متصلاً، وذكرن غيركن على سبيل الإرشاد، بما يتلى في بيوتكن من آيات الله البينات، الجامعة بين كونها معجزات دالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، وبين كونها مشتملة على فنون الحكم والآداب والمواعظ».

وقد كان النبي الكريم حكيم الحكماء، ونحن نتبعه ونتأسى به بأن نكون حكماء بدورنا، كما أراد هو لنا. «فالرسول ﷺ حين كلّف أن يعلم الكتاب والحكمة، كان المطلوب منه أن يخرج الحكماء، لا البيغاوات المقلدين لحكمته» [د. عثمان مصباح، إسلام القرآن وإسلام التاريخ].

الأسوة

فهو أسوتنا في نهجه صلى الله عليه وسلم، الذي هو متضمن ومسنون في القرآن المجيد، سواء في حكمته في تنزيل كل حكم في موضعه الصحيح، أو في عموم شمائله وما أتى في رسالته. يقول تعالى: {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} (الأحزاب: ٢١). ورغم ما قيل في تفسير هذه الآية واختلاف التفاسير، سواء من اعتبر محل الائتساء خاصا في سياق الآيات في السورة وما فيها من حديث عن واقع الحرب والقتال، أو من اعتبرها عامة في كل ما أتى به النبي في الرسالة الخاتمة، فإن المعنى في نظرنا واحد؛ إذ قالوا في التفاسير إنه محل للائتساء في شجاعته يوم الأحزاب وبذله لنفسه نصرة لرسالة رب العالمين، أي: «كان لكم قدوة في النبي صلى الله عليه وسلم حيث بذل نفسه لنصرة دين الله، في خروجه إلى الخندق» [القرطبي].

وكذلك: «في صبره ومصابرته ومرابطته ومجاهدته وانتظاره الفرج من ربه، عز وجل، صلوات الله وسلامه عليه دائما إلى يوم الدين؛ ولهذا قال تعالى للذين

تقلقوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة}، أي: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله؟ ولهذا قال: {لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا}» [ابن كثير]. فبه صلى الله عليه وسلم اقتدوا: «اقتداء حسنا إن تنصروا دين الله وتوازروا الرسول ولا تخلفوا عنه، وتصبروا على ما يصيبكم كما فعل هو إذ كسرت رباعيته وجرح وجهه، وقتل عمه وأوذي بضروب من الأذى، فواساكم مع ذلك بنفسه، فافعلوا أنتم كذلك أيضا» [البغوي].

فواضح من هذه الأقوال أن محل الائتساء في الأصل هو نهجه صلى الله عليه وسلم، وحرصه على نصره رسالة الإسلام ولو كلفه ذلك حياته وكل ما يملك؛ فلم يشح بنفسه الشريفة، ولم يتأخر عن صفوف المدافعين عن رسالة الحق سبحانه، بل كان يتقدمهم ويحثهم ويشجعهم ويواسيهم، فكان النموذج الأكمل في التصديق بالرسالة والعمل بها ومن أجلها ودفاعا عنها. وهو صلى الله عليه وسلم لم يكن ليصبح محلا للائتساء لولا أنه رسول الله، حامل ومبلغ ومعلم رسالته تبارك وتعالى، فكان الأصل والأولى أن التأسي به هو في النهج والقيم والخلق الذي تتضمنه الرسالة، وفي بذله كل ما يملك في سبيل هذه الرسالة، تبليغا وتعلিما وتطبيقا في واقعه الذي عاشه، صلوات ربي وسلامه عليه.

قد يقول قائل: وماذا عما وردنا عنه من روايات، أليس فيها ما يؤتسى به؟ أو أليست هي محل الائتساء في الأصل؟

نقول: الأصل أن التأسي أو الاقتداء إنما يكون في النهج والموقف، كما في قوله تعالى: {قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} (الممتحنة: ٤). فحل التأسي هنا هو موقفهم عند براءتهم من الشرك وأهله، وبذلك كان إبراهيم والذين معه أسوة لنا كلنا.

وكذا محمد الخاتم، فهو محل للائتساء ليس في موضع محدد فقط، بل عام بكل ما حمّله من نهج تضمنه القرآن الكريم، وبما بذله في سبيل ذلك. وهو نفسه يقتدي بهدى الأنبياء والرسل أجمعين من قبله: {أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهِ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} (الأنعام: ٩٠).

وقيل: «الاقتداء في الصبر كما صبر من قبله، وقيل: في الأخلاق الحميدة من الصبر على الأذى والعفو، وقيل في رِيّ الظمان: أمر الله تعالى نبيه في هذه الآية بمكارم الأخلاق، فأمر بتوبة آدم، وشكر نوح، ووفاء إبراهيم، وصدق

وعد إسماعيل، وحلم إسحاق، وحسن ظن يعقوب، واحتمال يوسف، وصبر أيوب، وإثابة داود، وتواضع سليمان، وإخلاص موسى، وعبادة زكريا، وعصمة يحيى، وزهد عيسى. وهذه المكارم التي في جميع الأنبياء اجتمعت في الرسول صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين، ولذلك وصفه تعالى بقوله: {وانك لعلى خلق عظيم} (القلم: ٤) وقال الزمخشري: {فبهدهم اقتده} فاخص هدهم بالاقتداء، ولا يقتدى إلا بهم. وقوله: {قل لا أسألكم عليه أجرا إن هو إلا ذكرى للعالمين} أي على الدعاء إلى القرآن، وهو الهدى والصراط المستقيم. {أجرا} أي أجره أتكثر بها وأخص بها، إن القرآن {إلا ذكرى} موعظة لجميع العالمين» [البحر المحيط].

والخلاصة أن ما أمر النبي بالاقتداء به في من سبقه من الأنبياء والرسل هو النهج المرتبط بالهدى المنزل من لدن العزيز الحكيم.

ثم بعد أن تبيّن ذلك، فلا بأس بأن نأخذ ما يصلنا من روايات عنه صلى الله عليه وسلم، ما لم يكن فيها أي معارضة لأي نص من رسالته التي أرسل بها، المتضمنة في هذا القرآن الكريم. فتعرض الروايات عليه (أي على القرآن) ليحكم عليها، لا لتحكم هي عليه؛ فهو المهيمن، وهو الذكر المحفوظ الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

والحق أن هنالك عشرات الروايات التي لا تتعارض مع كتاب الله، وفيها خير كثير، فتلك نحن معها قطعاً، ولا نرفضها ولا ننكرها كما يزعم المفترون. فقلوه عليه الصلاة والسلام: «أنا وكافل اليتيم في الجنة كهاتين، وأشار بأصبعيه يعني: السَّبَّابَةَ والوسطى»، هو مما نلتزم به وندعو إليه ونؤمن أنه صدر عنه ﷺ، بدليل موافقته لآيات كثيرة تحث على رعاية اليتيم والإحسان إليه وحفظ حقوقه، وتحذر وتتوعد من يفعل عكس ذلك.

فيتضح أن الرواية طابقت الآية، ولو لم تصلنا الرواية فلم ينقص من ديننا شيئاً، ولا من مقام الأسوة شيئاً، كيف لا وهو الذي شهد له رب العالمين فقال: {وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ} (القلم: ٤). فكل خلق كامل وعظيم هو خلق النبي الكريم المبعوث رحمة للعالمين، فكل من سار على درب كل ما هو من تمام الأخلاق وعظيمها فإنما هو يتأسي بصاحب الخلق العظيم، محمد النبي الكريم، رحمة الله للعالمين، عليه صلوات ربي وسلامه إلى أبد الآبدين.

الذكر

يستشهد البعض بهذه الآية: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (النحل: ٤٤)، على أن معنى الذكر الوارد فيها المقصود به هو أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم. فهل هذا صحيح؟ وقال أحدهم: يقولون إن الذكر محفوظ، والقرآن نفسه قال إن التوراة ذكر، فهاتوا لنا توراة موسى المحفوظة بنص القرآن، واستشهد بقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ} (الأنبياء: ٤٨)، فما الجواب؟

والجواب: أن نعم، الله تبارك وتعالى حفظ الذكر كله، وذلك بحفظه الكتاب الكامل، المكل، الخاتم، والناسخ لما حرف وما كان حكماً ظرفياً في الكتب التي قبله، والمهيمن على سائر تلك الكتب، وهو هذا القرآن الكريم. وكيف لا يحفظه الله عز وجل وهو آخر كتبه الذي به تقوم على الناس الحجة يوم القيامة؟ فيحفظ القرآن يكون الله قد حفظ ما أراد له البقاء من الكتب السابقة، ونسخ منه ما كان تشريعاً مرحلياً وظرفياً أو خاصاً بفئة بعينها، وأتى بمثله أو بأحسن منه، وأبقى جوهر الرسالات في الكتاب الجامع الخاتم: {مَا نَنْسَخْ مِنْ

آيَةً أَوْ نُسِبَهَا نَأَتْ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلَهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {
(البقرة: ١٠٦).

مع التنويه إلى أن معنى (آية) هنا لا يقتصر على الآية التشريعية، بل - يشمل
وهذا الأرجح - الآيات التكوينية، بمعنى خوارق العادات التي كان يؤيد بها
الأنبياء والرسل..

وهذا ما تناولناه بالتفصيل والتوضيح في بحث النسخ والمنسوخ في كتابنا «المرجع
الأعلى في الإسلام: نحو إعادة مركزية وهيمنة القرآن». أما القول: «هاتوا لنا
التوراة المحفوظة بنص القرآن»!!!؛ فجوابه أن الله لم يتعهد بحفظ التوراة
والإنجيل نصًّا وحرفًا، بل أسند حفظهما إلى الأحرار والرهبان، كما قال تعالى:
{إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا
وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءَ...}
(المائدة: ٤٤)، لكنهم حرفوا وزادوا كما أثبت ذلك آيات كثيرة، منها قوله
تعالى: {أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ
يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} (البقرة: ٧٥)، وقوله: {وَإِنْ مِنْهُمْ
لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ
وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ

يَعْلَمُونَ} (آل عمران: ٧٨)، وقوله: {فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ} (البقرة: ٧٩)، وقوله: {فِيمَا نَقُضُهُمْ مِيثَقَهُمْ لَعْنَهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ} * وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِي أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَمَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ} * يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} (المائدة: ١٣ - ١٦)، وغيرها... فجاء القرآن مهيمناً عليها ومصححاً لما بدّل منها وما كتم ولم يبين. ولهذا قال تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ} (المائدة: ٤٨)، أي فأحكم بينهم بالقرآن (فهو الحق) إن جاءوك. والقرآن هو الذكر المحفوظ بنص القرآن ذاته، كما في قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر:

(٩)، وهو الذي تكفل الله تبارك وتعالى بجمعه وقرآنه وبيانه: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} (القيامة: ١٦ - ١٩)، وهو الذي قال الله عنه: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} (فصلت: ٤١ - ٤٢).

أي هو: «عزيز بإعزاز الله إياه وحفظه له من كل تغيير أو تبديل، لا يأتيه الباطل من أي ناحية من نواحيه ولا يبطله شيء، فهو محفوظ من أن ينقص منه، أو يزداد فيه، تنزيل من حكيم بتدبير أمور عباده، محمود على ما له من صفات الكمال» [التفسير الميسر].

{إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ} (الواقعة: ٧٧)، أي: «كرمه الله وأعزّه، ورفع قدره على جميع الكتب، وكرمه عن أن يكون سحراً أو كهانة أو كذباً، وقيل: إنه كريم لما فيه من كرم الأخلاق ومعالي الأمور، وقيل: لأنه يكرم حافظه ويعظم قارئه. وحكى الواحدي عن أهل المعاني أن وصف القرآن بالكريم لأن من شأنه أن يعطي الخير الكثير بالدلائل التي تؤدي إلى الحق في الدين. قال الأزهري: الكريم اسم جامع لما يحمد، والقرآن كريم يحمد لما فيه من الهدى والبيان والعلم والحكمة» [فتح القدير].

فحفظ القرآن نصاً ومعنىً يعني ضمناً حفظ جوهر ما نزل قبله، لأنه المهيمن عليها والمبين لما نُزل فيها وما كتم وحرف منها. قال تعالى: {بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (النحل: ٤٤)، أي لتبين لهم بالقرآن ما نُزل إليهم في الكتب السابقة.

فالذكر في هذه الآية هو القرآن نفسه، وهو الذي يتولّى البيان والتصحيح لما قبله من كتبٍ سابقةٍ تعرّضت للتحريف، فكان مهيمناً عليها، فضلاً عن الكتب البشرية (كالبخاري ومسلم والكافي وغيرها).

ثم بعد ذلك نقول: إن رد بعض الروايات التي تُعارض ظاهر نصوص القرآن لا يعني رد كل ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم، أو إنكار أنه كان يتكلم ويوجه الأمة ويجهّد في تطبيق وتنزيل الأحكام ضمن بيئته وظروفه زمن الوحي، ولكن لا سبيل للتحقق من أن هذه الرواية أو تلك قد صدرت منه عليه الصلاة والسلام أو لا دون معيار لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهذا المعيار هو كتاب الله تعالى.. وطاعته ﷺ في حياته إنما كانت أساساً طاعة للوحي الذي ينزل عليه، الوحي الخاتم المحفوظ بحفظ الله له، وبعد وفاته تبقى طاعته باتباع ما أتمّ بلاغه مما كان ينزل عليه كرسول مبلغ. فإذاً، نحن لا نرد ما وردنا عنه - صلى الله عليه وسلم - من روايات إن لم تتعارض

مع القرآن، ونأخذ بها استثنائاً كجزء من حكمته صلى الله عليه وسلم؛ فهل من إشكال في كلامنا هذا؟

وقد رد على هذه الشبهة أيضاً الأستاذ إسلامبولي في كتابه [القرآن من الهجر إلى التفعيل]، فقال: «أول دليل يعتمد عليه أهل الحديث والإسناد في بناء مفهومهم أن الحديث وظيفته البيان للقرآن، ويقتطعون من النص القرآني قوله تعالى: {وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (النحل: ٤٤)، ويقومون ببناء مفهومهم على هذه الجملة المقتطعة من سياقها؛ وهو أن مهمة النبي هي القيام بفعل التبيين للنص القرآني بواسطة مادة الحديث النبوي؛ لأنهم فهموا أن الذكر هو مادة الحديث النبوي، وبالتالي فالحديث النبوي هو وحي من الله عز وجل أنزله الله ليستخدمه النبي في عملية تبينه لما نزل عليه من وحي القرآن. هكذا زين لهم الشيطان، وأقنعهم بوجود وحين ومصدرين للتشريع!

وانتشر هذا التفسير الأبر بين شريحة كبيرة من المسلمين، ظنا منهم أن هذه الجملة هي نص كامل لا يوجد قبلها أو بعدها شيء، وقاموا بدراساتهم وأبحاثهم وفق هذه الرؤيا البتراء. ولك أن تتصور حجم الضلال الذي وقع فيه هؤلاء، عندما بنوا مفهوماً أصولياً عقائدياً على هذه الطريقة الشيطانية في تعاملهم مع النصوص؛ فمثلهم كمثل من يأخذ قوله تعالى: {فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ} (الماعون: ٤)،

وقوله: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ..} (النساء: ٤٣)، وأمثال ذلك من الجمل المقتطعة من سياقها ومنظومتها.

إذن، أول عمل نقوم به هو إرجاع هذه الجملة إلى مكانها في النص: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ * بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} (النحل: ٤٣ - ٤٤).

والقيام بقراءة النص كاملاً في مكانه حسب سياقه، فيخرج معنا أن النص الذي يحتوي على الجملة المعنية بالدراسة هو نص مرتبط بالنص الذي قبله؛ لأن نهاية النص السابق (إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) مرتبطة دلالته ببداية النص اللاحق (بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ)، وإذا تم هذا الربط الموضوعي بين النصين وجب النظر إليهما معاً وتفسيرهما بشكل منسجم مع بعضهما.

فكلمة (أهل الذكر) في النص الأول هم أهل العلم بالكتاب، والذكر الذي نزل إليهم هو التوراة والإنجيل، أما كلمة (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ) في النص الثاني فهي القرآن، والذي نزل إليه الذكر هو النبي محمد، وجملة (ما نزل إليهم) ليست عائدة إلى كلمة (الذكر) التي قبلها مباشرة، وإنما هي عائدة إلى (الذكر) السابق الذي نزل للناس. فالنص يحتوي على فعلي نزول:

الأول: (وأنزلنا إليك الذكر)، والمخاطب به النبي محمد، والذكر الذي نزل إليه هو القرآن.

الثاني: (ما نزل إليهم)، وهو فعل نزول إلى الناس سابقا، وليسوا هم إلا أتباع الأنبياء، وبالذات موسى وعيسى عليهما السلام، والذكر الذي نزل إليهم هو التوراة والإنجيل.

ففعلا النزول غير عائدين إلى مادة واحدة، وإنما لكل منهما مادة مستقلة، فتكون وظيفة النبي كرسول التبیین (لتبين للناس ما نزل إليهم) هي استخدام الذكر الذي أنزل حديثا (وأنزلنا إليك الذكر)، الذي هو النص القرآني، في عملية التبیین للذكر الذي نزل سابقا (ما نزل إليهم)، الذي هو التوراة والإنجيل.

ويكون البيان من النبي بقيامه بتلاوة وعرض النص القرآني على الناس؛ ليقوموا بتدقيق ذكرهم القديم على موجب الذكر الحديث، فيظهر لهم مواضع التحريف، ويظهر لهم ما قد تم نسخه أو تعديله بالذكر الحديث، وما تم إقراره لصلاحيته، حيث تم نزوله مرة ثانية في الذكر الحديث؛ لذلك أنهى الله عز وجل النص بقوله: (ولعلمهم يتفكرون).

إذن، وظيفة البيان التي يقوم بها النبي بواسطة الذكر الحديث (القرآن) إنما هي وظيفة تاريخية لذكر قديم (التوراة والإنجيل)، ليتم تصويب وتعديل القديم على

ضوء الحديث. هذا تفسير وظيفة البيان للنبي بالنص السابق، ولا علاقة لها بمادة الحديث النبوي إطلاقاً. وبالتالي فاستدلال بعض العلماء بهذه الجملة المقتطعة من النص خطأ فاحش، ويجب إرجاعها إلى سياقها وقراءتها وفق النص كاملاً ضمن المنظومة الكلية التي تثبت أن النص القرآني هو بيان بنفسه، ووظيفته التبيين لغيره، كما جاءت النصوص بذلك؛ نحو قوله تعالى:

• { هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ } (آل عمران: ١٣٨).

• { ..وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ } (النحل: ٨٩).

• { الرُّجُوعُ لَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ } (يوسف: ١).

• { الرُّجُوعُ لَكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُّبِينٍ } (الحجر: ١) « انتهى النقل.

القرآن = الذكر

ج
وأما عن أن القرآن ذكر، فيقول الله تبارك وتعالى في محكم تنزيله: {ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ* بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ} (ص: ٢). «لما ذكر عن الكفار أنهم كانوا يقولون: {لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِّنَ الْأَوَّلِينَ} (الصفافات: ١٦٨)، لأخلصوا العبادة لله، وأخبر أنهم أتاهم الذكر فكفروا به. بدأ في هذه السورة بالقسم بالقرآن؛ لأنه الذكر الذي جاءهم، وأخبر عنهم أنهم كفرون، وأنهم في تعزز ومشاقة للرسول الذي جاء به، ثم ذكر من أهلك من القرون التي شاخت الرسل ليتعضوا» [البحر المحيط].

و«الواو في {وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ} للقسم، أقسم بالقرآن قسم تنويه به. ووصف بـ {ذِي الذِّكْرِ} لأن {ذِي} تضاف إلى الأشياء الرفيعة فتجري على متصف مقصود التنويه به. و{الذكر}: التذكير، أي تذكير الناس بما هم عنه غافلون. ويجوز أن يراد بالذكر ذكر اللسان، وهو على معنى: الذي يذكر، بالبناء للنائب، أي والقرآن المذكور، أي الممدوح المستحق الثناء» [التحرير والتنوير].

وقيل: «ذِي الذِّكْرِ: ذِي الشَّرَفِ وَالرَّفْعَةِ، أَوْ ذِي الْبَيَانِ لِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ الْخَلْقُ فِي أُمُورِ دِينِهِمْ» [أيسر التفاسير].

وقوله تعالى عن المشركين: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} (الحجر: ٦). «يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء المشركون لك من قومك، يا محمد: {يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ}، وهو القرآن الذي ذكر الله فيه مواعظ خلقه، {إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} في دعائك إيانا إلى أن نتبعك ونذر آلهتنا» [القرطبي].

«{وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} أي: القرآن. قالوا هذا استهزاء» [الوجيز].

وقد «أنكر جل وعلا على الكفار استهزاءهم برسول الله صلى الله عليه وسلم بقولهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ}، فقال سبحانه: {إِنَّا نَحْنُ نُزِّلْنَا الذِّكْرَ}، أي: نحن نزلنا ذلك الذكر الذي أنكروه، (وما هو إلا القرآن)، ونسبوك بسببه إلى الجنون، {وَأَنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} عن كل ما لا يليق به من تصحيف وتحريف وزيادة ونقص ونحو ذلك. وفيه وعيد شديد للمكذبين به، المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم» [فتح القدير].

«قال المكذبون لمحمد صلى الله عليه وسلم استهزاء وسخرية: {يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ} على زعمك، {إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ}، إذ تظن أنا سنبتعك ونترك ما

وجدنا عليه آباءنا لمجرد قولك. {لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ} (الحجر: ٧)، يشهدون لك بصحة ما جئت به، {إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}. فلما لم تأت بالملائكة فلست بصادق، وهذا من أعظم الظلم والجهل. أما الظلم فظاهر، فإن هذا تجرؤ على الله وتعنّت بتعيين الآيات التي لم يخترها، وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة الدالة على صحة ما جاء به.

وأما الجهل فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرتهم، فليس في إنزال الملائكة خير لهم، بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي لا إهمال على من لم يتبعه وينقد له. {وَمَا كَانُوا إِذًا} أي: حين تنزل الملائكة، إن لم يؤمنوا، ولن يؤمنوا، {مُنْظَرِينَ}، أي: بمهملين، فصار طلبهم لإنزال الملائكة تعجيلا لأنفسهم بالهلاك والدمار. ويكفيهم من الآيات إن كانوا صادقين هذا القرآن العظيم، ولهذا قال هنا: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ}، أي: القرآن الذي فيه ذكرى لكل شيء من المسائل والدلائل الواضحة، وفيه يتذكر من أراد التذكر، {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}، أي: في حال إنزاله وبعد إنزاله؛ ففي حال إنزاله حافظون له من استراق كل شيطان رجيم، وبعد إنزاله أودعه الله في قلب رسوله، واستودعه فيها ثم في قلوب أمته، وحفظ الله ألفاظه من التغيير فيها والزيادة والنقص، ومعانيه من التبديل، فلا يحرف محرف معنى من معانيه إلا وقض الله له من يبين الحق

المبين، وهذا من أعظم آيات الله ونعمه على عباده المؤمنين» [تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي].

فلا نكاد نجد اختلافا لدى معظم المفسرين في أن الذكر في الآيات السابقة إنما هو القرآن، على أن المعنى يشمل الكتب السابقة أيضا من حيث هي ذكر أيضا نزله الله على رسله، لكن لم توصف قط أقوال النبي ﷺ والمرويات التي وصلتنا بأنها «ذكر»، أو من هذا الذكر، بنص قرآني قطعي، وإنما هي تأولات وتخربات لا أكثر.

والدليل: عدم حفظها، بينما حفظ القرآن بالحرف والحركة، بل وبعشر أوجه للتلاوة، كلها محفوظة ومتواترة بالتتابع المستمر المتكاثر في الأمة، وهذا مصداق قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر: ٩).

ثم إن هذه الروايات محل خلاف بين الطوائف والمذاهب الإسلامية، بل حتى داخل المذهب الواحد؛ فهناك الصحيح، والضعيف، والمنكر، والموضوع، ناهيك عن التضارب والتناقض بين الرواية والأخرى. والأهم من ذلك أن سوادها الأعظم ظني الثبوت، والظن لا يغني عن الحق شيئا: {وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} * وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ

لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ { (يونس: ٣٦ - ٣٧). في حين يتفق كل المسلمين، بمختلف طوائفهم ومذاهبهم وفرقهم، على أمر واحد، هو هذا الكتاب الذي: {لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ { (فصلت: ٤٢).

ثم بعد؛ فأني لمن وصله هذا الكتاب، الذي هو حق كله، ونزل بالحق من لدن الحق جل جلاله، أن لا يكفيه، فيزيغ عنه باحثا عن الحق والحكمة والخير في شيء سواه؟ {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (العنكبوت: ٥١). «وانه للبطر بنعمة الله ورعايته التي تجل عن الشكر والتقدير. أو لم يكفهم أن يعيشوا مع السماء بهذا القرآن؟

وهو يتنزل عليهم، يحدثهم بما في نفوسهم، ويكشف لهم عما حولهم، ويشعرهم أن عين الله عليهم، وأنه معني بهم حتى يحدثهم بأمرهم، ويقص عليهم القصص ويعلمهم، وهم هذا الخلق الصغير الضئيل التائه في ملكوت الله الكبير. وهم وأرضهم وشمسهم التي تدور عليها أرضهم ذرات تائهة في هذا الفضاء الهائل لا يمسكهن إلا الله. والله بعد ذلك يكرمهم حتى لينزل عليهم كلماته تتلى عليهم، ثم هم لا يكتفون!» [في ظلال القرآن].

اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم

لا نجد في كتاب الله تعالى إلا قولاً صريحاً واضحاً لا يحتمل إلا معنى واحداً: {تَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} (الأعراف: ٣)، اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، وليس هو إلا هذا القرآن، ولا تتبعوا من دونه شيئاً أو أحداً. لقد «وجه الله سبحانه وتعالى إلى المخاطبين بهذا القرآن أول مرة، وإلى كل قوم يواجههم الإسلام ليخرجهم من الجاهلية، الأمر باتباع ما أنزل في هذا الكتاب، والنهي عن اتباع الأولياء من دون الله. ذلك أن القضية في صميمها هي قضية الاتباع: من يتبع البشر في حياتهم؟ يتبعون أمر الله فهم مسلمون، أم يتبعون أمر غيره فهم مشركون؟» [في ظلال القرآن].

ويقول تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ} (الأنبياء: ٤٥)، «قل، أيها الرسول، لمن أرسلت إليهم: ما أخوفكم من العذاب إلا بوحى من الله، وهو القرآن، ولكن الكفار لا يسمعون ما يلقي إليهم سماع تدبر إذا أنذروا، فلا ينتفعون به» [التفسير الميسر].

ويقول تبارك وتعالى: {وَإِذْ تُلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ ۚ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا
إِنَّتِ بَقْرَانٌ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ
إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ} (يونس: ١٥).

«وهو طلب عجيب لا يصدر عن جد، إنما يصدر عن عبث وهزل، وعن جهل
كذلك بوظيفة هذا القرآن وجدية تنزيله. وهو طلب لا يطلبه إلا الذين لا
يظنون أنهم سيلقون الله. إن هذا القرآن دستور حياة شامل، منسق بحيث يفي
بمطالب هذه البشرية في حياتها الفردية والجماعية، ويهدها إلى طريق الكمال في
حياة الأرض بقدر ما تطيق، ثم إلى الحياة الأخرى في نهاية المطاف. ومن
يدرك القرآن على حقيقته لا يخطر له أن يطلب سواه أو يطلب تبديل بعض
أجزائه. وأغلب الظن أن أولئك الذين لا يتوقعون لقاء الله كانوا يحسبون المسألة
مسألة مهارة، ويأخذونها مأخذ المباريات في أسواق العرب في الجاهلية.

فما على محمد أن يقبل التحدي ويؤلف قرآنا آخر، أو يؤلف جزءا مكان جزء؟!
{قل: ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي.

إن أتبع إلا ما يوحى إلي. إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم}. إنها
ليست لعبة لاعب ولا مهارة شاعر، إنما هو الدستور الشامل الصادر من مدير
الكون كله، وخالق الإنسان، وهو أعلم بما يصلحه. فما يكون للرسول أن يبدله

من تلقاء نفسه، وإن هو إلا مبلغ متبع للوحي الذي يأتيه، وكل تبديل فيه معصية وراءها عذاب يوم عظيم» [في ظلال القرآن].
 والخلاصة أن: {تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ} (الجماعية: ٦). «إن أي كلام لن يبلغ كلام الله في القرآن، وإن أي إبداع لن يبلغ إبداع الله في الكون، وإن أية حقيقة لن تبلغ حقيقة الله في الثبوت والوضوح واليقين. {فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون؟}». [في ظلال القرآن].



أليس الذين نقلوا القرآن هم أنفسهم الذين نقلوا الروايات، وبالتالي فمن شكك في حفظ شيء من الأخيرة فقد طعن مباشرة في حفظ القرآن؟

نقول: طالما تكرر استخدام هذه الشبهة، وهي مما يروجه عباد الروايات، أولئك الذين لا يبالي الواحد منهم بنقل أي رواية يجدها، حتى وإن كانت تقول صراحة بنقص القرآن، وأن منه ما ضاع أو أكله الداجن، أو رواية تنتهك خصوصية رسول الله في حياته مع أهله، بحيث لا يقبل أقل الناس أن تقال عنه أو عن والده مثل تلك الروايات، ثم يقبلونها في رسول الله، ويتداولونها على أنها جزء من الدين، ومن ردها فقد كفر!

إن هذه الشبهة الهزيلة الساقطة لا تحتاج في ردها ودحضها أكثر من لفت نظر المسلم الذي يؤمن بالله وكتبه ورسله إلى كلام الله ذاته في كتابه الخاتم المهيمن؛ فمن يكفيه قوله سبحانه وتعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر: ٩) سوف لن يطيل النقاش بعد ذلك أويكابر ويراوغ ويماحك، بل ينبيه على الفور مذعنا للحق. فالله هو المتكفل بحفظ كتابه، وقد تعهد جل وعلا بذلك: «وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟!!».

وهذا الكتاب هو حجة الله على العباد يوم القيامة، فلا حساب ولا عقاب قبل إقامة الحجّة، والمتمثلة في كتابه العزيز، حاوي الرسالة، والمكمل للدين، والمهيمن على كل كتاب وذكر ورأي وحديث، وكان سيصلنا لا محالة، وسيصل كل الأجيال القادمة إلى قيام الساعة.

ثم إن القرآن قد نقل بالتلاوة المتتابعة المتواترة المتكاثرة المتنامية جيلا بعد جيل في الأمة، حتى صارت نسخ المصاحف في كل مكان على وجه البسيطة. لقد حفظ القرآن في الصدور ولا يزال، ثم وثق في السطور ولا يزال، وكلاهما في ازدياد؛ من جهة عدد الحفظة، ومن جهة عدد المصاحف المخطوطة، سواء المطبوعة منها أو ما هو على الأجهزة الذكية المختلفة. وقد حفظ قبل ذلك ولا يزال على مستوى الدول والشعوب والمؤسسات، ووصلنا عن طريق البر

والفاجر، الصالح والطالح، من أحبه ومن كرهه، وهذا أعظم مصداق لقوله سبحانه: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}. فصدق الله العلي العظيم.

ثم هو (القرآن) محفوظ بالنص والحرف والحركة، ومتعبد بتلاوته، ومتفق عليه من كل فرق ومذاهب الأمة.

أما الرواية فمختلف عليها بين الطوائف، ولا يتعبد بتلاوتها، وكثير منها الموضوع والضعيف، وقليل هو الصحيح بالمقارنة مع الكثير المشكوك فيه، وهي في كل الأحوال ظنية الثبوت في معظمها. إذن لا تلازم بين قبول القرآن ووجوب قبول كل رواية.

علينا أن نعي جيدا أن القرآن فوق كل شك، أو مقارنة بكتاب أو قول أو رأي، كيف لا وهو الكتاب الكامل الخاتم المتعهد من الله عز وجل بحفظه، وهو الذي تعهد سبحانه، مع ذلك، بجمعه وقرآنه وبيانه، فقال تبارك وتعالى للرسول الأمين: {لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ * إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ * فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ * ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ} (القيامة: ١٦ - ١٩). «والإيحاء الذي تتركه (هذه الآيات) في النفس هو تكفل الله المطلق بشأن هذا القرآن: وحيا وحفظا وجمعا وبيانا، وإسناده إليه سبحانه وتعالى بكليته.. ليس للرسول صلى الله عليه وسلم من أمره إلا حمله وتبليغه». [في ظلال القرآن].

«{لا تحرك به} أي بالوحي، {لسانك لتعجل به}، كان جبريل عليه السلام إذا نزل بالقرآن تلاه النبي صلى الله عليه وسلم قبل فراغ جبريل، كراهية أن ينفلت منه، فأعلم الله تعالى أنه لا ينسيه إياه، وأنه يجمعه في قلبه». [الوجيز].



«إن الربط بين قبول القرآن والحديث بناء على اتحاد النقلة يعد مغالطة منهجية تهمل الفروق الأصولية التي أقرها علماء الإسلام. فالتواتر القطعي للقرآن - المدعوم بالحفظ الإلهي - يجعله في منأى عن الشكوك، بينما الحديث خاضع للنقد السندي. ومن ثم فإن الطعن في بعض روايات الحديث لا يلزم الطعن في القرآن، بل يؤكد ضرورة التمييز بين النقلين، كما فعل الأئمة عبر القرون.

وبالتالي فهذه المقولة باطلة بكل المقاييس، ولا يرددها إلا أنصاف المتعلمين، وهي حديثة عهد بالظهور، لم تكن سائدة عند العلماء السابقين. إنها خدعة ووهم!! شغلوا بها المسلمين زمنا طويلا لصدهم عن التفاعل مع القرآن.

والحل لمعرفة الأحاديث النبوية ليس الإسناد بداية، وإنما هو القرآن والعلم أولا، فإن وافق متن الحديث القرآن، وانسجم معه بين يديه لا يتجاوزه، يتم النظر في سنده، فإن صح على غلبة الظن نسبته إلى النبي، وإن لم يصح سنده نسبته إلى الحكماء والعلماء، ويكون قولاً أو حكمة صواباً. وهذا الحديث الصحيح

متنا وسندا ما ينبغي أن يكون مصدرا تشريعا، وإنما هو تابع للقرآن، مع استغناء القرآن عنه، ولا مانع من روايته بعد الاستدلال بالقرآن على المسألة المعنية بالدراسة، والتنويه على أنه ليس برهانا أو مصدرا شرعيا.

اقرأوا قوله تعالى:

﴿وَإِذَا سُئِلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (يونس: ١٥).

واقرأوا حديث النبي الذي يقول:

١- (الحلال ما أحل الله في كتابه، والحرام ما حرم الله في كتابه، وما سكت عنه فهو مما عفا عنه). [ابن ماجه ٣٣٥٨، والدارقطني، والحاكم، والبيهقي، والبزار، والطبراني].

٢- (أطيعوني ما دمت فيكم، فإذا ذهب بي فعليكم بكتاب الله، أحلوا حلاله وحرّموا حرامه). [مسند أحمد ٦٣٨١، وصححه الألباني في الصحيحة تحت رقم ١٤٧٢].

٣- عن أبي هريرة قال: كنا قعودا نكتب ما نسمع من النبي صلى الله عليه وآله، فنخرج علينا فقال: «ما هذا تكتبون؟» فقلنا: ما نسمع منك. فقال: «أكتب مع

كُتِبَ اللَّهُ؟» فقلنا: ما نسمع. فقال: «اكتبوا كتاب الله، أمحضوا كتاب الله وأخلصوه، أكتب غير كتاب الله؟ أمحضوا كتاب الله أوخلصوه». قال: فجمعنا ما كتبنا في صعيد واحد ثم أحرقناه بالنار. قلنا: أي رسول الله، أنتحدث عنك؟ قال: «نعم، تحدثوا عني ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار». [الإمام أحمد].

٤- عن أبي موسى الأشعري، قال: قال رسول الله: «إن بني إسرائيل كتبوا كتابا واتبعوه وتركوا التوراة». [رواه الطبراني في الأوسط ٥٥٤٤].

٥- عن أبي هريرة قال: كان إذا حدث عن رسول الله يقول: قال رسول الله: من كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار. فكان ابن عباس إذا حدث قال: إذا سمعتموني أحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله فلم تجدوه في كتاب الله أو حسنا عند الناس فاعلموا أنني قد كذبت عليه. [سنن الدارمي: ٥٩٣].

٦- عن أبي سعيد الخدري أن النبي قال: «لا تكتبوا عني شيئا سوى القرآن، ومن كتب عني شيئا سوى القرآن فليمحاه». [صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه].

٧- قال رسول الله صلى الله عليه وآله: اعملوا بالقرآن، أحلوا حلاله وحرموا حرامه، واقتدوا به، ولا تكفروا بشيء منه، وما تشابه عليكم منه فردوه إلى الله

وإلى أولي العلم من بعدي كما يخبروكم، وآمنوا بالتوراة والإنجيل والزبور، وما أوتي النبيون من ربهم، وليسعكم القرآن وما فيه من البيان». [السنن الكبرى للبيهقي]. [سامر إسلامبولي، شبهة أن الذين نقلوا القرآن هم أنفسهم نقلوا الحديث].



القراءات العشر!!

نهي كلامنا هنا بالتعرض باقتضاب لموضوع هام يساء فهمه باستمرار، ألا وهو موضوع القراءات أو التلاوات العشر للقرآن، فنقول إن هذه القراءات في حقيقة الأمر ليست إلا وجهاً آخر لحفظ الله لهذا الكتاب العظيم المبارك، حيث حفظ تبارك وتعالى كتابه ليس بقراءة واحدة وتلك كافية ووافية، بل بعشر قراءات، وكل واحدة منها على حدة كافية شافية.

والقراءات أو التلاوات هذه لا تعني أن هناك نسخاً مختلفة من كتاب الله، فهذا فهم مشوه وخاطئ وكاذب وباطل، وإنما المقصود هو اختلاف في تلاوة بعض الكلمات المحدودة أو صيغها أو الأحرف والحركات داخل هذا النص القرآني الواحد المحفوظ، والذي لا يوجد سواه لدى جميع المسلمين منذ نزوله وإلى قيام الساعة؛ فهذه التلاوات إذن إنما هي ضمن النص الواحد المتعهد

بحفظه ممن؟ من منزله جلّت قدرته، وليست هي نسخاً أخرى كما يتوهم ويُوهم
الجهلة الطاعنون في كتاب الله من لا دينيين ومن لفّ لفهم.

ثم إن هذا الاختلاف في تلاوة هذه الكلمات المحدودة والمحفوظة هو اختلاف
تنوع لا تضاد أو تناقض؛ فلا اختلاف في الأحكام، ولا في إثبات الأخبار
والأحداث أو المفاهيم الإيمانية.. إلخ، على الإطلاق. وأحسن من تطرق لهذا
الموضوع في نظرنا هو الأستاذ الإسلامبولي، وله كتاب قيم كذلك فيه، وقد أفدنا
منه كثيراً، يقول: «الملاحظ أن من يعترض على التلاوات سواء من اللادينيين
أو من بعض الباحثين المسلمين لا يعرف عن التلاوات إلا اسمها (اختلاف
التلاوات)، فيذهب اللادينيون فوراً لنقض النص القرآني ووصفه بالتحريف،
ويذهب بعض الباحثين الإسلاميين لإنكار التلاوات وإثبات واحدة بناء على
معطيات شخصية تقوم معظمها على النظرية العددية أو جهل لماذا حصل
الاختلاف، أو رفض مزاجي للتلاوات الأخرى رغم أنها متتابعة في الأمة
مثل التلاوة التي اعتمدها..»

• تلاوات القرآن المتعددة والمتتابعة في الأمة ثابتة.. وظهورها كان متزامناً مع
استمرار نزول القرآن ذاته في مجتمع الصحابة.. وهي تتعلق بمجموعة من الكلمات
أو الضمائر أو الحركات، وهي من باب اختلاف التنوع وليس التضاد ولا

التناقض، فالمفهوم الإيماني ثابت، والحكم الشرعي ثابت، والخبر الغيبي ثابت في كل التلاوات، ولا مانع أن يلزم كل باحث نفسه بتلاوة دون غيرها، ولا ينفي صحة ثبوتها ولا ينكرها بمزاجه!

• وكانت موجودة ومتداولة قبل رسم النص القرآني في زمن عثمان، مما يدل على انتفاء سببته في ولادة التلاوات، وكانت متتابعة في كل مجتمع بعد مجتمع الصحابة. وكانت تعتمد أصلاً على التلقي والسماع، وليس على الرسم المكتوب، وجميع من كان يتصدر تعليم الناس التلاوات إنما تلقى النص القرآني عن قبله سماعاً إلى مجتمع الصحابة، وكان علماء التلاوات يعطون إجازات في التعليم لتلاميذهم على مرأى ومسمع من المجتمع.

• ولو كان اختلاف التلاوات نتيجة احتمال رسم النص القرآني غير المنقط لعدة أوجه من الدلالات التي يحتملها السياق اللساني، لوجب أن يشمل ذلك مجموع مادة النص القرآني، لجريان الأمر ذاته عليها من حيث احتمال الرسم لأوجه من الدلالات يحتملها السياق واللسان» [سامر إسلامبولي، ظاهرة النص القرآني: تاريخ ومعاصرة].



• {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نُنْزِلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ * إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} (الحجر: ٦ - ٩).

• {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} (فُصِّلَتْ: ٤١ - ٤١).

• {ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ * أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (البقرة: ٢ - ٥).

• {وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا} (الكهف: ٢٧).

• {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ * مِنْ قَبْلِ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ} (آل عمران: ٢ - ٤).

• {أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} (العنكبوت: ٥١).

ملحق

الرسالة الخاتمة: للناس كافة

وهل العرب أفضل من غيرهم لمجرد كونهم عرباً؟

بعد أن نشرتُ كتابي "مقالة السعي المقدس"، والذي تطرقت فيه إلى قضايا عديدة، كان من بينها محاولة بعض المنحرفين عقدياً تصوير الإسلام كما لو أنه دين جاء للعرب وحدهم دون غيرهم، وأن العرب هم "شعب الله المختار"، ومن عداهم ضالون ملعونون منبوذون محقورون، مصيرهم النار يخلدون فيها...

وردني سؤال حول معنى قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} (إبراهيم: ٤)؛ هل في ذلك إشارة إلى ما يدعيه بعض الزنادقة من أن الرسالة الخاتمة هي لقوم النبي فقط في حياته، وبعد وفاته هي للعرب وحدهم دون بقية الناس؟ ذلك لأنه إذا كان القرآن قد نزل باللسان العربي المبين، والله لا يرسل الرسل إلا بالسنة أقوامهم، فمعنى ذلك أن الرسول الخاتم قد أرسل لقومه فقط، وهم العرب! والرد على هذه الشبهة من وجوه: أولاً: انتقاء آية وبترها من مجموع الآيات الواردة في الموضوع الواحد هو تعضية للقرآن؛ أي تجزئة وتشويه له.

وهذه آية واحدة ضمن الكثير من الآيات في موضوعها، وكلها تؤكد عالمية الرسالة وإنسانيتها.

ولمن لم يقرأ القرآن من قبل؛ نحيله - قبل التفصيل في الإجابة - ليتأمل كلام الله في هذه الآيات الكريمات:

- {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} (الأعراف: ١٥٨)، «قل - أيها الرسول - للناس كلهم: إني رسول الله إليكم جميعاً لا إلى بعضكم دون بعض، الذي له ملك السموات والأرض وما فيهما، لا ينبغي أن تكون الألوهية والعبادة إلا له جل ثناؤه، القادر على إيجاد الخلق وإفناءه وبعثه، فصدقوا بالله وأقروا بوحدانيته، وصدقوا برسوله محمد ﷺ النبي الأمي الذي يؤمن بالله وما أنزل إليه من ربه وما أنزل على النبيين من قبله، واتبعوا هذا الرسول، والتزموا العمل بما أمركم به من طاعة الله، رجاء أن توفقوا إلى الطريق المستقيم».

[التفسير الميسر].

- {وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا} (النساء: ٧٩)، «وقد بعثناك - أيها النبي - لجميع الناس رسولاً من الله تبلغهم رسالة ربك، وكفى بالله شاهداً على صدقك فيما تبلغه عنه، بما آتاك من أدلة وبراهين».

[المختصر].

- {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} (النساء: ١٧٠)، «فهو رسول إلى العالمين. إلى الناس كافة - بعدما غبرت الرسالات كلها خاصة بقوم كل رسول - فلم يكن بد من تبليغ عام في ختام الرسالات، يبلغ إلى الناس كافة: {ثلاثا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل}.

ولو لم تكن هذه الرسالة عامة للناس كافة لكان للناس - ممن سيأتون من أجيال وأمم - حجة على الله. فانقطعت هذه الحجة بالرسالة العامة للناس وللزمان، وكانت هي الرسالة الأخيرة». [في ظلال القرآن].

- {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَتَيْكُمْ لِتَشْهَدُوا أَنْ مَعَ اللَّهِ إِلَهٌ آخَرُ قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ وَإِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} (الأنعام: ١٩)، «فكل من بلغه هذا القرآن من الناس، بلغه يفهمها، ويحصل منها محتواه، فقد قامت عليه الحجة به، وبلغه الإنذار، وحق عليه العذاب، إن كذب بعد البلاغ». [في ظلال القرآن].

- {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} (يونس: ١٠٨)، «فهو الإعلان

الأخير للناس، والكلمة الفاصلة، والمفاصلة الكاملة، ولكل أن يختار لنفسه. فهذا هو الحق قد جاءهم من ربهم. {فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه، ومن ضل فإنما يضل عليها}.. وليس الرسول موكلاً بالناس يسوقهم إلى الهدى سوقاً، إنما هو مبلغ، وهم موكولون إلى إرادتهم وإلى اختيارهم وإلى تبعاتهم، وإلى قدر الله بهم في النهاية». [في ظلال القرآن].

- {وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} (يوسف: ١٠٤)، «إن الذي أرسلت به من القرآن والهدى عظة للناس أجمعين يتذكرون به ويهتدون». [الميسر].

- {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ} (الأنبياء: ١٠٧)، «ولقد أرسل الله رسوله رحمة للناس كافة ليأخذ بأيديهم إلى الهدى، وما يهتدي إلا أولئك المتهيئون المستعدون. وإن كانت الرحمة تتحقق للمؤمنين ولغير المؤمنين.

إن المنهج الذي جاء مع محمد -صلى الله عليه وسلم- منهج يسعد البشرية كلها ويقودها إلى الكمال المقدر لها في هذه الحياة.

ولقد جاءت هذه الرسالة للبشرية حينما بلغت سن الرشد العقلي: جاءت كتاباً مفتوحاً للعقول في مقبل الأجيال، شاملاً لأصول الحياة البشرية التي لا تتبدل، مستعداً لتلبية الحاجات المتجددة التي يعلمها خالق البشر، وهو أعلم بمن

خلق، وهو اللطيف الخبير. ولقد وضع هذا الكتاب أصول المنهج الدائم لحياة إنسانية متجددة. وترك للبشرية أن تستنبط الأحكام الجزئية التي تحتاج إليها ارتباطات حياتها النامية المتجددة، واستنباط وسائل تنفيذها كذلك بحسب ظروف الحياة وملابساتها، دون اصطدام بأصول المنهج الدائم.

وكفل للعقل البشري حرية العمل، بكفالة حقه في التفكير، وبكفالة مجتمع يسمح لهذا العقل بالتفكير». [في ظلال القرآن].

- {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ} (الحج: ٤٩)، «قل - أيها الرسول -: يا أيها الناس ما أنا إلا منذر لكم مبلِّغ عن الله رسالته». [الميسر].

- {تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا} (الفرقان: ١)، «أي: الله الذي نزل القرآن فارقاً بين الحق والباطل. على عبده: أي محمد صلى الله عليه وسلم. ليكون للعالمين نذيراً: أي ليكون محمد صلى الله عليه وسلم نذيراً للعالمين من الإنس والجن أي مخوفاً لهم من عقاب الله وعذابه إن كفروا به ولم يعبدوه ويوحّدوه». [أيسر التفاسير].

{وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} (سبأ: ٢٨)، «وما أرسلناك يا محمد إلى قومك خاصةً، وإنما أرسلناك إلى الخلق

جَمِيعاً، مُبَشِّراً مَنْ أَطَاعَ اللَّهَ بِالثَّوَابِ الْجَزِيلِ، وَالْجَنَّاتِ الْعَالِيَاتِ، وَمُنْذِراً مَنْ عَصَاهُ بِالْعَذَابِ الْأَلِيمِ .. كَافَّةً لِلنَّاسِ - إِلَى النَّاسِ جَمِيعاً. [أيسر التفاسير].

- {هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيداً} (الفتح: ٢٨). إنه دين العدل والحرية والرحمة والمساواة والإخاء، ونصرة المستضعفين، وردع الظالمين، والإحسان إلى عموم المخلوقات؛ فهو دين الحق بلا ريب، والله مظهره على الدين كله بالحجة والبرهان، وكفى به شهيداً.

فكيف يكون هذا القرآن والمرسل به (كافة للناس) وهو مرسل لقوم محددين؟

إذاً، فالمسألة تحتاج إلى توضيح للبس الذي حصل؛ والجواب هو أنه من البديهي أن يخاطب الرسول أول من يخاطب قومه الذين حوله، وكيف يخاطبهم بغير لسانهم؟! لذا اقتضت الحاجة ذلك، ولكن هل معناه أن الخطاب -أو الدعوة- هكذا انحصر بهم؟! لا، وإنما ابتداء بهم كما في قوله تعالى: (لَتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا)، وقوله {فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَتُكُونَ مِنَ الْمُعَذِّبِينَ * وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ * فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ} (الشعرا: ٢١٣-٢١٦) -لا تمييزاً لهم عن غيرهم- وإنما هي ضرورة الواقع كما ذكرنا.

ويكون حمل الرسالة من بعدها واجباً على من صدق منهم وآمن وعمل بما أرسل الله به رسوله الخاتم.

ثانياً: كون الله اختار محمد بن عبد الله ليكون الرسول الخاتم هو أمر غير خاضع للاعتراض أو السؤال: {وَاللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ..} (الأنعام: ١٢٤)، فذلك تقديره سبحانه، وهو الذي: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} (الأنبياء: ٢٣).

وكذا الأمر بالنسبة للسان الذي اختاره ليكمل به دينه في الكتاب الخاتم. فهذا اختيار رباني، ليس هو محل اعتراض أو سؤال.

كما أنه يجب -وبتشديد هنا- ألا يكون ذلك محل تفاخر من قبل العرب أو ادعاء تفوق أو تفضيل عنصري؛ حاشا وكلا، ذلك لأن الله هو من قدر اختلاف الألسن والألوان، وجعل اختلافها آية من آياته: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ} (الروم: ٢٢)، وهو الذي خلق الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتَقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات: ١٣)؛ فإن تعارفوا تعايشوا، ومن ثم

تعاونوا على البر والتقوى، وكان الأكرم عند الله - دائماً وأبداً - هو الأتقى فقط؛
عربي أو أعجمي، أبيض أو أسود، لا فرق.

وعندما قال عز من قائل: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ...} فإن المقصود بهم
هم من آمن، وكل من تبعهم بعد ذلك من الناس؛ على أن تنطبق عليهم هذه
الشروط، وهي في نفس الآية: {..تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمْ
الْفَاسِقُونَ} (آل عمران: ١١٠).

ثالثاً: قلنا إنه ليس في هذا الاختيار ما يجعل من العرب مميزين عن غيرهم أو
أنهم فوق بقية الناس؛ بل على العكس، فقد كانوا هم أكثر من حارب هذه
الرسالة في بدايتها وحاملها أيضاً (ص)، ومع ذلك فكون القرآن نزل باللسان
العربي فليس تمييزاً لهم، بل مسؤولية عليهم، وابتلاءً وعبثاً يُسألون عنه يوم
القيامة، لا موضوع تفاخر وتعالٍ على بقية الناس.

رابعاً: ليس كل من تحدث العربية هو عربي بالمعنى العرقي؛ ولذا فاللسان
العربي ليس حكراً على العرب وحدهم، ويمكن تعلمه واكتسابه. وكثيرون
يتقنون العربية أكثر ممن اكتسبها منذ الصغر، وهي في نهاية المطاف وسيلة
مخاطبة لا غاية في ذاتها، والقيمة هي في الرسالة لا في اللغة التي تحملها.

ولذا فإن ترجمة القرآن إلى لغات شتى كفيلة بنقل جوهر الرسالة وأحكامها وكل تفاصيلها دون أي نقص إلى كل الناس؛ بمعنى أن المسلم غير الناطق بالعربية يستطيع فهم كل شيء عن الإسلام دون تعلم العربية اللهم إلا في حفظ القرآن تلاوة (كون تلاوة القرآن أمراً تعبدياً)، وهذه لا تحتاج إلى تعلم، وإنما بالتكرار والمحاكاة حتى يتم الحفظ.

ولعل هذا من أظهر أسباب اختيار لسان محدد ليحمل الرسالة الخاتمة؛ فلو لم يكن محددًا لاستحال حفظ النص الإلهي الخاتم، وكان عرضة للتحريف والتلاعب به والضياع بين الألسن. فربما كان اختيار لسان محدد نزل به مبرره هو تحقق إمكانية حفظ النسخة الأصلية للنص الإلهي، التي يمكن بعد ذلك الترجمة منها بما لا يحدث أي نقص في تبليغ تعاليم الرسالة وأحكامها للناس كافة.

وفي قوله تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (يوسف: ٢)، {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ} (الرعد: ٣٧)، {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا} (طه: ١١٣)، {قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} (الزمر: ٢٨)، {كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا

عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ} (فصلت: ٣)، {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ} (الشورى: ٧)،

{إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} (الزخرف: ٣)، {وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّنُذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ} (الأحقاف: ١٢)،

{وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ} (النحل: ١٠٣)، {بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ} (الشعراء: ١٩٥)، {وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ} قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَٰئِكَ يُنَادُونَ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ} (فصلت: ٤٤)، فتفهم كلها إذا عرفنا أن من معاني وصف "عربي" الإبانة والفصاحة والوضوح؛ فكان القرآن وتعاليمه وأحكامه كذلك، أي واضحة بينة فصيحة سهلة الفهم والتلقي.

وقيل: المقصود هو الخلو من النقص والعيب؛ أي المثالي، والقرآن حسب هذا القول مثالي بالطبع. فكلها معانٍ تتكامل فيما بينها لتأكيد جمالية وكمال وعظمة هذا النص الخاتم الخالد.



يزعمون أن النبي (حاشاه) قد قال: "حب العرب إيمان، أو من الإيمان".

ونحن نقول: لماذا هو من الإيمان؟ هل لمجرد كونهم عرباً؟ أي: هل العلة في وجوب حبهم هي أنهم عرب؟ إذا كان الأمر كذلك، فوجب حب كل العرب، بمن فيهم رؤوس الكفر والنفاق منهم!

وإن قيل: لا، المقصود المسلمون منهم، فنقول لهم: هل لأنهم مسلمون أم لأنهم عرب؟ إذا كان لكونهم عرباً فقط، فكما قلنا يجب حبهم كلهم. وإذا كان المراد المسلمون منهم، فتصبح العلة إذن هي الإسلام. وإذا كان الأمر كذلك، فالحب هنا للمسلمين عموماً، والمسلمون فيهم العرب وغير العرب.



إن ما يشاهده المرء من تعالٍ وتفاخر وتعنصر وفوقية في خطاب الجهالة من العرب، الذين نفّروا خلق الله من دينه وكتابه الخاتم؛ ليعث على التقزز، ويفور منه الدم غضباً على ما أفسدوا وحرفوا في دين الله.

لقد تكلمنا في الصفحات السابقة، وقلنا إن اختيار الله لمحمد بن عبد الله ليكون رسوله وخاتم النبيين، واختياره للسان العربي المبين لحمل كلامه سبحانه وتعالى، ليس مدعاة تفاخر وتعاليٍّ للعرب؛ بل هي أولاً: إرادته تبارك وتعالى التي لا

تُسأل ولا تُرد، وهي ثانياً: مسؤولية ثقيلة يتحملها كل الناطقين بالعربية؛ ليوصلوا الرسالة الخاتمة إلى الناس كافة بمختلف اللغات. فإذا، ينبغي أن نغيّر التصور المشوّه الذي يتفشّى لدى كثير من العرب، والقائل بأن اختيار الله للعربية لساناً للوحي تشریف لهم؛ حاشا وكلا، وإنما هو تكليف صعب، ومسؤولية عظيمة، وحمل ثقيل، وعليه فإن الحساب لمن أساء في استقبال وفهم ذلك عسير.

وإن كثيراً من هؤلاء العنصريين من العرب، الذين لا يأبهون لدين الله أصلاً، ولا بتعاليمه وتطبيقاته ونشره -اللهم إلا بالتفاخر بأن الله تعالى قد يسرّ كتابه الخاتم على لسان [٢] رسوله الكريم بالعربية، معتقدين ذلك تمييزاً إلهياً عنصرياً لهم عن باقي البشر غيرهم، بحيث يكونون هم الأعلى والأقرب منه سبحانه، والباقون أدنى منهم وأبعد منه، سبحانه وتعالى عما يصفون ويعتقدون... إنني أكاد أجزم أن هؤلاء العنصريين ما كانوا ليستقبلوا الرسالة الخاتمة ولا الرسول حاملها، لو كان قد بُعث ﷺ في بلاد فارس أو روما أو الصين أو أفريقيا أو غيرها من البلدان، وبلسان غير اللسان العربي المبين. إن ما يحركهم ويتحكم بهم هو عنصريتهم وعصبيتهم القومية لا غير، ولا هم معنيون بالقرآن من حيث مضمونه، ومن حيث هو رسالة الله الخاتمة للناس كافة، بل من حيث لسانه

[٢]. {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لَّدَا} (مريم: ٩٧). / {فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} (الدخان: ٥٨).

فقط، متصورين أن كونه نزل بلسان عربي، فذلك حتماً رفع للعرب فوق بقية الخلق، وإن كانوا كفرة مشركين منافقين محاربين لله والرسول!!!!

وينسى هؤلاء الجهال أن أول حرب خاضها الرسول كانت مع عرب، وأول من حارب دعوة الرسول كانوا عرباً، وأول من حاول، وما يزال، تحريف هذه الرسالة هم عرب، ولولا تعهد الله بحفظ كتابه لما سلم من دسهم وشهرهم وعفهم. لتكن كلمتنا واضحة؛ هذه الرسالة أنزلها الله على رسوله محمد (ص) ليبلغها للعالمين، بدءاً بمن بُعث فيهم، وانتهاءً بالناس أجمعين، وإن على عاتق كل مسلم بعد وفاته (ص) الدعوة إلى كتاب الله بعد فهمه والعمل بما احتواه.

وإن كان العرب قد اعتبروا في نزول القرآن فضلاً من الله عليهم، فكان الجدير بهم وعي أن ذلك معناه المسؤولية بتبليغ الرسالة، والعمل بها وفهمها، ولو عملوا بها لما تطرق إلى خواطرهم اعتقاد التفوق على غيرهم لكونهم ناطقين بالعربية، وإنما التفوق الحقيقي هو في البر والتقوى (وتعانوا على البر والتقوى)؛ لذلك كان الأكرم عند الله عز وجل هو الأتقى، بغض النظر عن لغته وجنسه ولونه.

إن فضل الله وتفضيله ليس هو التمييز العنصري البشري، الذي يجعل "المُختار" فوق أي مساءلة، ومعفياً من أي مسؤولية، ومجرداً من كل تكليف؛ أي هو هكذا مميز عن غيره لهوى ومزاج!!!! حاشا وكلا، وتعالى الله عن ذلك.

ولذا فإننا عندما نقرأ مثلاً قوله تعالى عن بني إسرائيل: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} (البقرة: ٤٧)، فإننا لا نجتزئ الآية من سياقها الذي وردت فيه، ولا تستقيم دونه، وفيه الصورة الكاملة لحقيقة معنى هذا التفضيل، وأنه مسؤولية وتكليف عظيمان، لا تفضيلاً بالمعنى العنصري كما جاء عنهم في قوله تعالى: "وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ"، فرد عليهم ﷻ الله سبحانه في نفس الآية: {قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ} (المائدة: ١٨)! وتأمل قوله تعالى: {يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ} * وَأَمِنُوا بِمَا أُنزِلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ} * وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ} * أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تُلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} * وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ} * الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ} * يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ} * وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا

وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ { (البقرة: ٤٠-٤٨). فهل هذا هو ذات المعنى الذي لدى البشر للتفضيل؟ كلا وألف كلا.

ومثل هذا ينطبق على قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ { (الجمعة: ٢-٤)، فإن في النص أولاً: إخباراً بحقيقة، وثانياً: تفضلاً عليهم بأن حملهم مسؤولية النشر الأول للرسالة الخاتمة، ونشرها صافية نقية كما نزلت على رسوله الخاتم، دون زيادة أو نقصان، وخالية من التحريفات والإضافات البشرية.

وثالثاً: إن هذا التذكير لهم يتضمن إشارة إلى ما كانوا فيه من (ضلالٍ مبين)، وبالتالي تحذيراً من الانحراف عما حدده الله في كتابه من شرع وتعاليم، والتي لا تستقيم بحال مع ما نراه من ادعاء تفوق العرب وعلوهم على باقي البشر؛ وهذا، كما بينا، افتراء على الله وكذب. فالله عندما يقول: تذكروا فضله عليكم، أو أن ذلك فضله يؤتيه من يشاء، فإنه لا يعني: أي تملّوا على غيركم، وقولوا إنكم

فوقهم، وأحسن منهم، فلا تخضعون لمساءلة، ولا تكلفون بشيء، ولا يطلب منكم سعي ولا عمل ولا تقوى.. إلخ!!!

إن الله تبارك وتعالى عندما يذكر أحداً أو مجموعة من خلقه بفضله عليهم، فإن معناه: أن قوموا بما هو واجب عليكم -في المقابل- من عمل برسالته، ونشر لها، وتخلق بأخلاقها، وتطبيق لتعاليمها، وتواضع مع بقية الناس؛ لأنكم كلكم من "نفس واحدة"، والأكرم عند الله جل جلاله هو الأتقى منكم؛ ممن آمن وعمل صالحاً وسابق إلى الخيرات. يقول تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ..} (النساء: ١)، ويقول سبحانه: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ} (الحجرات: ١٣).

ثم هنالك شيء أخير بودي أن أضيفه قبل أن أختم هذا الحديث؛ وهو: لنفترض أن الرسالة الخاتمة هي للعرب وحدهم كما يزعم الجهلة المفترون؛ ولنفتح كتاب الله ونرى ماذا فيه؟ فهل نجد قيمة أخلاقية أو حكماً شرعياً أو تكاليف شعائرية لا تنطبق عند تطبيقها سوى على العرب؟! بحيث لا يمكن لغيرهم القيام بها؟!!

محال.

ومن قرأ كتاب الله تعالى يعرف أنه كتاب للبشرية جمعاء، لا بل للإنس والجن على حد سواء: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا} (الجن: ١-٢)؛ وأنه لا تمييز فيه بين عربي وغير عربي إلا بالتقوى، وأن الله وضع فيه الأسس الأخلاقية والقيمية للإنسانية جمعاء، بحيث إنه لا يمكن لمجتمع إنساني في العالم أن يعيش دونها؛ ذلك لأن كل تعاليم هذا الدين إنسانية، بمعنى أنها تصلح لكل الناس، وسهلة الاستيعاب والتلقي، وليست كما في كتب البشر التي يستطيع كل ناظر فيها -ومن أول مرة- أن يقول بمحدودية ما فيها زماناً ومكاناً. بينما كانت رسالة الله متجاوزة لكل الأزمنة، وكل الأمكنة، وصالحة لكل عصر ومصر. فهل هذا يتفق وقولهم بأنها رسالة للعرب وحدهم؟!

(٢)

قتلى في سبيل الطاغوت

على مدى عشر سنوات مضت، ونحن نسمع بسقوط القتلى تلو القتلى في صفوف جيش آل سعود، الذين شنوا حربهم الإجرامية العدوانية الكافرة في العام [٢٠١٥] على نساء وأطفال اليمن، وأطلقوا اسم «عاصفة الحزم» على حربهم تلك، وحشدوا دول العالم معهم بمئات المليارات من الدولارات للمشاركة في هذا الإجرام والعدوان؛ ومع كل جندي يسقط قتيلاً في اليمن، ينعاه المسعودون (ومنهم حتى الذين خارج الكيان السعودي) بوصفه "شهيداً" كنوع من التكريم له!

ومع أن وصف «شهيد» فيه اختلاف كثير من الأساس حول أصل إطلاقه على من يُقتل في سبيل الله؛ غير أننا هنا لسنا بصدد تحرير المصطلح، وسنعمد التعريف الذي يقول إن الشهيد هو من يُقتل في سبيل الله، وسُمي شهيداً لأنه حاضر، شاهد، حيٌّ عند ربه، ليس بميت، لقوله تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ} * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ

يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ { (آل عمران: ١٦٩-١٧١)، ذلك لأن الشهيد وصف يُطلق على الحي الحاضر، لا الميت الغائب، لقوله تعالى: { مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ } (المائدة: ١١٧)، ولكن على أية حال، لنسلم بالمعنى الأقرب لروح القرآن، وهو أن الشهيد سُمي شهيداً لأن من يُقتل في سبيل الله حيٌّ عند ربه ويرزق.

السؤال الآن: من أين سلّمتم (أيها المسعودون) بأن جيش آل سعود يقاتل في سبيل الله؟ وأنه جيش إسلامي أصلاً؟! لقد سبق وفصلنا في مقالات سابقة -وفي مقال قادم- القول في كفر آل سعود، وبينّا أن كل من ردّ أمراً واحداً لله عناداً واستكباراً فقد كفر، لقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ } (البقرة: ٣٤)، وقوله: {..أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ } (البقرة: ٨٥)، فكيف بمن تألّه وتجبّر وكفر وحرف معظم أحكام الدين؟! وقد بينّا أيضاً كيف أنهم (أي آل سعود) يدّعون لأنفسهم صراحة

الألوهية والربوبية، فيعتبرون أنفسهم فوق المساءلة، متشبهين بالله تعالى في صفة هي له حصراً: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} (الأنبياء: ٢٣)، ويعتبرون أنه لا شريك لهم في حكمهم، متشبهين به سبحانه في صفة هي له حصراً: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا} (الكهف: ٢٦)، ويعتبرون أنفسهم المالكين للبلاد والعباد، حتى إنهم نسبوا الأرض ومن عليها إليهم، فأصبح اسم الجزيرة العربية "السعودية"، وأصبح سكان الجزيرة "سعوديين"، وهم بذلك يسيرون على خطى جدتهم الأول وقدوتهم، فرعون، الذي قال: {أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى} (النازعات: ٢٤)، وقال: {أَلَيْسَ لِي مَلِكٌ مِّصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ} (الزخرف: ٥١)، وقال: {مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي} (القصص: ٣٨).

وهم كافرون بشريعة الله، فلا يحكمون بها، بل ويحرفونها هم وكهنتهم، فيحرّمون ما أحل الله ويحلّلون ما حرّم، والأمثلة على ذلك بلا حصر (خذ مثلاً تحريم الانتخابات، وقيادة المرأة سابقاً، والمجالس النيابية، والمشاركة الجماهيرية في السلطة، وإنشاء الجمعيات والمنظمات الحقوقية، وتأسيس الأحزاب السياسية، والخروج في مسيرات ومظاهرات، والإضرابات، ووووو... إلخ)،

ولا يأخذون من دينه تعالى سوى ما ليس فيه تهديد مباشر عليهم، كالشعائر الطقوسية وما شابهها، -وتجدهم يتسابقون أمام كاميرات التلفزة والإعلام للتظاهر بالخشوع والانكسار في الصلاة، وهم من ألدّ الخصام لدين الله-، ويكفرون بما له علاقة بطبيعة النظام السياسي في الإسلام؛ فلا يقبلون بقوله تعالى: {وَأْمُرْهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ} (الشورى: ٣٨)، وقوله: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} (آل عمران: ١٥٩)، وهي نصوص واضحة لا تحتمل التأويلات والتخرصات، ومع ذلك فهم لا يبالون، ويقولون صراحة: "الشورى فكرة غريبة"، ويعتبرون أن المجلس المكوّن من مجموعة عبيد متقاعدین الذي يُعینهُ الملك هو تطبيق لأمر الله بالشورى التي هي عامة بين الجماهير المسلمة كلها، وليس بتعيين من أحد من الخلق!!!!

وليس يقتصر كفرهم بشريعة الله على الكفر بالشورى وتحريفها، فهم يأكلون أموال الناس بالباطل (بالخصومات التي تصرف لكل وليد من آل سعود وحتى يهلك، والقصور والمزارع والأراضي والممتلكات التي لا حصر لها داخل وخارج الكيان السعودي، هذا فضلاً عن احتكارهم للسوق والتجارة ودخولهم بنسب كبيرة في كل مشروع وكل شركة في الزرية)، وشرعوا الربا من قبل، وافتتحوا البنوك الربوية، وفرضوا أشكالا وألوانا من المكوس على المسعودين،

وكانهم كله إنما قام من الأساس على الغضب والعدوان واستباحة الأنفس والأعراض.

إن الذي لا يقول بكفر آل سعود وعدوانهم وإجرامهم ونجاستهم، فهو جاهل بشرع الله أو كافر به، لا احتمال غير الاثنين... فلما تقدّم ما تقدّم عن حقيقة كفر آل سعود، ثبت بما لا يدع مجالاً للشك أنهم التمثّل الصريح والواضح لمعنى الطاغوت، وهو من الطغيان، أي مجاوزة الحد، {إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَا كُومًا فِي الْجَارِيَةِ} (الحاقة: ١١)، فكل من جاوز حدّه كبشر، مدّعياً لنفسه ما هو من الخصائص والصفات لله حصراً؛ وبالتالي يعطي لنفسه حق أن يحرم ويحلّل من عند نفسه وبما يخدم مصالحه، ويحرّف الكلم عن مواضعه، إلخ، فقد أصبح طاغوتاً بلا ريب؛ وهذا متحقق كامل التحقق في آل سعود الطاغين الغاصبين.

وعليه، فإن كل من يقاتل في جيشهم، فهو يقاتل في سبيلهم، ومن قاتل في سبيل الطاغوت فهو جندي من جنود الطاغوت، وهو كافر بنص القرآن المجيد: {الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا} (النساء: ٧٦)، وسبيل الله معروفة؛ وهي إعلاء كلمة الحق والعدل في الأرض (وشرع الله كله عدل وكله حق)، ورفع الإكراه الديني وكل صور الإكراه عن الناس

أجمعين، ونصرة كل المستضعفين، وردع الظالمين، ودفع المعتدين، أمّا عدا ذلك فليس هو إلا العدوان والفساد والبغي في الأرض ومحاربة الله ورسوله.

وكل الناس شرقاً وغرباً أضخوا يعرفون أن آل سعود هم الذين ابتدؤوا الحرب والعدوان على اليمن بحجج واهية كثيرة، وهم أصلاً يحتلون معظم جغرافية الجزيرة العربية حرباً وعدواناً، ويعيثون فيها الفساد والإجرام منذ وقبل قيام كيانهم الملعون... فكيف، والحال هذه، يوصف القتلى من جنود آل سعود المعتدين المجرمين، الذين يقتلون إخواننا في اليمن قصفاً وتجويعاً وإرهاباً، كيف يوصفون بالشهداء وينعون كأبطال مدافعين عن الإسلام والمسلمين؟! ونعلم أن كثيراً من هؤلاء الجنود قد قتلوا أساساً داخل الأراضي اليمنية، لا داخل حدود الكيان السعودي، فعلى أي أساس يوصفون بالشهداء يا أعداء الله؟! وليس يغفر لأي جندي من جنود آل سعود جهله، وكونه مجرد أداة أو عبد مأمور، ومن ظن أن ذلك ينجيّه أو يغفر له عند رب العالمين، فقد ساء ظنه وخاب رجاءه، وليتدبر كلام الله سبحانه في جنود فرعون وهامان: {وَأَنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ} (القصص: ٨)، لقد ساوى الله بينهم جميعاً؛ فرعون وهامان وجنودهما، كلهم، بلا استثناء... فمن أراد أن يكون مصيره مصير فرعون وهامان وجنودهما، فليبقَ في جيش آل سعود.

وبودي أن أشير هنا إلى أن لي أقارب كثيرين جنوداً في جيش آل سعود، فأقول: إني لا أفرق على الإطلاق بينهم وبين آل سعود، وحكمهم بالنسبة لي واحد، وهم كفرة جفرة ملاعين؛ ومن قُتل منهم في اليمن فقد نال جزاءه، وعسى أن يذوق الباقون منهم الجزاء الذي يستحقون بما أشركوا وقتلوا، وكانوا عبيداً وأدوات بيد آل سعود.

إن رابطة الدم والرحم في الإسلام لا تُقدّم على رابطة الإسلام ذاته، لا بل ولا تقترب حتى من أن تكون في موضع مقارنة أو مفاضلة بينهما؛ فليس بأخي من يقتل الأبرياء أو يساهم في ذلك، وليس بأبي من يأمرني بطاعة الطاغية أو يزيّن لي ذلك، وليست بأمي من لا تنهاني عن أذية خلق الله وعن عبادة الطغاة.. وليس بخالي ولا عمي ولا جدي من لا يتخذ موقفاً من الظالمين الكافرين المعتدين المحاربين لله والرسول.

لتكن الأمور واضحة؛ رضا الله غايتنا، وليس بمعصيته والكفر بشرعه ننال غايتنا؛ لا تحت شعار بر الوالدين، ولا الإحسان للأقربين، ولا تحت شعارات الوطنية والقومية والمصالح السياسية!!!!

تلك كلها معانٍ جاهلية؛ وما لم تقم كل الروابط الإنسانية على أساس الرابطة الإسلامية، وتكون ضمنها وتبعاً لها؛ فلا قيمة لها عندنا، ولا نلقي لها بالاً... من

يقتل الأبرياء ليس منا، من يعتدي على من لم يعتد علينا وعلى الأبرياء ليس منا، من يشارك المعتدين ولو بكلمة تأييد عابرة ليس منا، من لا يتبرأ من أعداء الله ورسوله والإنسانية ليس منا.

نحن نوالي من يوالي الله ورسوله، ونتبرأ من أعداء الله ورسوله ولو كانوا أقرب الأقربين، وذلك معناه أننا نتبرأ من كل من يعادي ويحارب قيم الإسلام (قيم الحرية والعدالة والشورى والتعايش والمساواة بين الناس ومسالمة المسلمين ونصرة المستضعفين والإحسان للناس أجمعين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، و... إلخ).

وأختم بقول الذي قوله الحق: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} (المجادلة: ٢٢)... فتأملوا هذه الآية جيداً، لتعرفوا حقيقة الإسلام الصحيح بعيداً عن التشويه والتحريف والتميع... هذا والسلام.

أنا مسلم.. إذن أنا حر.. إذن أنا مدافع عن الحرية

لعلّ من أهمّ الأفكار التي سعيْتُ، وما زلتُ، لإيضاحها وتبسيط الأضواء عليها باستمرار، هي فكرة هوية الإنسان (الإنسان المسلم) وفقاً للفلسفة الإسلامية القرآنية. وهي فلسفة لا نظير لها؛ إذ تنقل الإنسان من مستوى المادية والبهيمية إلى سماوات القيم والتعاليم والأخلاق والتشريعات العلوية الإلهية. وذلك كالتالي؛ الإنسان المسلم هو مسلم بمعنى أنه سلّم نفسه وعقله وروحه لما أنزله الله سبحانه وتعالى في كتابه العزيز؛ وما في هذا الكتاب إنما هي تعاليم وتشريعات وقيم ومبادئ تُشكّل في مجموعها العقيدة الإسلامية التي تتمحور حول «لا إله إلا الله».

وعليه، فالإنسان المسلم هنا يُعرّف عن ذاته، وتتحدد هويته من خلال تسليمه وإيمانه بهذه العقيدة التي، كما قلنا، هي عبارة عن مجموعة من التعاليم والقيم والأخلاق والتشريعات، إلخ؛ أي إن هوية المسلم متعلقة بأمور مجردة غير حسية، غير مادية. فكما أن غير المسلم يُعرّف عن ذاته ويُعبّر عن هويته من خلال إما انتمائه لنسل معين أو من خلال صدفة أنه وُلد في وطن معين وثقافة

معينة، فإن المسلم يُعرّف عن ذاته وهويته من خلال قوله إنه مسلم، من خلال اختياره لا صدفه الولادة؛ أي إنه يؤمن -باختياره- بتلك المجموعة من التعاليم والقيم التي تُشكّل العقيدة الإسلامية، بغضّ النظر عن أصله وإثنيته وبلده ونسله، بل إنه لا أهمية لها في التصور الإسلامي على أي حال؛ اللهم إلا في سياق التعارف لا أكثر، التعارف الإيجابي التفاعلي الذي يقود إلى التواصل، وبالتالي التعايش والتعاون، لا التمييزي الإقصائي الذي هو واقع البشرية اليوم، حيث قد يُقتل الإنسان على أساس اللون أو الاسم في بقاع مختلفة حول العالم.

إذن، فالإنسان المسلم هو، قبل أي شيء آخر، "إنسان مسلم"، وهو مسلم إذا التزم بالعقيدة الإسلامية التي تؤخذ من كتاب الله تبارك وتعالى، وهو مختار غير مُجبر ولا مُكره؛ فهو إذن يختار هويته، لا تُفرض عليه نكحاً لا محيد عنه.

وحتى تتضح الفكرة جيداً؛ لنأخذ هذا المثال: قيمة الحرية. وهذه القيمة في الإسلام هي من أعظم المقدسات، بل رأس كل المقدسات، وتتقدم على كل قيمة غيرها؛ إذ إن الإنسان، حتى يصحّ إسلامه من الأصل ويُقبل، لا يمكن أن يتم بغير أن يكون ذلك نابعاً من خيار الإنسان وقراره، وليس مُجبراً على ذلك (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى). فلا يصحّ مثلاً وصف كثير من المسلمين بأنهم مسلمون فقط لأنهم وُلدوا في بيئة

إسلامية، والواقع يُخبرنا بأن كثيراً من أبناء وبنات المسلمين كافرون بكل تعاليم هذا الدين، وهم إنما مُجبرون على التظاهر بعكس ما يُبطنون درءاً لخطر القتل أو النبذ المجتمعي. وهذا واقع لا يُنكره إلا جاهل أو مكابر.

بينما عندما نعود إلى المنبع الأصيل لهذا الدين، وأعني به القرآن المجيد، فإن أول ما يلفت النظر هو أن هذا الكتاب كله إنما أنزل من الأساس على الاعتراف بأن هذا الكائن المُنزّل عليه هذا الكتاب هو كائن حر؛ له عقل، فُطر على أن يُميّز بين الأشياء، فلا يجمع بين الشيء وضده، ويعرف أن الجزء أصغر من الكل، وأن لكل حادث بالضرورة سبباً، وأن الشيء إما أن يكون موجوداً أو غير موجود... وغيرها من مبادئ عقلية فطرية. فإِنزال هذا الكتاب على هذا الكائن هو بحدّ ذاته أهمّ وأول اعتراف بحرية الإنسان وجدارته وحقّه في الاختيار، ومن هنا نرى جوهرية ومركزية وأسبقية قيمة الحرية في النظرة والفلسفة الإسلامية.

ثم بعد ذلك، عندما ندخل إلى داخل النص القرآني، ونأخذ هذا النص على سبيل المثال: (لا إكراه في الدين)؛ لتطبيقه على فكرة هوية "الإنسان المسلم"، فإنه يكون التالي: اتفقنا أن المسلم هو مسلم لأنه قد سلّم مختاراً بما أنزله الله وحفظه في كتابه، ومن تلك المسلّمات أنه لا إكراه في الدين، وعليه، فكل من

يُكره غيره على الدين أو للخروج من الدين أو للبقاء فيه، فهو بالضرورة قد تجاوز حدًا من حدود الله؛ وبالتالي اختلّت هويته، وسقط حقّه في تعريفه عن نفسه بصفة "مسلم"، لأن المسلم الحق هو من أسلم وجهه لله باتباع أوامره واجتناب نواهيه، فإذا قال الله: لا إكراه، فيعني لا إكراه؛ من التزم بذلك يكون قد التزم بصفة التسليم لله، واستحقّ بالتالي وصف المسلم، ولم تضطرب هويته. وهذا في أهمّ شيء بالنسبة للإنسان المسلم (أي في الدين)، فكيف بما دونه؟

إن المسلم إنسان يُعرّف، أول ما يُعرّف به، من خلال عقيدته التي احتواها كتاب الله تعالى، وهويته تتشكّل وتتحدّد بناءً على ذلك. وليس معنى هذا أنه ليس للمسلم أن يحبّ مثلاً أرضه أو مكاناً بعينه، ولكن ليس ذلك هو الذي يحدّد هويته ويرسم له طريق تعامله مع الآخرين والوجود بأكمله من حوله. ولما قلنا إن تلك العقيدة تتشكّل من القيم والمبادئ والتعاليم والتشريعات العلوية الإلهية، فقد تبين من بين ذلك مركزية قيمة الحرية التي هي شرط أساسي لدخول الإسلام نفسه، كما هي قيمة مركزية في نصوص القرآن العظيم ذاته.

نقول، فلها تبين كل ذلك؛ فإن المسلم الحق هو الذي يعرف قيمة الحرية، ويُعظّمها ويُجلّها، ويشكر الله عليها ليل نهار بالمناداة بها والدعوة إليها، والذود عنها، وبتعزيز حضورها، وباحترامها. أن تقول: "أنا مسلم"، فمعنى ذلك أنك

مدافع شرس عن الحرية، بحيث تكون المسألة هكذا: "أنا مسلم، إذن أنا مدافع
عن الحرية".

(٤)

القول المبين في كفر آل سعود الغاصبين

لو سألنا أيَّ مسلمٍ في العالم يعي دينه جيداً، وقلنا له: ما حكم من شرَّع شيئاً من عنده لم يُنزل به الله سلطاناً، فخرَّم حلالاً، أو أوجب، أو أحلَّ حراماً، أو شكَّك في حرمة مع علمه بالحرام والحلال؟ سيقول: هو مشرك؛ (لأنه جعل هنالك مصدراً آخر للتشريع مع أو غير كتاب الله)، ومدَّع للألوهية؛ (لأنه نصب نفسه إلهاً مع الله أو بدونه، يحل ويحرم). وبذلك (أي بكونه كفر بالمرجعية الشرعية المتمثلة في كتاب الله وحده، وجعل نفسه إلهاً يحل ويحرم ما بدا له)، فهو كافر بالله وشرعه، أي إنه غطى شرع الله وستره بما يراه هو ويعجبه، فكأن لا وجود لله عنده ولا لشرعه، جلَّ الله وتعالى.

قال عزَّ من قائل، واصفًا اليهود والنصارى الذين كانوا يتبعون أحبارهم ورهبانهم فيما يحللون ويحرمون: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} (التوبة: ٣١)، فوصفهم الله تعالى بالشرك (أي من اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله يحرمون ويحللون لهم ما لم يُنزل به الله

من سلطان، وهو شرك التشريع، جامعاً ذلك مع الله -منهم- عيسى عليه السلام).

وعندما نعود إلى واقعنا، فإننا نجد ذات الأمر حاصلًا بوضوح من جهة آل سعود وكهنتهم؛ حتى لا نكاد نحصي عدد المباحات التي حرموها على الناس بوحى من الشيطان وأوليائه، مع علمهم التام أن لا نص عليها في كتاب الله، ولكنه الشرك البواح في أوضح صوره، والافتراء على الله وشرعه، فهم يعتبرون أنهم شركاء لله، يشرعون للناس، فيحلون ويحرمون ما تهوى أنفسهم، وما يبغي لهم عرشهم، ويحفظ لهم وضعهم الاستعبادي الإقطاعي الغاصب والمجرم المتسلط على رقاب المسلمين في جزيرة العرب.

ثم تعال وانظر -على سبيل المثال- كيف هم يقرؤون قوله تعالى: {وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ} (الشورى: ٣٨)، وقوله: {وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ} (آل عمران: ١٥٩)، والذي هو (أي الأمر بالشورى) أمر الله في شأن السلطة السياسية في الإسلام، فإذا كان ردهم؟ رفضوا ذلك عناداً واستكباراً وتعالياً على من يعتبرونهم عبيداً لهم، لا قيمة ولا صوت لهم، ولا ينبغي. وقد وصف الله تعالى كل من ردَّ أمراً من أوامره عناداً واستكباراً، كما هو الحال مع آل سعود

وكهنتهم، وصفهم بالكفر؛ لقوله تعالى عن رفض إبليس للأمر الإلهي بالسجود
لآدم: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ
مِنَ الْكَافِرِينَ} (البقرة: ٣٤). ووصف تعالى من يأخذ بجزء من الكتاب ويترك
جزءًا آخر -صغر أو كبر، قل أو كثر- بالكفر، لقوله: {..أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ
الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ..}، وتوعد من يفعل ذلك بالخزي في الحياة الدنيا،
وبأشد العذاب في الآخرة: {..فَمَا جزاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي
الحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}
(البقرة: ٨٥).

ووصف الله جل وعلا الذين لا يحكمون بما أنزله سبحانه بأنهم كافرون وظالمون
وفاسقون، كما في قوله تعالى: {..وَمَنْ لَّمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ
الْكَافِرُونَ} (المائدة: ٤٤)، {..وَمَنْ لَّمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}
(المائدة: ٤٦)، {..وَمَنْ لَّمْ يُحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} (المائدة: ٤٧)،
وهذا منطبق على آل سعود أيضًا تمام الانطباق؛ فهم يحكمون بغير ما
نزل الله، مع علمهم بما أنزل في كتابه، استكبارًا وحمودًا وعلوًّا.

ونصوص القرآن كثيرة في إثبات كفرهم، وانطباق آيات الكفار المحاربين
عليهم؛ ذلك لأنهم يحاربون الله بحربهم على رسالته وتعاليمها وأحكامها، وبكونهم

لا يحرمون ما حرم الله ورسوله، فيسفكون دماء الأبرياء، ويأكلون أموال الناس بالباطل، ويعتدون بغير حق، وينتهكون كرامات الناس وحریاتهم، ويمنعونهم أبسط حقوقهم، ويرتكبون شتى صور الظلم والفساد في الأرض. وأثقل ما يمكن أن يُذكر به آل سعود وكهنتهم هو قول الله، فإذا سمعوه زاد استكبارهم وإجرامهم، وتماديهم في تحريف كلام الله تبارك وتعالى. وإلا فليقل لنا من يستنكر علينا تكفيرهم: على ماذا استند آل سعود لتأسيس كيانهم الغاصب الإقطاعي؟

وعلى ماذا استندوا في تقرير الملكية الوراثية، حيث يتوارثون المسلمین كما لو أنهم قطع من الضأن؟! وعلى أي شيء استندوا ليأكلوا أموال الناس بالباطل (المخصصات، والسرقات، والاحتكارات، وغيرها)؟!

وعلى ماذا استندوا لينسبوا الشعب إليهم نسبة المتاع إلى صاحبه، فصاروا سعوديين (أي تابعين لمملوكين لآل سعود)، بدلاً من أن يكونوا مسلمين تابعين لله وحده؟! وبأي حق يستبد آل سعود بكل السلطات، ويحرمون الناس من أي متنفس لهم يعبرون من خلاله عن آرائهم، ومطالبهم، وأوجاعهم، ورفضهم لحكم الطاغوت؟! وبأي شرع أصبح لكل أمير من آل سعود الحق في انتزاع ما شاء من الأراضي في طول شبه الجزيرة وعرضها -إن أعجبتة-

وتسويرها، وضمها إلى أملاكه الخاصة؟! ومن يرفض أن يسلم أرضه له، فالقتل مصيره... وغيرها وغيرها.

ثم هم بعد ذلك كله يترفعون عن أن يسألهم أحد من هذا الشعب المسعود المنكود، فيترفعون عن المسائلة والحساب، معتبرين أنفسهم آلهة مع الله، فكما هو: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} (الأنبياء: ٢٣)، هم كذلك (أي آل سعود) لا يسألون ولا يناقشون.

ومعلوم أن هذا الكيان قد قام أول الأمر، واستمر حتى هذا العصر، على الغضب والجور والسلب والنهب، جنباً إلى جنب مع التكفير الذي استباحوا به دماء وأعراض وديار المسلمين في عموم شبه الجزيرة العربية، وحتى خارجها.

وعليه؛ فإننا نعلن هنا، ونؤكد ما تقرر لدينا من قبل، من أن هذه الأسرة (أسرة آل سعود) أسرة كافرة باغية غاصبة، محاربة لله ورسوله، تعلم دين الله وتعمل بعكسه، بجوداً واستكباراً واستعلاءً. يقرؤون أمر الله بالشورى، فيقولون: بل هي الوراثة لا سواها، ومن رفضها فالسيف الأملح في انتظاره. ويقرؤون أمر الله بأن المال مال الله، والناس مستخلفون فيه لا مالكون له على وجه الحقيقة، فيقولون: بل هو مالنا وحدنا، وغنيمة انتصارنا وتغلبنا على شعب الجزيرة، نتقاسمه فيما بيننا كما نشاء، دوناً عن المسعودين الأذلاء. ويقرؤون

قول الله في كفر من لم يحكم بما أنزل الله، فيقولون: بل الحكم لنا وبما نرى. ويقرؤون كبر جريمة تحريم ما أحل الله وتحليل ما حرم، فيقومون بالتحريم والتحليل وفق أهوائهم ومصالحهم، وما يخدم بقاء عرشهم وحكمهم الكفري الجاهلي الإقطاعي الفاشي.

ومن يعترض على تعميمنا على أسرة آل سعود، فالرد عليه هو: إن كل فرد من الأسرة يحمل لقب أمير، وله مخصصات من أموال المستضعفين، فقط لكونه من آل سعود، ولا تشملهم أي مساءلة، ولا يخضعون لأي قانون. فكلهم إذن في الكفر مشتركون.

أما الحساب، بعد إعلان قيام سلطة الجماهير وتمكنهم من رقاب آل سعود بعون المولى تعالى، فسيكون بقدر ما ارتكب كل فرد منهم؛ فالذي كان يسرق الأموال (المخصصات، والأراضي، وكلهم كذلك) حكمه غير الذي كان يسرق ويقتل ويستعبد، على أنهم كلهم سينالهم الحساب العسير الدقيق العادل، بإذنه تعالى، أمثالاً لقوله عز من قائل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ آلَا تَعْدِلُوا اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} (المائدة: ٨)، وعين العدل هو قتل من قتل، وقطع من سرق، وسجنه حتى يرد كل ما سرق... إلخ.

إننا نعلن، استناداً إلى النصوص الشرعية الكثيرة، أن آل سعود كفرة فجرة، محاربون لله وللرسول، يعلمون الحق ويحددونه، متقمصين دور إبليس الذي أبى أن يطيع أمر رب العالمين بالسجود لآدم، واستكبر، فكان من الكافرين.

خاتمة

وصلنا، بفضل الله، إلى نهاية الكتاب. لا يوجد عندي ما أضيفه؛ قلت وأوردت ما رأيت أنه الأقرب للحق؛ أي الأقرب لنصوص القرآن العظيم وروحه، ولم أخرج عن ذلك أو أشطح عنه بعيداً.

أرجو من المولى القدير التوفيق، وأن ييسّر لهذا الكتاب الوصول إلى المهتمين بموضوعاته، وأن يكون فيه البيان الشافي، والموقف الجلي، والاعتقاد الصافي الذي يتفق وكتاب الله المجيد.

فإن أصبت في شيء مما كتبت فمن الله، وإن أخطأت فمن نفسي والشيطان، فما أنا إلا إنسان.

هذا والسلام.

تم بحمد الله

بتاريخ ٢٤ أغسطس ٢٠٢٦ م

* حول المؤلف

راكبان آل عايض

- كاتب وباحث إسلامي، وناشط حقوقي وسياسي معارض من جزيرة العرب، أو ما يسمى غصباً وعدواناً بـ«السعودية».
- يقيم في المملكة المتحدة (بريطانيا) منذ سنوات، وينشط من هناك.

* نشر له عدة كتب، أبرزها:

- كتاب: [عَقِيدَتُنَا] (٢٠٢٦).
- كتاب: [على طريق التحرر والثورة في الجزيرة العربية: مقالات مختارة (٣)] (٢٠٢٦).
- كتاب: [على طريق التحرر والثورة في الجزيرة العربية: مقالات مختارة (٢)] (٢٠٢٦).
- كتاب: [على طريق التحرر والثورة في الجزيرة العربية: مقالات مختارة (١)] (٢٠٢٦).
- كتاب: [مقالة السعي المقدس] (٢٠٢٦).
- كتاب: [المرجع الأعلى في الإسلام: نحو إعادة مركزية وهيمنة القرآن] . (٢٠٢٦).
- كتاب: [شرطاً إسلامية الكيان السياسي: متى يكون الكيان السياسي إسلامياً أو غير إسلامي؟] (٢٠٢٦).

- كُتاب: [مفهوم الملك في القرآن: بين التمكين المشروط المؤقت والتمليك المطلق الدائم] . (٢٠٢٥).
- كُتاب: [المرأة المسلمة: بين تحرير الوحي وقيود الفهم] . (٢٠٢٥).
- كُتاب: [نحو دولة مدنية شورية جمهورية اتحادية في جزيرة العرب: رؤية للإصلاح والتغيير السياسي في ضوء المبادئ الإسلامية] . (٢٠٢٥).
- كتيب: [التغيير الذي نريد: جذري، شامل، ومنهجي] (٢٠٢٥).

عَقِيدَتُنَا

إن أكثر ما يطرحه علينا المخالفون أو المعادون لنا، ونعني بالذات عبيد آل سعود وكهنة الوهابية ومن لف لفهم؛ هو سؤال العقيدة! ما هي عقيدتنا؟ وما أكثر ما شككوا فيها، واتهمونا بكل اتهام يخطر على البال، ولذا كان هذا الكتاب. وهو -على أي حال- عمل ضمن سلسلة أعمال سابقة كثيرة، تطرقت فيها إلى معظم الموضوعات التي تشغل تفكير الإنسان المسلم المعاصر.

سأكون هنا واضحًا ومباشرًا؛ ما نعتقده ليس شاذًا عما يعتقده المسلمون الذين على كتاب الله يستندون ومنه ينطلقون؛ ولذا سوف نورد آراء مجتهدين ومفسرين كثر كما هي، لأننا ننتبها ونميل إليها، فلم نأت بجديد في أكثر ما كُتب، ولم نر حاجة لذلك أصلًا، ولكن كما قلت آنفًا، ليس المطلوب هو تقديم الجديد، وإنما الإفصاح عما نعتقده كما هو، دون لبس أو غموض، وقد فعلنا.

لم نجامل أحدًا في دين الله، ولم نتردد في إعلان موقفنا من كل ما يلزم له اتخاذ موقف، في كل الموضوعات والمسائل التي تطرقنا إليها في هذا الكتاب.

راكان آل عايض

1440 هـ | 2020 م